This is a reproduction of a library book that was digitized by Google as part of an ongoing effort to preserve the information in books and make it universally accessible.

Google books

https://books.google.com

This is a reproduction of a library book that was digitized by Google as part of an ongoing effort to preserve the information in books and make it universally accessible.

Google books

https://books.google.com

Digitized by Google

3 2044 010 136 620

This book should be returned to the Library on or before the last date stamped below.

A fine is incurred by retaining it beyond the specified time.

Digitized by Google

Digitized by Google

Digitized by Google

مقدمة ابن خلدون

PROLÉGOMÈNES

D'EBN-KHALDOUN

TEXTE ARABE

PUBLIÉ, D'APRÈS LES MANUSCRITS DE LA BIBLIOTHÈQUE IMPÉRIALE,

PAR M. QUATREMÈRE.

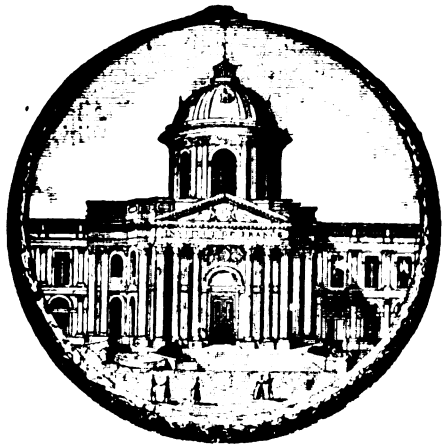

PARIS.

TYPOGRAPHIE DE FIRMIN DIDOT FRÈRES, FILS ET Cie.

IMPRIMEURS DE L'INSTITUT IMPÉRIAL DE FRANCE,

RUE JACOB, 56.

M DCCC LVIII.

Digitized by Google

23½ 14

[illegible]

Tomes 16, Pt. 1, 17, Pt. 1, 18, Pt. 1, 19, Pt. 2

Gray Fund.

Digitized by Google

مقدمة ابن خلدون

PROLÉGOMÈNES

D'EBN-KHALDOUN.

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على
سيّدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليما كثيرا

PROLÉGOMÈNES d'Ebn-Khaldoun.

يقول العبد الفقير الى رحمة ربّه الغنى بلطفه عبد الرحمن بن محمد
ابن خلدون الحضرمى وفّقه الله تعالى الحمد لله الذى له العزّة
والجبروت وبيده الملك والملكوت وله الاسماء الحسنى والنعوت
العالم فلا يعزب عنه ما تظهره النجوى او يخفيه السكوت القادر فلا
يعجزه شئ فى السموات والارض ولا يفوت انشاءنا من الارض نسما
واستعمرنا فيها اجيالا واما ويسر لنا منها ارزاقا وقسما تكنفنا
الارحام والبيوت ويكفلنا الرزق والقوت وتبلينا الايام والوقوت

Digitized by Google

وتَعْتَوِرُنا الآجال التى خط علينا كتابها الموقوت وله البقا والثبوت
وهو الحىّ الذى لا يموت والصلاة والسلام على سيّدنا محمد النبى
العربى المكتوب فى التورية والانجيل المنعوت الذى تمخض
لفصاله الكون قبل ان تتعاقب الآحاد والسبوت ويتباين زحل
والبهموت وشهد بصدقه الحمام والعنكبوت وعلى آله واصحابه
الذين لهم فى محبّته واتباعه الاثر البعيد والصيت والشمل
الجميع فى مظاهرته ولعدوهم الشمل الشتيت صلى الله عليه وعليهم
ما اتّصل للاسلام جدّه المبخوت وانقطع بالكفر حبله المبتوت
وسلّم كثيرا (اما بعد) فان فنّ التاريخ من الفنون التى تتداوله
الامم والاجيال وتشدّ اليه الركايب والرحال وتسمو الى معرفته
السوقة والاغفال وتتنافس فيه الملوك والاقيال وتتساوى فى فهمه
العلماء والجهّال اذ هو فى ظاهره لا يزيد على اخبار عن الايام
والدول والسوابق من القرون الأُوَل تنهق لها الاقوال وتصرف فيها
الامثال وتطرف بها الاندية اذا غصّها الاحتفال وتودى لنا شان
الخليقة كيف تقلّبت بها الاحوال واتّسع للدول النطاق فيها
والمجال وعمروا الارض حتى نادى بهم الارتحال وحان منهم الزوال
وفى باطنه نظر وتحقيق وتعليل للكاينات ومباديها دقيق وعلم
بكيفيّات الوقايع واسبابها عميق فهو لذلك اصل فى الحكمة عريق
وجدير بان يعدّ فى علومها وخليق وان فحول المورّخين فى الاسلام
قد استوعبوا اخبار الايام وجمعوها وسطروها فى صفحات الدفاتر

Digitized by Google

واودعوها وخلطها المتطفّلون بدسايس من الباطل وهموا فيها
وابتدعوها وزخرف من الروايات المضعفة لفقوها ووضعوها واقتفى
تلك الآثار الكثير ممن بعدهم واتبعوها وادوها الينا كما سمعوها
ولم يلاحظوا اسباب الوقايع والاحوال ولم يراعوها ولا رفضوا ترهات
الاحاديث ولا دفعوها فالتحقيق قليل وطرف التنقيح فى الغالب
كليل والغلط والوهم نسيب للاخبار وخليل والتقليد عريق فى
الاميين وسليل والتطفيل على الفنون عريض طويل ومرعى
الجهل بين الانام وبيل والحقّ لا يقاوم سلطانه والباطل يقذف
بشهاب النظر شيطانه والناقل انما هو يُملى وينقل والبصيرة تنقد
الصحيح اذا تمقل والعلم يجلو لها صفحات الصواب ويصقل هذا
وقد دوّن الناس فى الاخبار واكثروا وجمعوا تواريخ الامم والدول فى
العالم وسطروا والذين ذهبوا بفضل الشهرة والامامة المعتبرة واستفرغوا
دواوين من قبلهم فى صحفهم المتاخرة فهم قليلون لا يكادون
يجاوزون عدد الانامل ولا حركات العوامل مثل ابن اسحق
والطبرى والكلبى ومحمد بن عمر الواقدى وسيف بن عمر الاسدى
والمسعودى وغيرهم من المشاهير والمتميّزين عن الجماهير. وان
كان فى كتب المسعودى والواقدى من المطعن والمغمز ما هو
معروف عند الاثبات ومشهور بين الحفظة والثقات الا ان الكافة
اختصوهم بقبول اخبارهم واقتفا سننهم فى التصنيف واتباع آثارهم
والناقد البصير قسطاس نفسه فى تزييفهم فيما ينقلون او اعتبارهم

Digitized by Google

فللعمران طبايع فى احواله يرجع اليها الاخبار وتحمل عليها
الروايات والآثار ثم ان اكثر التواريخ لهولاء عامة المناهج والمسالك
لعموم الدولتين صدر الاسلام فى الآفاق والممالك وتناولها البعيد
من الغايات فى المآخذ والمتارك ومن هولاء من اوعب ما قبل الملة
من الدول والامم والامر العهم كالمسعودى ومن نحا منحاه وجاء بعدهم
من عدل عن الاطلاق الى التقييد ووقف فى العموم والاحاطة عن
الشاو البعيد فقيّد شوارد عصره واستوعب اخبار افقه وقطره واقتصر
على احاديث دولته ومصره كما فعل ابن ابو حيان مؤرخ الاندلس
والدولة الاموية بها وابن الرقيق مؤرخ افريقية
والدولة التى كانت بالقيروان لم يات من بعد هولاء الا مقلّد وبليد
الطبع والعقل او متبلد ينسج على ذلك المنوال ويحتذى منه
بالمثال ويذهل عما احالته الايام من الاحوال واستبدلت به من
عوايد الامم والاجيال فيجلبون الاخبار عن الدول وحكايات الوقايع
فى العصور الاول صورا قد تجردت عن موادّها وصفاحا انتضيت
من اغمادها ومعارف تستنكر للجهل بطارفها وتلادها انها هى
حوادث لم تعلم اصولها وانواع لم تعتبر اجناسها ولا تحققت
فصولها يكررون فى موضوعاتها الاخبار المتداولة باعيانها اتباعا
لمن عنى من المتقدمين بشانها ويغفلون امر الاجيال الناشية فى
ديوانها بما اعوز عليهم من ترجمانها فتستعجم صحفهم (1) عن

(1) Manusc. B. حجّتهم; manusc. C. صحفهم.

Digitized by Google

بيانها ثم اذا تعرضوا لذكر الدولة نسقوا اخبارها نسقا محافظين
على نقلها وهما او صدقا لا يتعرضون لبدايتها ولا يذكرون السبب
الذى رفع من رايتها واظهر من آيتها ولا علة الوقوف عند غايتها
فيبقى الناظر متطلعا بعد الى مبادى الاحوال ومراتبها مفتشا عن
اسباب تراجمها او تعاقبها باحثا عن المقنع فى تباينها او تناسبها
حسبما نذكر ذلك كلّه فى مقدمة الكتاب ثم جاء اخرون
بافراط الاختصار وذهبوا الى الاكتفاء باسماء الملوك والاقتصار
مقطوعة عن الانساب والاخبار موضوعة عليها اعداد ايامهم
بحروف الغبار كما فعله ابن رشيق فى ميزان العمل ومن اقتفى
هذا الاثر من الهمل وليس يعتبر لهولاء مقال ولا يعد لهم ثبوت
ولا انتقال لما ذهبوا بالفوايد واخلوا بالمذاهب المعروفة للمورّخين
والعوايد ولما طالعت كتب القوم وسبرت غور الامس واليوم نبهت
عين القريحة من سِنَة الغفلة والنوم وسمت التصنيف من نفسى
وانا المفلس احسن السوم فانشاءت فى التاريخ كتابا رفعت فيه
عن احوال الناشيَة من الاجيال حجابا وفصلته فى الاخبار والاعتبار
بابا بابا وابديت فيه لاولية الدول والعمران عللا واسبابا وبنيته على
اخبار الجيلين الذين عمروا المغرب فى هذه الاعصار وملوًا اكناف
الضواحى منه والامصار وما كان لهم من الدول الطوال والقصار
ومن سلف لهم من الملوك والانصار وهما العرب والبربر اذ هما
الجيلان الذان عرف بالمغرب ماواهما وطال فيه على الاحقاب

Digitized by Google

مثواها حتى لا يكاد يتصوّر عنه (1) منتواهما (2) ولا يعرف اهله من
اجيال الادميين سواها فهذبت مباحثه تهذيبا وقربته لافهام
العلماء والخاصّه تقريبا وسلكت فى تبويبه وترتيبه مسلكا غريبا
واخترعته من بين المناحى مذهبا عجيبا وطريقة مبتدعة واسلوبا
وشرحت فيه من احوال العمران والتمدن وما يعرض فى الاجتماع
الانسانى من الاعراض الذاتية ما يمتعك بعلل الكواين واسبابها
ويعرفك كيف دخل اهل الدول من ابوابها حتى تنزع من
التقليد يدك وتقف على احوال ما قبلك من الايام والاجيال
وما بعدك ورتبته على مقدّمة وثلاثة كتب (المقدّمة) فى فضل علم
التاريخ وتحقيق مذاهبه والالماع بمغالط المورّخين (الكتاب الاول)
فى العمران وذكر ما يعرض فيه من العوارض الذاتية من الملك
والسلطان والكسب والمعاش والصنايع والعلوم وما لذلك من
العلل والاسباب (الكتاب الثانى) فى اخبار العرب واجيالهم واولهم
منذ مبداء الخليقة الى هذا العهد وفيه الالمام ببعض من عاصرهم
من الامم المشاهير ودولهم مثل النبط والسريانيين والفرس وبنى
اسرايل والقبط ويونان والترك والروم (الكتاب الثالث) فى اخبار
البربر ومواليهم من زناتة وذكر اوليتهم واجيالهم وما كان لهم بديار
المغرب خاصة من الملك والدول ثم لما كانت الرحلة الى

(1) Man. A. من.

(2) Man. C. منشواهما.

Digitized by Google

المشرق لاجتلاء انواره وقضاء الفرض (1) والسنّة فى مطافه ومزاره والوقوف على آثاره فى دواوينه واسفاره فافدت ما نقصنى من اخبار ملوك العجم بتلك الديار ودول الترك فيها ملكوه من الاقطار واتبعت بها ما كتبته فى تلك الاسطار وادرجتها فى ذكر المعاصرين لتلك الاجيال من امم النواحى وملوك الامصار منهم والضواحى سالكا سبيل الاختصار والتلخيص مفتديا بالمرام السهل من العويص داخلا من باب الاسباب على العموم الى الاخبار على الخصوص فاستوعب (2) اخبار الخليقة استيعابا وذلّل من الحكم النافرة صعابا واعطى لحوادث الدول عللا واسبابا واصبح للحكمة صِوَانا وللتاريخ جرابا ولما كان مشتملا على اخبار العرب والبربر من اهل المدر والوبر والالمام بمن عاصرهم من الدول الكبر وافصح بالذكرى والعِبَر فى مبادى الاحوال وما بعدها من الخبر (3) سميته كتاب العبر وديوان المبتدا والخبر فى ايام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان الاكبر ولم اترك شيا فى اولية الاجيال والدول وتعاصر الامم الاول واسباب التصرف والحول (4) فى القرون الخالية والمِلَل وما يعرض فى العمران من دولة وملّة ومدينة وحلّة وعزّة وذلّة وكثرة وقلّة وعلم وصناعة وكسب واضاعة واحوال منقلبة مشاعة وبدو وحضر

(1) Man. B. الغرض.

(2) Man. B. استوعبت.

(3) Man. A. المخبر.

(4) Man. B. الخول. C. الجول.

Digitized by Google

وواقع ومنتظر الا واستوعبت جهله واوضحت براهينه وعلله فجاء هذا الكتاب فذّا بما ضمنته من العلوم الغريبة والحِكَم المحجوبة القريبة وانا من بعدها موقن بالقصور بين اهل العصور معترف بالعجز عن المضا فى مثل هذا القضا راغب من اهل اليد البيضاء والمعارف المتّسعة الفضاء فى النظر بعين الانتقاد لا بعين الارتضاء والتعمد لما يعثرون عليه بالاصلاح والاغضا فالبضاعة بين اهل العلم مزجاة والاعتراف من اللوم منجاة والحسنى من الاخوان مرتجاة والله اسال ان يجعل اعمالنا خالصة لوجهه وهو حسبى ونعم الوكيل

(المقدّمة) فى فضل علم التاريخ وتحقيق مذاهبه والالماع بما يعرض للمورّخين من المغالط والاوهام وذكر شئ من اسبابها

اعلم ان فن التاريخ فن عزيز المذهب جم الفايدة شريف العايدة(1) اذ هو يقفنا على احوال الماضين من الامم فى اخلاقهم والانبياء فى سِيَرهم والملوك فى دولهم وسياستهم حتى تتم فايدة الاقتداء فى ذلك لمن يرومه فى احوال الدين والدنيا فهو محتاج الى مآخذ متعددة ومعارف متنوعة وحسن نظر وتثبت يفضيان بصاحبهما الى الحق وينكبان به عن المزلات والمغالط لان الاخبار اذا اعتد (2) فيها مجرّد النقل ولم تحكم اصول العادة وقواعد السياسة وطبيعة العمران والاحوال فى الاجتماع الانسانى ولا قيس الغايب منها

(1) Man. C. الغاية.

(2) Man. B. اعتهد. C. اعتبر.

Digitized by Google

بالشاهد والحاضر بالذاهب فربما لم يؤمن فيها من العثور ومزلة القدم والحيد عن جادة الصدق وكثيرا ما وقع للمورّخين والمفسرين وايمّة النقل المغالط فى حكايات الوقايع لاعتمادهم فيها على مجرد النقل غثا او سمينا لم يعرضوها على اصولها ولا قاسوها باشباهها ولاسبروها بمعيار الحكمة والوقوف على طبايع الكاينات وتحكيم النظر والبصيرة فى الاخبار فضلّوا عن الحق وتاهوا فى بيداء الوهم والغلط سيما فى احصاء الاعداد والاموال والعساكر اذا عرضت فى الحكايات اذ هى مظنّة الكذب ومطية الهذر ولا بدّ من ردها الى الاصول وعرضها على القواعد وهذا كما نقل المسعودى وكثير من المورّخين فى جيوش بنى اسرائيل وان موسى عليه السلام احصاهم فى التيه بعد ان اجاز من يطيق حمل السلاح خاصة من ابن عشرين فما فوقها فكانوا ستماية الف او يزيدون ويذهل فى ذلك عن تقدير مصر والشام واتساعهما لمثل هذا العدد من الجيوش فلكل مملكة من الممالك حصة من الحامية تتسع لها وتقوم بوظايفها وتضيق عما فوقها تشهد بذلك العوايد المعروفة والاحوال المالوفة ثم ان مثل هذه الجيوش البالغة الى هذا العدد يبعد ان يقع بينها زحف او قتال لضيق ساحة الارض عنها وبعدها اذا اصطفت عن مدى البصر مرتين وثلاثا او ازيد فكيف يقتتل هذان الفريقان او تكون غلبة احد الصفين وشى من جوانبه لا تشعر بالجانب الاخر والحاضر يشهد لذلك فالماضى

Digitized by Google

اشبه بالآتى من الماء بالماء ولقد كان ملك الفرس ودولتهم اعظم
من ملك بنى اسرائيل بكثير يشهد بذلك ما كان من غلب
بخت نصر لهم والتهامه بلادهم واستيلايه على امرهم وتخريب بيت
المقدس قاعدة ملّتهم وسلطانهم وهو من بعض عمال مملكة فارس
يقال انه كان مرزبان المغرب من تخومها وكانت ممالكم بالعراقين
وخراسان وما وراء النهر والابواب اوسع من ممالك بنى اسرائيل
بكثير ومع ذلك لم تبلغ جيوش الفرس قط مثل هذا العدد
ولا قريبا منه واعظم ما كانت جموعهم بالقادسية ماية وعشرين الفا
كلهم متبوع على ما نقله سيف قال وكانوا فى اتباعهم اكثر من
مايتى الف وعن عايشة والزهرى ان جموع رستم التى زحف
بها لسعد بالقادسية انما كانوا ستين الفا كلهم متبوع وايضا فلو بلغ
بنو اسرائيل مثل هذا العدد لاتّسع نطاق ملكهم وانفسح مدى
دولتهم فان العمالات والممالك فى الدول على نسبة الحامية
والقبيل القايمين بها فى قلتها وكثرتها حسبما يتبين فى فصل
الممالك من الكتاب (1) والقوم لم تتسع ممالكهم الى غير
الاردن وفلسطين من الشام وبلاد يثرب وخيبر من الحجاز على
ما هو المعروف وايضا فالذى بين موسى واسرائيل انما هو ثلاثة
آباء على ما ذكره المحققون فانه موسى بن عمران بن قاهت بفتح
الها او كسرها بن لاوى بكسر الواو وفتحها ابن يعقوب وهو

(1) Le man. C. ajoute الاول.

Digitized by Google

اسرائيل الله هكذا نسبه فى التورية والمدة بينهما على ما نقله
المسعودى قال دخل اسرائيل مصر مع ولده الاسباط واولادهم حين
اتوا الى يوسف سبعين نفسا وكان مقامهم بمصر الى ان خرجوا
مع موسى عليه السلام الى التيه مايتين وعشرين سنة يتداولهم
ملوك القبط من الفراعنة ويبعد ان يتشعب النسل فى اربعة
اجيال الى مثل ذلك العدد وان زعموا ان عدد تلك الجيوش
انما كان فى زمن سليمان عليه السلام ومن بعده فبعيد ايضا اذ
ليس بين سليمان واسرائيل الا احد عشر اباء فانه سليمان بن
داود بن ايشاى بن عوبد ويقال عوفذ بن باعز ويقال بوعز بن
سلمون بن نجشون بن عَمِيناذاب ويقال حميناذب بن رام بن
حضرون ويقال حسرون بن بارس ويقال بيرس بن يهوذا بن
يعقوب ولا يتشعب النسل فى احد عشر من الولد الى مثل هذا
العدد الذى زعموه اللهم الى المئين والآلاف فربما يكون واما ان
يتجاوز الى ما بعدهما من عقود الاعداد فبعيد واعتبر ذلك فى
الحاضر الشاهد والقريب المعروف تجد زعمهم باطلا ونقلهم كاذبا
والذى ثبت فى الاسرايليات ان جنود سليمان كانت اثنى عشر
الفا خاصة وان مقرباته كانت الفا واربعماية فرس مرتبطة على
ابوابه هذا هو الصحيح من اخبارهم ولا يلتفت الى خرافات
العامة منهم وفى ايام سليمان عليه السلام كان عنفوان دولتهم
واتساع ملكهم هذا وقد نجد الكافة من اهل العصر اذا افاضوا فى

Digitized by Google

الحديث عن عساكر الدول التى لعهدهم او قريبا منه وتفاوضوا
فى الاخبار عن جيوش المسلمين والنصارى او اخذوا فى احصاء
اموال الجبايات وخرج السلطان ونفقات المترفين وبضايع الاغنياء
الموسرين توغّلوا فى العدد وتجاوزوا حدود العوايد وطاوعوا وساوس
الاغراب فاذا استكشف اصحاب الدواوين عن عساكرهم
واستنبطت احوال اهل الثروة فى بضايعهم وفوايدهم واستجلبت
عوايد المترفين فى نفقاتهم لم تجد معشار ما يعدونه وما ذلك
الا لولوع النفس بالغرابة وسهولة التجاوز على اللسان والغفلة عن
المعقب والمنتقد حتى لا يحاسب نفسه على خطا ولا عمد
ولا يطالبها فى الخبر بتوسط ولا عدالة ولا يرجعها الى بحث
وتفتيش فيرسل عنانه ويسيم فى مراتع الكذب لسانه ويشترى
لهو الحديث ليضل عن سبيل الحق وحسبك بها صفقة خاسرة
وقد يقال ان العوايد انها تمنع من نمو الذرية الى مثل (1) هذا العدد
فى غير بنى اسرائيل لان ذلك كان معجزة على ما نقل انه كان
فيما اوحى الى آبايهم من الانبياء ابراهيم واسحق ويعقوب صلوات
الله عليهم ان الله يكثر ذريتهم حتى يكاثر نجوم السماء وحصى
الارض وانجز الله لهم هذا الوعد كرامة لهم ومعجزة خارقة للعادة
فى حقّهم فلا تعترضه العوايد ولا يطعن فيه احد وان عارض احد
بالطعن على خبر ذلك وانه انها ورد فى التورية واليهود قد

(1) Man. A. نسل.

Digitized by Google

بدلوها على ما هو معروف فالقول بهذا التبديل مرجوح عند المحققين وليس على ظاهره لان العادة مانعة من اعتماد اهل الاديان ذلك فى صحفهم الالهية كما ذكره البخارى فى صحيحه فيكون هذا النمو الكثير فى بنى اسرائيل معجزة خارقة للعادة وتبقى العادة مانعة من ذلك فى غيرهم على حكم دلالتها واما استبعاد الزحف بينهم فصحيح لكنه لم يقع ولم تدع اليه حاجة واختصاص كل مملكة بعددها من الحامية صحيح وبنو اسرائيل لم يكونوا اولا حامية ولم يكن لهم دولة وانما نموا هذا النمو ليستولوا على ارض كنعان التى وعدهم الله بها وطهر لهم بقعتها وكل هذه معجزات والله الهادى الى الحق (ومن الاخبار الواهية للمورّخين) ما ينقلونه كافة فى اخبار التبابعة ملوك اليمن وجزيرة العرب انهم كانوا يغزون من قرارهم باليمن الى افريقية والبربر من بلاد المغرب والى الترك وبلاد التبت من بلاد المشرق وان افريقس (1) بن قيس بن صيفى من اعاظم ملوكهم الاول وكان لعهد موسى عليه السلام او قبله بقليل غزا افريقية واثخن فى البربر وانه الذى سماهم بهذا الاسم حين سمع رطانتهم وقال ما هذه البربرة فاخذ هذا الاسم عنه ودعوا به من يوميذ وانه لما انصرف عن المغرب جمّر هناك قبايل من حمير فاقاموا بها فاختلطوا باهلها ومنهم صنهاجة وكتامة ومن هذا ذهب الطبرى والجرجانى

(1) Man. A. امرنقس. Man. B. امرنفس.

Digitized by Google

والمسعودى وابن الكلبى والبيهقى الى ان صنهاجة وكتامة من
حمير وباباه نسابة (1) البربر وهو الصحيح وذكر المسعودى ايضا
ان ذا لاذعار من ملوكهم بعد افريقس وكان على عهد سليمان عليه
السلام غزا المغرب ودوّخه وكذلك ذكر مثله عن ياسر ابنه من
بعده وانه بلغ وادى الرمل من بلاد المغرب ولم يجد فيه مسلكا
لكثرة الرمل فرجع وكذلك يقولون فى تبع الآخر وهو اسعد ابو
كرب وكان على عهد يستاسب من ملوك الفرس الكينية انه
ملك الموصل واذربيجان ولقى الترك فهزمهم واثخن فيهم
ثم غزاهم وثانية وثالثة كذلك وانه بعد ذلك اغزا ثلاثة
من بنيه الى بلاد فارس والى بلاد الصغد من امم الترك وراء النهر
والى بلاد الروم فملك الاول البلاد الى سمرقند وقطع المفازة الى
الصين فوجد اخاه الثانى الذى غزا الى الصغد قد سبقه اليها
فاثخنا فى بلاد الصين ورجعا جميعا بالغنايم وتركوا ببلاد التبت
قبايل من حمير فهم بها لهذا العهد وبلغ الثالث الى قسطنطينية
فحاصرها ودوّخ بلاد الروم ورجع وهذه الاخبار كلها بعيدة عن الصحّة
عريقة فى الوهم والغلط واشبه باحاديث القصاص الموضوعة وذلك
ان ملك التبابعة انما كان بجزيرة العرب وقرارهم وكرسيهم بصنعاء
اليمن وجزيرة العرب يحيط بها البحر من ثلاث جهاتها فبحر
الهند من الجنوب وبحر فارس الهابط منه الى البصرة من

(1) Man. A. نسبة.

Digitized by Google

الشرق وبحر السويس الهابط منه ايضا الى السويس من اعمال
مصر من جهة المغرب كما تراه فى مصوّر الجغرافيا فلا يجد
السالك من اليمن الى المغرب طريقا من غير السويس
والمسلك هناك ما بين بحر السويس والبحر
الشامى قدر مرحلتين فما دونها ويبعد ان يمرّ بهذا
المسلك ملك عظيم فى عساكر موفورة من غير ان تصير من
اعماله هذا ممتنع فى العادة وقد كان بتلك الاعمال العمالقة
وكنعان بالشام والقبط بمصر ثم ملك العمالقة مصر وملك
بنو اسرائيل الشام ولم ينقل قط ان التبابعة حاربوا احدا من
هولاء الامم ولا ملكوا شيا من تلك الاعمال وايضا فالشقة من
اليمن الى المغرب بعيدة والازودة والعلوفة للعساكر كثيرة فاذا ساروا
فى غير اعمالهم احتاجوا الى انتساف الزروع والنعم وانتهاب
البلاد فيما يمرّون عليه ولا يكفى ذلك للازودة والعلوفة عادة وان
نقلوا كفايتهم من ذلك من اعمالهم فلا تفى لهم الرواحل بنقله
فلا بد وان يمرّوا فى طريقهم كلها باعمال قد ملكوها ودوّخوها
لتكون الميرة منها وان قلنا ان تلك العساكر تمرّ بهولاء الامم
ولا تهيجهم فتحصل لهم الميرة بالمسالمة فذلك ايضا ابعد واشدّ
امتناعا فدلّ على ان هذه الاخبار واهية او موضوعة واما وادى
الرمل الذى يعجز السالك فلم يسمع قط ذكره فى المغرب
على كثرة سالكه ومن نفض طرقه من الركاب والغُزّى فى كل

Digitized by Google

عصر وكل جهة وهو على ما ذكروه من الغرابة مما تتوقر الدواعى
على نقله وامّا غزوهم بلاد الشرق وارض الترك وان كانت طريقه
اوسع من مسلك السويس الا ان الشقة هنا ابعد وامم فارس
والروم معترضون فيها دون الترك ولم ينقل قط ان التبابعة ملكوا
بلاد فارس ولا بلاد الروم وانّما كانوا يحاربون اهل فارس على حدود
ارض العراق وبلاد العرب ما بين البحرين والحيرة المتاخمة
بينهما فى الاعمال وقد وقع ذلك بين ذى الاذعار منهم
وكيقاوس من ملوك الكيينية وبين تبع الاصغر ابو كرب ويستاسب
منهم ايضا ومع ملوك الطوايف بعد الكيينية والساسانية من
بعدهم فمجاوزة التبابعة ارض فارس بالغزو الى بلاد الترك والتبت
ممتنع عادة من اجل الامم المعترضة دونهم والحاجة الى الازودة
والعلوفات مع بعد الشقّة كما مرّ فالاخبار بذلك واهية مدخولة
وهى لو كانت صحيحة النقل لكان ذلك قادحا فيها فكيف
وهى لم تنقل من وجه صحيح وقول ابن اسحق ان تبّعا الآخر
سار الى المشرق محمول على العراق وبلاد فارس وامّا بلاد الترك
والتبت فلا يصحّ غزوهم اليها بوجه بما تقرّر فلا تثقن بها يلقى
اليك من ذلك وتامّل الاخبار واعرضها على القوانين
الصحيحة يقع لك تمحيصها باحسن وجه والله الهادى الى
الصواب (فصل) وابعد من ذلك واعرق منه فى الوهم ما يتناقله
المفسّرون فى تفسير سورة الفجر عند قوله تعالى الم تر كيف فعل

Digitized by Google

PROLÉGOMÈNES d'Ebn-Khaldoun.

ربّك بعاد ارم ذات العماد يجعلون لفظة ارم اسما لمدينة وصفت بانّها ذات العماد اى الاساطين وينقلون انّه كان لعاد ابن عوض بن ارم ابنان هما شديد وشداد ملكا من بعده وهلك شديد فخلص الملك لشداد ودانت له ملوكهم وسمع وصف الجنّة فقال لابنينّ مثلها فبنى مدينة فى صحارى عدن فى ثلثماية سنة وكان عمره تسعماية سنة وانّها مدينة عظيمة قصورها من الذهب والفضّة واساطينها من الزبرجد والياقوت وفيها اصناف الشجر والانهار المطردة ولمّا تمّ بناوها سار اليها باهل مملكته حتى اذا كان منها على مسيرة يوم وليلة بعث الله عليهم صيحة من السماء فهلكوا ذكر ذلك الطبرى والثعالبى والزمخشرى وغيرهم من المفسّرين وينقلون عن عبد الله بن قلابة من الصحابة انّه خرج فى طلب ابل له فوقع عليها وحمل منها ما قدر عليه وبلغ خبره الى معوية فاحضره وقصّ عليه فبعث الى كعب الاحبار وساله عن ذلك فقال هى ارم ذات العماد وسيدخلها رجل من المسلمين فى زمانك احمر اشقر قصير على حاجبه خال وفى عنقه خال يخرج فى طلب ابل له ثم التفت فابصر ابن قلابة فقال والله هذا ذلك الرجل انتهى وهذه المدينة لم يسمع لها خبر من يومئذ فى شئ من بقاع الارض وصحارى عدن التى زعموا انها بنيت فيها هى فى وسط اليمن وما زال عمرانه متعاقبا والركاب والادلّاء تنفض طرقه من كل وجه ولم ينقل عن هذه المدينة خبر

Digitized by Google

ولا ذكرها احد من الاخباريّين ولا من الامم ولو قالوا انّها درست فيما درس من الآثار لكان اشبه الّا ان ظاهر كلامهم انّها موجودة وبعضهم يقول انّها دمشق بناء على انّ قوم عاد ملكوها وقد ينتهى الهذيان ببعضهم الى انّها غايبة عن الحسّ وانّما يعثر عليها اهل الرياضة والسحرة مزاعم كلها شبيهة بالخرافات والذى حمل المفسّرين على ذلك ما اقتضته صناعة الاعراب فى لفظ ذات العماد من انّها صفة ارم وحملوا العماد على الاساطين يتعيّن ان يكون بناء ورشح لهم ذلك قرآءة ابن الزبير عادِ ارم على الاضافة من غير تنوين ثم وقفوا على تلك الحكايات التى هى اشبه بالاقاصيص الموضوعة واقرب لتفاسير(1) سيفوية المنقولة فى عداد المضحكات والّا فالعماد هى عماد الخيام وان اريد بها الاساطين فلا بدع بوصفهم بانّهم اهل بناء واساطين على العموم بما اشتهر من قوّتهم لا انّه بناء خاص فى مدينة معيّنة او غيرها وان اضيفت كما فى قرآءة بن الزبير فعلى اضافة الفصلة الى القبيلة كما تقول قريش كنانة والياس مضر وربيعة نزار من غير ضرورة الى هذا المحمل البعيد الذى يجلب لتوجيهه امثال هذه الحكايات الواهية التى تنزّه كتاب الله عن مثلها لبعدها عن الصحّة (ومن الحكايات المدخولة للمورّخين) ما ينقلونه كافة عن سبب نكبة الرشيد للبرامكة من قصّة العبّاسة اخته مع جعفر بن يحيى بن خالد مولاه وانّه

(1) Man. A. للتفاسير.

لكلفه بكانهما من معاقرته اياها الخمر اذن لهما فى عقد النكاح
دون الخلوة حرصا على اجتماعهما فى مجلسه وانّ العبّاسة
تحيّلت عليه فى التماس الخلوة به لما شغفها من حبّه حتّى
واقعها فى حالة سكر فحملت ووشى بذلك للرشيد فاستغضب
وهيهات ذلك من منصب العبّاسة فى دينها وابوتها وجلالها
وانّها بنت عبد الله بن عبّاس ليس بينها وبينه الّا اربعة رجال
هم اشراف الدين وعظماء الملّة من بعده العبّاسة بنت محمّد
المهدى بن عبد الله ابى جعفر المنصور بن محمّد السجّاد بن
على ابى الخلفاء بن عبد الله ترجمان القران بن العبّاس عمّ
النبى صلّى الله عليه وسلّم بنت خليفة اخت خليفة محفوفة
بالملك العزيز والخلافة النبويّة وصحبة الرسول وعمومته وامامة
الملّة ونور الوحى ومهبط الملايكة من ساير جهاتها قريبة عهد
ببداوة العربيّة وسداجة الدين البعيدة من عوايد الترف ومراتع
الفواحش فاين يطلب الصون والعفاف اذا ذهب عنها واين
توجد الطهارة والزكاء اذا فقد من بيتها وكيف تلحم نسبها
بجعفر بن يحيى وتدنس شرفها العربى بمولى من موالى
العجم تملك جدّه من الفرس مولاه (1) جدّها من عمومة
الرسول واشراف قريش وغايته ان جذبت دولتهم بضبعه وضبع
ابيه واستخلصتهم ورقتهم الى منازل التشريف وكيف يسوغ

(1) Man. C. او تولاها.

Digitized by Google

من الرشيد ان يصهر الى موالى العجم على بعد همّته وعظم آبايه
ولو نظر المتامّل فى ذلك نظر المنصف وقاس العبّاسة بابنة
ملك من اعاظم ملوك زمانه لاستنكف لها عن مثله مع مولى
من موالى دولتها وفى سلطان قومها واستنكره ولج (1) فى
تكذيبه واين قدر العبّاسة والرشيد من الناس وانما نكب البرامكة
ما كان من استبدادهم على الدولة واحتجابهم اموال الجباية حتى
كان الرشيد يطلب اليسير من المال فلا يصل اليه فغلبوه على امره
وشركوه فى سلطانه ولم يكن له معهم تصرّف فى امور ملكه
فعظمت آثارهم وبعد صيتهم وعمروا مراتب الدولة وخططها
بالروساء من ولدهم وصنايعهم واحتازوها عمّن سواهم من وزارة
وكتابة وقيادة وحجابة وسيف وقلم يقال انه كان بدار الرشيد
من ولد يحيى بن خالد خمسة وعشرون رئيسا من بين
صاحب سيف وصاحب قلم زاحموا فيها اهل الدولة
بالمناكب ودفعوهم عنها بالراح لمكان ابيهم يحيى من
كفالة هارون ولى عهد وخليفة حتّى شبّ فى حجره ودرج
من عشّه وغلبه على امره وكان يدعوه يا ابتى فتوجّه الايثار
من السلطان اليهم وعظمت الدالة منهم وانبسط الجاه عندهم
وانصرفت نحوهم الوجوه وخضعت لهم الرقاب وقصرت
عليهم الآمال وتخطّت اليهم من اقصى التخوم هدايا الملوك

(1) Man. A. لجا.

Digitized by Google

PROLÉGOMÈNES d'Ebn-Khaldoun.

وتحف الامراء وتسرّبت الى خزاينهم فى سبيل التزلّف والاستمالة اموال الجباية وافاضوا فى رجال الشيعة وعظماء القرابة العطاء وطوّقوهم المنن وكسبوا (1) من بيوتات الاشراف المعدم وفكّوا العانى ومدحوا بما لم يمدح به خليفتهم واسنوا لعفاتهم الجوايز والصلات واستولوا على القرى والضياع من الضواحى والامصار فى ساير الممالك حتّى اسفوا البطانة واحقدوا الخاصّة واغضوا اهل الولاية فكشفت لهم وجوه المنافسة والحسد ودبّت الى مهادهم الوثيرة من الدولة عقارب السعاية حتّى لقد كان بنو قحطبة (2) اخوال جعفر من اعظم الساعين عليهم لم تعطفهم لها وقر فى نفوسهم من الحسد عواطف الرحم ولا وزعتهم اوامر القرابة وقارن تلك عند مخدومهم نواشئ (3) الغيرة والاستنكاف من الحجر والانفة وكامن الحقود (4) التى بعثتها منهم صغاير الدالة وانتهى بها الاصرار على شانهم الى كباير المخالفة كقصّتهم فى يحيى بن عبد الله بن الحسن بن الحسين بن على بن ابى طالب اخى محمّد المهدى الملقّب بالنفس الزكيّة الخارج على المنصور ويحيى هذا هو الذى استنزله الفضل بن يحيى من بلاد الديلم على امان الرشيد بخطه وبذل الف الف درهم على

(1) Man. B. كيسوا.

(2) Man. B. قحطينة.

(3) Man. A. مواشى.

(4) Man. A. الحقد.

Digitized by Google

ما ذكره الطبرى ودفعه الرشيد الى جعفر وجعل اعتقاله بداره والى نظره فحبسه مدّة ثم حملته الدالة على تخلية سبيله والاستبداد بحلّ عقاله حرصا لدماء اهل البيت بزعمه ودالة على السلطان فى حكمه وساله الرشيد عنه لما وشى به عليه ففطن وقال اطلقته فابدى له وجه الاستحسان واسرّها فى نفسه فاوجد السبيل بذلك على نفسه وقومه حتى ثلّ عرشهم واكفيت عليهم سماوهم وخسفت الارض بهم وبدارهم وذهبت سلفا ومثلا للاخرين ايّامهم ومن تامّل اخبارهم واستقصى سير الدولة وسيرهم وجد ذلك محقّق الاثر ممهد الاسباب (وانظر) ما نقله ابن عبد الله فى مفاوضة الرشيد عمّ جدّه داوود بن على فى شأن نكبتهم وما ذكره فى باب الشعراء من كتاب العقد فى محاورة الاصمعى للرشيد وللفضل بن يحيى فى سمرهم تتفهّم انه انّما قتلهم الغيرة والمنافسة فى الاستبداد من الخليفة فمن دونه وكذلك ما تحيّل به اعداوهم (1) من البطانة فيها دسّوه للمغنيين من الشعراء احتيالا على اسماعه للخليفة وتحريك حفايظه لهم وهو قوله

ليت هند انجزتنا ما تعد وشفت انفسنا مما تجد

واستبدّت مرّة واحدة انما العاجز من لا يستبد

وان الرشيد لمّا سمعها قال اى والله عاجز حتى بعثوا بامثال

(1) Man. A. et B. اعدادهم.

Digitized by Google

هذه كامن غيرته وسلّطوا عليهم بأس انتقامه نعوذ بالله من غلبة الرجال وسوء الحال وامّا ما تموه به الحكاية من معاقرة الرشيد الخمر واقتران سكره بسكر الندمان فحاشا (1) لله ما علمنا عليه من سوء واين هذا من حال الرشيد وقيامه بها يجب لمنصب الخلافة من الدين والعدالة وما كان عليه من صحابة العلماء والاولياء ومحاورته للفضل بن عياض وابن السماك والعمرى ومكاتبته سفيان وبكايه من مواعظهم ودعايه بمكة فى طوافه وما كان عليه من العبادة والمحافظة على اوقات الصلوات وشهود الصبح باول (2) وقتها حكى الطبرى وغيره انه كان يصلّى كل يوم ماية ركعة نافلة وكان يغزو عاما ويحجّ عاما ولقد زجر ابن ابى مريم مضحكة سمره حين تعرض له بمثل ذلك فى الصلاة لما سمعه يقراء وما لى لا اعبد الذى فطرنى قال والله لا ادرى لم فما تمالك (3) الرشيد ان ضحك ثم التفت مغضبا وقال يا بن ابى مريم فى الصلاة ايضا اياك اياك والقران والدين ولك ما شئت بعدها وايضا فقد كان من العلم والسذاجة بمكان لقرب (4) عهده من سلفه المنتحلين لذلك ولم يكن بينه وبين جدّه ابى جعفر بعيد زمن انّما خلفه غلاما وقد كان

(1) Man. B. حاشى لله. C. حاش.

(2) Cod. B. لاول.

(3) Man. A. تهلك.

(4) Man. A. بقرب.

Digitized by Google

ابو جعفر بمكان من العلم والدين قبل الخلافة وبعدها وهو القايل لمالك حين اشار عليه بتاليف الموطا يا ابا عبد الله انه لم يبق على وجه الارض اعلم منّى ومنك وانّنى قد شغلتنى الخلافة فضع انت للناس كتابا ينتفعون به تجنّب فيه رخص ابن عبّاس وشدايد ابن عمر ووطّيه للناس توطية فقال مالك فوالله لقد علمنى التصنيف يومئذ ولقد ادركه ابنه المهدى ابو الرشيد هذا وهو يتورّع عن كسوة الجديد لعياله من بيت المال ودخل عليه يوما وهو بمجلسه يباشر الخيّاطين فى ارقاع الخلقان من ثياب عياله فاستنكف المهدى من ذلك وقال يا امير المومنين علىّ كسوة هذا العيال عامنا هذا من عطآءى فقال لك ذلك ولم يصده عنه ولا سمح بالانفاق من اموال المسلمين فكيف يليق بالرشيد على قرب العهد من هذا الخليفة وابوته وما ربى عليه من امثال هذه السير فى اهل بيته والتخلق (1) بها ان يعاقر فى الخمر او يجاهر بها وقد كانت حال الاشراف من العرب الجاهليّة فى اجتناب الخمر معلومة ولم تكن الكرم شجرتهم (2) وكان شربها مذمّة عند الكبير منهم والرشيد وآباوه كانوا على نهج من اجتناب المذمومات فى دينهم ودنياهم والتخلّق بالمحامد واوصاف الكمال ونزعات العرب (وانظر) ما نقله الطبرى

(1) Man. A. التخلّق.

(2) Man. A. شجرته.

Digitized by Google

PROLÉGOMÈNES d'Ebn-Khaldoun.

والمسعودى فى قصّة جبرئيل بن بختيشوع الطبيب حين احضر له السمك فى مايدته فحماه عنه ثم امر صاحب المايدة بحمله الى منزله وفطن الرشيد وارتاب به ودسّ خادمه حتى عاينه يتناوله فاعدّ ابن بختيشوع للاعتذار ثلاث قطع من السمك فى ثلاثة اقداح خلط احداها باللحم المعالج بالتوابل والبقول والبوارد والحلوى وصبّ على الثانية ماء مثلجا وعلى الثالثة خمرا صرفا وقال فى الاول والثانى هذا طعام امير المومنين ان خلط السمك بغيره او لم يخلط وقال فى الثالثة هذا طعام بختيشوع ودفعها الى صاحب المايدة حتى اذا انتبه الرشيد واحضر للتوبيخ احضر الاقداح فوجد صاحب الخمر قد اختلط واماع وتفتّت ووجد الاخرين قد فسدا وتغيّرت رايحتهما فكانت له فى ذلك معذرة وتبيّن من ذلك ان حال الرشيد فى اجتناب الخمر كانت معروفة عند بطانته واهل مايدته ولقد ثبت عنه انه عهد بحبس ابى نواس لما بلغه من انهماكه فى المعاقرة (1) حتى تاب واقلع وانّما كان الرشيد يشرب نبيذ التمر على مذهب اهل العراق وفتاويهم فيها معروفة واما الخمر الصرف من العنب فلا سبيل الى اتهامه بها ولا تقليد الاخبار الواهية فيها فلم يكن الرجل بحيث يواقع محرما من اكبر الكباير عند اهل الملّة ولقد كان اوليك القوم كلهم بمنجاة

(1) Cod. A. المسافرة.

Digitized by Google

من خنث السرف والترف فى ملابسهم وزينتهم وساير متناولاتهم لما كانوا عليه من خشونة البداوة وسذاجة الدين التى لم يفارقوها بعد فما ظنّك بما يخرج عن الاباحة الى الحظر وعن الحلّية الى الحرمة ولقد اتّفق المورّخون الطبرى والمسعودى وغيرهما على ان جميع من سلف من خلفاء بنى امية وبنى العبّاس انما كانوا يركبون بالحلية الخفيفة من الفضة فى المناطق والسيوف واللجم والسروج وان اول خليفة احدث الركوب بحلية الذهب هو المعتز بن المتوكل ثامن الخلفاء بعد الرشيد وهكذا كان حالهم ايضا فى ملابسهم فما ظنّك فى مشاربهم ويتبيّن ذلك باتمّ من هذا اذا فهمت طبيعة الدولة فى اولها من البداوة والغضاضة كما نشرح فى مسايل الكتاب الاول ان شاء الله تعالى (ويناسب هذا) او قريبا منه ما ينقلونه كافة عن يحيى بن اكثم قاضى المامون وصاحبه وانه كان يعاقر المامون الخمر وانه سكر ليلة مع شربه فدفن فى الريحان حتى افاق وينشدون على لسانه

يا سيّدى وامير الناس كلهم قد جار فى حكمه من كان يسقينى
انى غفلت عن الساقى فصيّرنى كما ترانى سليب العقل والدين

وحال ابن اكثم والمامون فى ذلك من حال الرشيد وشرابهم انما كان النبيذ ولم يكن محظورا عندهم واما السكر فليس من شانهم وصحابته للمامون انما كانت خلّة فى الدين ولقد ثبت

Digitized by Google

انه كان ينام معه فى البيت ونقل من فضايل المامون
وحسن عشرته انه انتبه ذات ليلة فقام يتجسّس ويلتمس
الاناء مخافة ان يوقظ يحيى بن اكثم وثبت انهما كانا
يصليان الصبح جميعا فاين هذا من المعاقرة وايضا فيحيى بن
اكثم كان من اهل الحديث وقد اثنى عليه الامام احمد بن
حنبل والقاضى اسمعيل وخرج عنه الترمذى فى كتابه
الجامع ذكر الحافظ المزنى ان البخارى روى عنه فى غير
الجامع فالقدح فيه قدح فى جميعهم (1) وكذلك ينبزه المتّجان
بالميل الى الغلمان بهتانا على الله وفرية على العلماء ويستندون
فى ذلك الى اخبار القصاص الواهية التى لعلّها من افتراء
اعدايه فانه كان محسدا فى كماله وخلّته للسلطان وكان
مقامه من العلم والدين منزّها (2) عن مثل ذلك وقد ذكر لابن
حنبل ما يرميه به الناس فقال سبحان الله سبحان الله ومن
يقول هذا وانكر ذلك انكارا شديدا واثنى عليه وقيل لاسمعيل
مما كان يقال فيه فقال معاذ الله ان تزول عدالة مثله لتكذيب
باغ وحاسد وقال يحيى بن اكثم ابرآء الى الله من ان يكون
فيه شئ مما كان يرمى به من امر الغلمان ولقد كنت اقف
على سرايره فاجده شديد الخوف لله لكنه كانت فيه دعابة
وحسن خلق فرمى بما رمى به وذكره ابن حيان فى

(1) Man. A. جميعه.

(2) Man. B. يتنزه. A. نبذه.

Digitized by Google

الثقات وقال لا تشتغل (1) بما يحكى عنه لان اكثرها لا تصحّ
عنه (ومن امثال) هذه الحكايات ما نقله ابن عبد ربه
صاحب العقد من حديث الزنبيل فى سبب اصهار المامون
الى الحسن بن سهل فى بنته بوران وانه عثر فى بعض الليالى
فى تطوافه (2) بسكك بغداذ بزنبيل مدلّى (3) من بعض
السطوح بمعالق وجدل مغارة الفتل من الحرير فاقتعده وتناول
المعالق فاهتزّت وذهب به صعدا الى مجلس شانه كذا
ووصف من زينة فرشه وتنضيد ابنيته (4) وجمال روايه ما
يستوقف الطرف ويملك النفس (5) وان امراة برزت من
خلل الستور فى ذلك المجلس رايعة الجمال فتّانة المحاسن
فحيّته ودعته الى المنادمة فلم يزل يعاقرها الخمر حتى الصباح
ورجع الى اصحابه بمكانهم من انتظاره وقد شغفته حبّا بعثه
الى الاصهار الى ابيها واين هذا كله من حال المامون
المعروفة فى دينه وعلمه واقتفايه سنن الخلفاء الراشدين من
ابائه واخذه بسيرة الخلفاء الاربعة اركان الملّة ومناظرته العلماء
وحفظه لحدود الله فى صلواته واحكامه فكيف تصحّ عنه
احوال الفسّاق المشتهرين (6) فى التطواف بالليل وطروق

(1) Man. A. et B. يشتغل

(2) Man. A. تطوفه.

(3) Man. A. يدل.

(4) Man. C. انيته.

(5) Man. A. النفوس.

(6) Man. C. المستهزين. Je lis المستهترين.

Digitized by Google

المنازل وغشيان السمر سبيل عشّاق الاعراب وايـــن ذلك
من منصب بنت الحسن بن سهل وشرفها وما كان بـــدار
ابيها من الصون والعفاف وامثال هذه الحكايات كثيرة وفى
كتب المورّخين معروفة وانما يبعث على وضعها والحديث
بها الانهماك فى اللذّات المحرمة وهتك قناع المـروءة
ويتعللون بالقوم فيما ياتونه من طاعة لذّاتهم فلذلك تراهـم
كثيرا ما يلهجون باشباه هذه الاخبار وينقّرون (1) عنها عـند
تصفّحهم لاوراق الدواوين ولو أيئسوا بهم فى غير هـذا من
احوالهم وصفات الكمال اللايقة بهم المشهورة عنـهـم لكان
خيرا لهم لو كانوا يعلمون (ولقد) عذلت يوما بعض الامراء من
اولاد الملوك فى كلفه بتعلم الغنا وولوعه بالاوتار وقلت له
ليس هذا من شانك ولا يليق بمنصبك فقال لى افلا ترى
الى ابراهيم ابن المهدى كيف كان امام هذه الصناعة ورئيس
المغنّيين فى زمانه فقلت له يا سبحان الله وهلّا (2) تأسّيت
بابيه او اخيه او ما رايت كيف قعد ذلك بابراهيم عـن
مناصبهم فصمّ عن عذلى واعرض (ومن الاخبار الواهيـة) مـا
يذهب اليه الكثير من المورّخين فى العبيديين خلفاء الشيعة
بالقيروان والقاهرة من نفيهم عن اهل البيت صلوات الله
عليهم والطعن فى نسبهم الى اسمعيل الامـام بـن جـعفـر

(1) Man. A et B. يقرون.

(2) Man. A. هل.

Digitized by Google

الصادق يعتمدون فى ذلك على احاديث لفّقت للمستضعفين من خلفاء بنى العباس تزلّفا اليهم بالقدح فيمن ناصبهم وتفنّنا فى الشمات بعدوهم حسبما نذكر بعض هذه الاحاديث فى اخبارهم ويغفلون عن التفطن لشواهد الواقعات وادلّة الاحوال التى اقتضت خلاف ذلك من تكذيب دعواهم والردّ عليهم فانّهم متّفقون فى حديثهم عن مبداء دولة الشيعة ان ابا عبد الله المحتسب لما دعى بكتامة للرضى من آل محمد واشتهر خبره وعلم تحويمه على عبيد الله المهدى وابنه ابى القاسم خشيا على انفسهما فهربا من المشرق محلّ الخلافة واجتازا بمصر وانّهما خرجا من الاسكندرية فى زىّ التجّار ونما خبرهما الى عيسى النوشرى عامل مصر والاسكندرية فسرح (1) فى طلبهما الخيالة حتى اذا ادركا خفى حالهما على تابعهما بما لبسوا به من الشارة والزى فافلتوا الى المغرب وان المعتضد اوغر الى الاغالبة امراء افريقية بالقيروان وبنى مدرار امراء سجلماسة باخذ الآفاق عليهما واذكاء العيون فى طلبهما فعثر اليسع صاحب سجلماسة من آل مدرار على خفىّ مكانهما ببلده واعتقلهما مرضاة للخليفة هذا قبل ان تظهر الشيعة على الاغالبة بالقيروان ثم كان بعد ذلك ما كان من ظهور دعوتهم بافريقية والمغرب ثم باليمن ثم

(1) Man. A. فخرج.

Digitized by Google

بالاسكندرية ثم بمصر والشام والحجاز وقاسموا بنى العباس
فى الممالك شقّ الابلمة وكادوا يلجون عليهم مواطنهم
ويديلون من امرهم ولقد اظهر دعوتهم ببغداذ وعراقها الامير
البساسيرى من موالى الديلم المتغلبين على خلفا بنى
العباس فى مغاضبة جرت بينه وبين امراء العجم وخطب
لهم على منابرها حولا كرتيا وما زال بنو العباس يغصون
بمكانهم ودولتهم وملوك بنى امية ورآء البحر ينادون بالويل
والحرب منهم وكيف يقع هذا كله لدعىّ بالنسب مكذّب
فى انتحال الامر واعتبر حال القرمطى اذا كان دعيّا فى انتسابه
كيف تلاشت دعوتهم وتفرّق اتباعه وظهر سريعا على خبثهم
ومكرهم فساءت عاقبتهم وذاقوا وبال امرهم ولو كان امر
العبيديين كذلك لعرف ولو بعد مهلة

فمهما تكن عند امرء من خليقة وان خالها تخفى على الناس تعلم

فقد اتّصلت دولتهم نحو من مايتين وسبعين سنة وملكوا
مقام ابراهيم ومصلاه ومواطن الرسول ومدفنه وموقف الحجيج
ومهبط الملايكة ثم انقرض امرهم وشيعتهم فى ذلك كله على
اتم ما كانوا عليه من الصاغية اليهم والحبّ فيهم واعتقادهم
بنسب الامام اسمعيل ابن جعفر الصادق وقد خرجوا مرارا
بعد ذهاب الدولة ودروس اثرها داعيين الى بدعتهم هاتفين
باسماء صبيان من عقبهم يزعمون استحقاقهم للخلافة

Digitized by Google

ويذهبون الى تعيّنهم بالوصية ممن (1) سلف قبلهم من الايمّة
ولو ارتابوا فى نسبهم لما ركبوا اعناق الاخطار فى الانتصار لهم
فصاحب البدعة لا يلبس فى امره ولا يشتبه فى بدعته
ولا يكذب نفسه فيما ينتحله والعجب من القاضى ابى بكر
الباقلّانى شيخ النظّار من المتكلمين يجنح الى هذه المقالة
المرجوحة ويرى هذا الراى الضعيف فان كان ذلك لما
كانوا عليه من الالحاد فى الدين والتعمّق فى الرافضة فليس
ذلك بدافع (1) فى صدر بدعتهم وليس اثبات منتسبهم
بالذى يغنى عنهم من الله شيا فى كفرهم فقد قال الله تعالى
لنوح عليه السلام فى شان ابنه انه ليس من اهلك انه عمل
غير صالح فلا تسئالنى ما ليس لك به علم وقال صلى الله
عليه وسلم لفاطمة يعظها يا فاطمة اعملى فلن اغنى عنك من
الله شيا ومتى عرف امرء قضيّة او استيقن امرا وجب عليه ان
يصدع به والله يقول الحق وهو يهدى السبيل والقوم كانوا
فى مجال لظنون الدول بهم وتحت رقبة من الطغاة لتوفر
شيعهم وانتشارهم فى القاصية بدعوتهم وتكرر خروجهم مرّة بعد
اخرى فلاذت رجالاتهم بالاختفاء ولم يكادوا يعرفون كما قيل

فلو سئل الايام ما اسمى ما درت واين مكانى ما عرفن مكانى

(1) Man. A. فمن. (2) Man. A. يدافع

حتى لقد سمى محمد بن اسمعيل الامام جدّ عبيد الله
المهدى بالمكتوم سمته بذلك شيعتهم لما اتّفقوا عليه من
اخفايه حذرا من المتغلّبين عليهم فتوصّل شيعة آل العباس
بذلك عند ظهورهم الى الطعن فى نسبهم وازدلفوا بهذا
الراى القايل الى المستضعفين من خلفايهم واعجب به
اوليآوهم وامراء دولتهم المتولّون لحروبهم مع الاعداء يدفعون به
عن انفسهم وسلطانهم معرّة العجز عن المقاومة والمدافعة لمن
غلبهم على الشام ومصر والحجاز من البربر الكتاميين شيعة
العبيديين واهل دعوتهم حتى لقد اسجل القضاة ببغداذ
بنفيهم عن هذا النسب وشهد بذلك من اعلام الناس جماعة
منهم الشريف الرضى واخوه المرتضى وابن البطحاوى ومن
العلماء ابو حامد الاسفراينى والقدورى والصيمرى وابن الاكفانى
والابيوردى وابو عبد الله بن النعمان فقيه الشيعة وغيرهم من
اعلام الامّة ببغداذ فى يوم مشهود وذلك سنة ثنتين واربعماية
فى ايام القادر وكانت شهادتهم فى ذلك على السماع لما
اشتهر وعرف بين الناس ببغداذ وغالبها شيعة بنى العباس
الطاعنون فى هذا النسب فنقله الاخباريّون كما سمعوه ورووه
حسبما وعوه (1) والحقّ من ورآيه وفى كتاب المعتضد فى شان
عبيد الله الى ابن الاغلب بالقيروان وابن مدرار بسجلماسة

(1) Man. A. دعوه.

Digitized by Google

اصدق شاهد واوضح دليل على صحّة نسبهم فالمعتضد اقعد
بنسب اهل البيت من كل احد والدولة والسلطان سوق للعالم
يجلب اليه بضايع العلوم والصنايع وتلتمس فيه ضوالّ الحكم
وتحدى اليه ركايب الروايات والاخبار وما نفق فيها نفق
عند الكافة فان تنزّهت الدولة عن التعسّف والميل والافن
والسفسفة وسلكت النهج الأَمَم ولم تجر عن قصد السبيل
نفق (1) فى سوقها الابريز الخالص واللجين الصافى (2) وان
ذهبت مع الاغراض والحقود وماجت بسماسرة البغى والباطل
نفق البهرج والزايف والناقد البصير قسطاس نظره وميزان بحثه
وملتمسه (ومثل هذا) وابعد منه كثيرا ما يتناجى به الطاعنون
فى نسب ادريس بن ادريس بن عبد الله بن حسن بن
الحسن بن على بن ابى طالب رضوان الله عليهم اجمعين الامام
بعد ابيه بالمغرب الاقصى ويعرضون تعريض الحسد (3)
بالتظنن (4) فى الحمل المخلف عن ادريس الاكبر انه لراشد
مولاهم قبّحهم الله وابعدهم ما اجهلهم اما (5) يعلمون ان ادريس
الاكبر كان اصهاره فى البربر وانه مذ دخل المغرب الى
ان توفّاه الله عزّ وجل عريق فى البدو وان حال البادية فى

(1) Man. A. لفق.

(2) Man. B. et C. المصفّى

(3) J'ai lu الحسد au lieu de الحمد.

(4) Man. A. بالتظنين.

(5) Man. A. انّها.

Digitized by Google

كل ذلك غير خافية اذ لا مكامن لهم يتاتّى فيها الريب
واحوال حرُمهم اجمعين بمرأى من جاراتهن ومسمع من
جيرانهن لتلاصق الجدران وتطامن البناء وعدم الفواصل بين
المساكن (1) وقد كان راشد يتولى (2) خدمة الحرم اجمع
من بعد مولاه بمشهد من اوليايهم وشيعتهم ومراقبة من كافتهم
وقد اتّفق برابرة المغرب الاقصى عامة على بيعة ادريس
الاصغر من بعد ابيه وآتوه طاعتهم عن رضى واصفاق وبايعوه
على الموت الاحمر وخاضوا دونه بحار المنايا فى حروبه
وغزواته ولو حدّثوا انفسهم بمثل هذه الريبة او قرعت
اسماعهم ولو من عدو كاشح او منافق مرتاب لتخلّف عن
ذلك ولو بعضهم كلا والله انما صدرت هذه الكلمات من
بنى العباس اقتالهم ومن بنى الاغلب عمّالهم كانوا بافريقية
وولاتهم وذلك انه لما فر (3) ادريس الاكبر الى المغرب من
وقعة فخ اوغر الهادى الى الاغالبة ان يقعدوا له بالمرصاد (4)
ويذكوا (5) عليه العيون فلم يظفروا به وخلص الى المغرب
فتم (6) امره وظهرت دعوته وظهر الرشيد من بعد ذلك
على ما كان من واضح مولاهم وعاملهم على الاسكندرية من

(1) Man. المساكين.
(2) Man. A. يقول.
(3) Je lis فرّ au lieu de قر.
(4) Man. C. المراصد
(5) Man. B. يذكروا.
(6) Man. B. فنها.

Digitized by Google

دسيسة التشيع للعلوية وادهانه فى نجاة (1) ادريس الى المغرب
فقتله ودس الشماخ من موالى ابيه للتحيّل (2) على قتل
ادريس فاظهر اللحاق به والبراءة من بنى العباس مواليه
فاشتمل عليه ادريس وخلطه بنفسه وناوله الشماخ فى بعض
خلواته سمّا استهلكه به ووقع خبر مهلكه من بنى العباس
احسن المواقع لما رجوه من قطع اسباب الدعوة العلوية
بالمغرب واقتلاع جرثومتها ولم يتادّ اليهم خبر الحمل المخلف
لادريس فلم يكن الا كلا ولا واذا بالدعوة قد عادت والشيعة
بالمغرب قد ظهرت ودولتهم بادريس بن ادريس تجددت
فكان ذلك عليهم انكى من وقع السهام وكان الفشل والهرم
قد نزل بدولة العرب عن ان يسموا الى القاصية فلم يكن
منتهى قدرة الرشيد على ادريس الاكبر بمكانه من قاصية
المغرب واشتمال البربر عليه الا التحيّل فى اهلاكه بالسموم
فعند ذلك فزعوا الى اولياهم من الاغالبة بافريقية فى سدّ
تلك الفرجة من ناحيتهم وحسم الداء المتوقع بالدولة من
قبلهم واقتلاع تلك العروق قبل ان تشتّج منهم يخاطبهم
بذلك المامون ومن بعدهم من خلفايهم فكان الاغالبة من برابرة
المغرب الاقصى اعجز ولمثلها من الزبون على ملوكهم احوج
لها طرق الخلافة من انتزاء المماليك العجم على سدّتها

(1) Man. B. تجاه.

(2) Man. B. للتحليل.

Digitized by Google

PROLÉGOMÈNES d'Ebn-Khaldoun.

وامتطاهم صهوة التغلب عليها وتصريفهم احكامها طوع اغراضهم
فى رجالها وجبايتها واهل خططها وساير نقضها وابرامها كما
قال شاعر عصرهم

خليفة فى قفص بين وصيف وبُغا يقول ما قا لا له كما تقول الببغا

فخشى هولآء الامراء الاغالبة بوادر السعايات وتلوّوا بالمعاذير
فطورا باحتقار المغرب واهله وطورا بالارهاب بشان ادريس
الخارج به ومن قام مقامه من اعقابه يخاطبونهم بتجاوزه
حدود التخوم من عمله وينفذون (1) سكّته فى تحفهم وهداياهم
ومرتفع جباياتهم تعريضا باستفحاله وتهويلا باشتداد شوكته
وتعظميا لما دفعوا اليه من مطالبته ومَرَاسه تهديدا بقلب الدعوة
ان الجيئوا اليه وطورا يطعنون فى نسب ادريس بمثل ذلك
الطعن الكاذب تخفيضا لشانه لا يبالون بصدقه من كذبه لبعد
المسافة وافن عقول من خلف من صبية بنى العباس
ومهالكهم العجم فى القبول من كل قايل والتسمّع لكل ناعق
ولم يزل هذا دابهم حتى انقضى امر الاغالبة فقرعت هذه
الكلمة الشنعاء اسماع الغوغا وصرّ عليها بعض الطاعنين (2) اذنه
واعتدّها ذريعة الى النيل من خلفهم عند المنافسة وما لهم قبّحهم
الله والعدول عن مقاصد الشريعة ولاتعارض فيها بين المقطوع
والمظنون وادريس ولد على فراش ابيه والولد للفراش على ان

(1) Man. C. ينقدون.

(2) Man. B. الطاغيين et C. الطاغين

Digitized by Google

تنزيه اهل البيت عن مثل هذا من عقايد الايمان فالله سبحانه
قد اذهب عنهم الرجس وطهّرهم تطهيرا ففراش ادريس طاهر
من الدنس ومنزّه عن الرجس بحكم القران ومن اعتقد خلاف
هذا فقد باء باثمه وولج الكفر من بابه وانما اطنبت فى هذا
الردّ سدّا لابواب الريب ودفعا فى صدر الحاسد لما سمعته
اذناى (1) من قايله المعتدّ عليهم به القادح فى نسبهم
بفريته (2) وينقله بزعمه عن بعض مورّخى (3) المغرب ممن
انحرف عن اهل البيت وارتاب فى الايمان بسلفهم والا
فالمحل منزّه عن ذلك معصوم منه ونفى العيب حيث
يستحيل العيب عيب لكنّى جادلت عنهم فى الحيوة الدنيا
وارجو ان يجادلوا عنّى يوم القيامة (وليعلم) ان اكثر الطاعنين فى
نسبهم انّما هم الحسدة لاعقاب ادريس هذا من منتم الى
اهل البيت او دخيل فيهم فان ادّعاء هذا النسب دعوى
شرف عريض على الامم والاجيال من اهل الآفاق فتعرض التهمة فيه
ولما كان نسب بنى ادريس هولآء بمواطنهم من فاس وساير بدد
المغرب قد بلغ من الشهرة والوضوح (4) مبلغا لا يكاد يلحق
ولا يطمع احد فى دركه اذ هو نقل الامّة والجيل من الخلف
عن الامّة والجيل من السلف وبيت جدّهم ادريس مختطّ

(1) Man. A. اذنى.

(2) Man. B. بقرينة.

(3) Man. A. مورخ.

(4) Man. A. et B. الوضوع.

Digitized by Google

PROLEGOMÈNES d'Ebn-Khaldoun.

فاس وموسّسها بين بيوتهم ومسجده لصق محلّتهم ودروبهم (1)
وسيفه منتضى براس المأذنة العظمى من قرار بلدهم وغير
ذلك من آثاره التى جاوزت اخبارها حدود التواتر مرّات
وكادت تلحق بالعيان فاذا نظر غيرهم من اهل هذا النسب
الى ما اتاهم الله من امثالها وما عضد شرفهم النبوى من
جلال الملك الذى كان لسلفهم بالمغرب واستيقن انه
بمعزل عن ذلك وانه لا يبلغ مُدّ احدهم ولا نصيفه وان
غاية امر المنتميين الى البيت الكريم ممن لم تحصل له
امثال هذه الشواهد ان يسلم لهم حالهم لان الناس مصدّقون
فى انسابهم وبون ما بين العلم والظن واليقين والتسليم فاذا
علم ذلك من نفسه غصّ بريقه وودّ كثير منهم لو يردّونهم
عن شرفهم ذلك سوقة ووضعاء حسدا من عند انفسهم
فيرجعون الى العناد وارتكاب اللجاج والبهت بمثل هذا الطعن
الفايل والقول المكذوب تعلّلا بالمساواة فى الظنّة والمشابهة
فى تطرّق الاحتمال وهيهات لهم ذلك فليس فى المغرب
فيما نعلمه من اهل هذا البيت الكريم من يبلغ فى صراحة
نسبه ووضوحه مبالغ اعقاب ادريس هذا من آل الحسن
وكبرآوهم لهذا العهد بنو عمران بفاس من ولد يحيى الجوطى
ابن محمد بن يحيى المعدام ابن القاسم بن ادريس بن

(1) Man. B. دورهم.

ادريس وهم بقايا اهل البيت هنالك والساكنون ببيت
جدّهم ادريس ولهم السيادة على اهل المغرب كافة حسبما
نذكرهم عند ذكر الادارسة ان شآء الله وهم بنو عمران بن محمد
ابن الحسن بن يحيى بن عبد الله بن محمد بن على بن
محمد بن يحيى بن ابراهيم ابن يحيى الجوُطى والنقيب لهذا
العهد منهم محمد بن على (1) بن محمد بن عمران
(ويلحق) بهذه المقالات الفاسدة والمذاهب الفايلة ما يتناوله
ضعفة الراى من فقهاء المغرب من القدح فى الامام المهدى
صاحب دولة الموحّدين ونسبته الى الشعوذة والتلبيس فيما اتاه
من القيام بالتوحيد الحقّ والنعى على اهل البغى قبله (2)
وتكذيبهم لجميع مدّعياته فى ذلك حتى فيما يزعم
الموحّدون اتباعه انتسابه فى اهل البيت وانما حمل الفقهاء
على تكذيبه ما كمن فى نفوسهم من حسده على شانه
فانّهم لما (3) راوا من انفسهم مناهضته فى العلم والفتيا وفى
الدين بزعمهم ثم امتاز عنهم بانه متبوع الراى مسموع القول
موطوء العقب نفسوا ذلك عليه وعضوا (4) منه بالقدح فى مذاهبه
والتكذيب لمدّعياته وايضا فكانوا يونسون من ملوك لمتونة
اعدايه تجلّة وكرامة لم تكن لهم من غيرهم لما كانوا عليه من

(1) Man. A. محمد.

(2) Man. A. ملة.

(3) Man. B. دلوا.

(4) Man. A. et B. غصوا. Je lis غضّوا.

Digitized by Google

السذاجة وانتحال الديانة فكان لحملة (1) العلم بدولتهم مكان
من الوجاهة والانتصاب للشورى كل فى بلـــده (2) وعلى
قدره فى قومه واصبحوا بذلك شيعة لهم وحربا لعـدوهـم
ونقموا على المهدى ما جاء به من خلافهم والتشريب عليهم
والمناصبة لهم تشيّعا للمتونة وبغضا لدولتهم ومكان الرجل غير
مكانهم وحاله (3) غير معتقداتهم وما ظنّـك برجل نقم على
الدولة ما نقم من احوالهم وخالف اجتهاده فقهاوهم فـنادى
فى قومه ودعى الى جهادهم بنفسه فاقتلع الدولة من اصولها
وجعل عاليها سافلها اعظم ما كانت قوة واشدّ شوكة واعزّ (4)
انصارا وحامية وتساقطت فى ذلك من اتباعه نـفـوس
لا يحصيها الا خالقها قد بايعوه على الموت ووقوه بانـفسهم
من الهلكة وتقرّبوا الى الله باتلاف مهجهم فى اظهار تلك
الدعوة والتعصّب لتلك الكلمة حتى علت على الكلم وادالت
بالعدوتين من الدول وهو بحاله من التقشّف والحصر والصبر
على المكاره والتقلّل من الدنيا حتى قبضه الله وليـس على
شئ عن الحظّ والمتاع فى دنياه حتى الولد الذى ربّها تجنح
اليه النفوس ويخادع عن تمنّيه فليت شعرى ما الذى قصد
بذلك ان لم يكن وجه الله وهو لم يحصل له حظّ مـن

(1) Man. C. بحملة.

(2) Man. B. فى كل بلدة.

(3) Man. C. على.

(4) Man. A et B. اغز.

Digitized by Google

الدنيا فى عاجله ومع هذا فلو كان قصده غير صالح لما تمّ
امره وانفسحت دعوته سنّة الله التى قد خلت فى عباده
وامّا انكارهم نسبه فى اهل البيت فلا يعضده حجّة لهم مع
ان (1) ثبت انه ادّعاه وانتسب اليه فلا دليل يقوم على بطلانه
لان الناس مصدّقون فى انسابهم وان قالوا ان الرياسة لا
تكون على قوم فى غير اهل جلدتهم كما هو الصحيح
حسبما ياتى فى الفصل الاول من هذا الكتاب والرجل قد
رأس ساير المصامدة ودانوا (2) باتباعه والانقياد اليه والى عصابته
من هرغه حتى تمّ امر الله فى دعوته فاعلم ان هذا النسب
الفاطمى لم يكن امر المهدى يتوقف عليه ولا اتبعه الناس
لنسبه (3) وانما كان اتباعهم له بعصبيّة الهرغية والمصمودية
ومكانه منها ورسوخ شجرته فيها (4) وكان ذلك النسب
الفاطمى خفيّا قد درس عند الناس وبقى عنده وعند (5)
عشيرته يتناقلونه بينهم فيكون النسب الاول كانّه انسلخ منه
ولبس جلدة هولآء وظهر (6) فيها فلا يضرّه الانتساب الاول فى
عصبيته اذ هو مجهول (7) عند اهل العصابة ومثل هذا وقع
كثيرا اذا كان النسب الاول خفيا وانظر قصّة عرفجة (8)

(1) Le M. A. omet ان. Man. C. مع انه يثبت.
(2) Man A. et B. ادانوا.
(3) Man. C. بسببه.
(4) Man. A. منها.
(5) Man. A. عنه.
(6) Man. C. طرر.
(7) Man. B. مجول.
(8) Man. B. عرمجة.

Digitized by Google

وجرير فى رياسة بجيلة (1) وكيف كان عرفجة من الازد
ولبس جلدة بجيلة حتى تنازع مع جرير رياستهم عند عمر
رضى الله عنه كما هو مذكور تستفهم منه وجه الحق والله
الهادى الى الصواب (وقد) كدنا ان نخرج عن غرض الكتاب
بالاطناب فى هذه المغالط فقد زلّت اقدام كثير من الاثبات
والمورّخين الحفّاظ فى مثل هذه الاحاديث والاراء وعلقت
بافكارهم ولقنها عنهم الكافة من ضعفة النظر والغفلة عن
القياس ولقنوها هم ايضا كذلك من غير بحث ولا روية (2)
واندرجت فى محفوظاتهم حتى صار فن التاريخ واهيا مختلطا
وناظره مرتبكا وعدّ من مناحى العامّة فاذن يحتاج صاحب
هذا الفن الى العلم بقواعد السياسة وطبايع الموجودات واختلاف
الامم والبقاع والاعصار فى السير والاخلاق والعوايد والنحل
والمذاهب وساير الاحوال والاحاطة بالحاضر من ذلك
ومماثلة ما بينه وبين الغايب من الوفاق او بون ما بينهما
من الخلاف وتعليل المتّفق منه والمختلف والقيام على اصول
الدول والملل ومبادى ظهورها واسباب حدوثها ودواعى كونها
واحوال القايمين بها واخبارهم حتى يكون مستوعبا لاسباب
كل حادث واقفا على اصل كل خبر وحينيذ يعرض خبره
المنقول على ما عنده من القواعد والاصول فان وافقها وجرى

(1) Man. A. بجبيلة.

(2) Man. A. رواية.

Digitized by Google

على مقتضاها كان صحيحا والا زيّفه واستغنى عنه وما استكبر القدماء علم التاريخ الا لذلك حتى انتحله الطبرى والبخارى وابن اسحق من قبلهما وامثالهم من علماء الامّة وقد ذهل (1) الكثير عن هذا السر فيه حتى صار انتحاله مجهلة واستخفّ العوام ومن لا رسوخ له فى المعارف مطالعته وحمله والخوض فيه والتطفّل عليه فاختلط المَرعىّ بالهَمَل واللباب بالقشر والصادق بالكاذب والى الله عاقبة الامور (ومن الغلط الخفى فى التاريخ) الذهول عن تبدّل الاحوال فى الامم والاجيال بتبدّل الاعصار ومرور الايام وهو داء دوى وشديد الخفاء اذ لا يقع الا بعد احقاب متطاولة فلا يكاد يتفطّن له الا الآحاد من اهل الخليقة وذلك ان احوال العالم والامم وعوايدهم ونحلهم لا تدوم على وتيرة واحدة ومنهاج مستقرّ انما هو اختلاف على الايام والازمنة وانتقال من حال الى حال وكما يكون ذلك فى الاشخاص والاوقات والامصار فكذلك يقع فى الآفاق والاقطار والازمنة والدول سنّة الله التى قد خلت فى عباده وقد كانت فى العالم امم الفرس الاولى والسريانيون والنبط والتبابعة وبنو اسرائيل والقبط وكانوا على احوال خاصّة بهم فى دولهم وممالكهم وسياستهم وصنايعهم ولغاتهم واصطلاحاتهم وساير مشاركاتهم مع ابناء جنسهم واحوال اعتمادهم للعالم

(1) Man. A. et B. دخل.

Digitized by Google

تشهد بها آثارهم ثم جاء من بعدهم الفرس الثانية والروم والعرب والفرنجة فتبدّلت تلك (1) الاحوال وانقلبت بها العوايد الى ما يجانسها ويشابهها والى ما يباينها ويباعدها ثم جاء الاسلام بدولة مضر فانقلبت تلك الاحوال اجمع انقلابة اخرى وصارت الى ما اكثره متعارف لهذا العهد ياخذه الخلف عن السلف ثم درست دولة العرب وايامهم وذهب الاسلاف الذين شيّدوا عزّهم (1) ومهدوا ملكهم وصار الامر فى ايدى سواهم من العجم مثل الترك بالمشرق والبربر بالمغرب والافرنجة بالشمال فذهبت بذهابهم امم وانقلبت احوال وعوايد نسى شانها واغفل امرها والسبب الشايع فى تبدّل الاحوال والعوايد ان عوايد كل جيل تابعة لعوايد سلطانه كما يقال فى الامثال الحكميّة الناس على دين الملك واهل الملك والسلطان اذا استولوا على الدولة والامر فلا بد وان ينزعوا الى عوايد من قبلهم وياخذون الكثير منها ولا يغفلون عوايد جيلهم مع ذلك فيقع فى عوايد الدولة بعض المخالفة لعوايد الجيل الاول فاذا جاءت دولة اخرى من بعدهم ومزجت من عوايدهم وعوايدها خالفت ايضا بعض الشئ وكانت للاولى اشدّ مخالفة ثم لا يزال التدريج فى المخالفة حتى ينتهى الى المباينة بالجملة فما دامت الامم والاجيال

(1) Man. A. كل.

(2) Man. A. عزمهم.

Digitized by Google

تتعاقب فى الملك والسلطان لا تزال المخالفة فى العوايد والاحوال واقعة والقياس والمحاكاة للانسان طبيعة معروفة ومن الغلط غير مامونة تخرجه مع الذهول والغلط عن قصده وتعوج به عن مرامه (1) فربّما يسمع السامع كثيرا من اخبار الماضين ولا يتفطن لما وقع من تغيّر الاحوال وانقلابها فيجريها لاول وهلة مع ما عرف ويقيسها بما شهد وقد يكون الفرق بينهما كثيرا فيقع فى مهواة من الغلط (فمن هذا الباب) ما ينقله المورّخون من احوال الحجاج وان اباه كان من المعلمين مع ان التعليم لهذا العهد من جملة الصنايع المعاشية البعيدة من اعتزاز اهل العصبية (2) والمعلم مستضعف مستكين منقطع الجذم (3) فيتشوف الكثير من المستضعفين اهل الحرف والصنايع المعاشية الى نيل الرتب التى ليسوا لها باهل ويعدّونها من الممكنات لهم فتذهب بهم وساوس المطامع وربّما انقطع حبلها من ايديهم فسقطوا فى مهواة الهلكة والتلف ولا يعلمون استحالتها فى حقّهم وانهم اهل حرف وصنايع للمعاش وان التعليم صدر الاسلام والدولتين لم يكن كذلك ولم يكن العلم بالجملة صناعة انما كان نقلا لما سمع من الشارع وتعليما لما جهل من الدين على جهة البلاغ فكان اهل الانساب والعصبيّة الذين قاموا بالملّة هم الذين يعلمون

(1) Man. B. امر الله. (2) Man. A. العصبة. (3) Man B. الخدم.

Digitized by Google

PROLÉGOMÈNES d'Ebn-Khaldour.

كتاب الله وسنّة نبيه صلى الله عليه وسلّم على معنى التبليغ الخبرى لا على وجه التعليم الصناعى اذ هو كتابهم المنزل على الرسول منهم وبه هدايتهم والاسلام دينهم قاتلوا عليه قتلوا واختصّوا به من بين الامم وشرفوا فيحرصون (1) على تعليم ذلك وتفهيمه للامّة لاتصدهم عنه لايمة الكبر ولا يزعهم (2) عاذل الانفة ويشهد لذلك بعث النبى صلى الله عليه وسلم كبار اصحابه مع وفود العرب يعلمونهم حدود الاسلام وما جآء به من شرايع الدين بعث فى ذلك من اصحابه العشرة (3) فمن بعدهم فلما استقرّ الاسلام ووشجت عروق الملّة حتى تناولها الامم البعيدة من ايدى اهلها واستحالت بمرور الايام احوالها وكثر استنباط الاحكام الشرعية من النصوص لتعدد الوقايع وتلاحقها فاحتاج الى قانون يحفظه من الخطا وصار العلم ملكة تحتاج الى التعلم فاصبح من جملة الصنايع والحرف كما ياتى ذكره فى فصل العلم والتعليم واشتغل اهل العصبية بالقيام بالملك والسلطان فدفع للعلم من قام به من سواهم واصبح حرفة المعاش وشمخت (4) انوف المترفين واهل السلطان عن التصدّى للتعليم واختصّ انتحاله بالمستضعفين وصار منتحله محتقرا عند اهل العصبيّة والملك

(1) Man. A. فيصرحون.

(2) Man. A. et B. يرعهم; man. C. يزعمهم.

(3) Man. B. الغرّة.

(4) Man A. سمخة.

Digitized by Google

والحجاج بن يوسف كان ابوه من سادات ثقيف واشرافهم ومكانهم من عصبيّة العرب ومناهضة قريش فى الشرف ما علمت (1) ولم يكن تعليمه للقران على ما هو الامر عليه لهذا العهد من انه حرفة للمعاش وانّما كان على ما وصفناه من الامر الاول فى الاسلام (ومن هذا الباب) ما يتوهّمه المتصفّحون لكتب التاريخ اذا سمعوا احوال القضاة وما كانوا عليه من الرياسة فى الحروب وقود العساكر فتترامى بهم وساوس الهمم الى مثل تلك الرتب يحسبون ان الشان فى خطّة القضا لهذا العهد على ما كان عليه من قبل ويظنّون بابن ابى عامر حاجب هشام المستبدّ عليه وابن عباد من ملوك الطوايف باشبيلية اذا سمعوا ان آباهم كانوا قضاة انهم مثل القضاة لهذا العهد ولا يتفطنون لما وقع فى رتبة القضا من مخالفة العوايد كما نبيّنه فى فصل القضا من الكتاب الاول وابن ابى عامر وابن عباد كانا من قبايل العرب القايمين بالدولة الامويّة بالاندلس واهل عصبيتها وكان مكانهم فيها معلوما ولم يكن نيلهم لما نالوه من الرياسة والملك بخطّة القضا كما هى لهذا العهد بل انما كان القضا فى الامر القديم لاهل العصبيات من قبيل الدولة ومواليها كما هى الوزارة لعهدنا بالمغرب وانظر خروجهم بالعساكر فى

(1) Le man. A. ajoute ما.

Digitized by Google

الصوايف وتقليدهم عظايم الامور التى لا تقلّد الا لمن له
الغنا فيها بالعصبية فيغلط السامع فى ذلك ويحمل الاحوال
الى غير ما هى واكثر ما يقع فى هذا الغلط ضعفاء البصاير
اهل الاندلس لهذا العهد لفقدان العصبية فى مواطنهم
منذ اعصار بعيدة لفناء العرب ودولتهم بها وخروجهم عن مَلَكة
اهل العصبية من البربر فبقيت انسابهم العربيّة محفوظة
والذريعة الى العزّ من العصبية والتناصر مفقودة بل صاروا
من جملة الرعايا المتخاذلين الذين تعبّدهم القهر ورئيموا
للمذلة (1) يحسبون ان انسابهم مع مخالطة الدولة هى
التى يكون بها الغلب والتحكّم فتجد اهل الحرف منهم
والصنايع متصدّين لذلك ساعين فى نيله فاما (2) من باشر
احوال القبايل والعصبية ودولهم بالعدوة المغربيّة وكيف يكون
التغلّب بين الامم والعشاير فقل ما يغلطون فى ذلك او(3)
يخطيُون فى اعتباره (ومن هذا الباب) ايضا ما يسلكه
المورّخون عند ذكر الدول ونسق ملوكهم فيذكرون اسمه ونسبه
وامّه واباه ونساه ولقبه وخاتمه وقاضيه وحاجبه ووزيره كل
ذلك تقليدا لمورّخى الدولتين من غير تفطّن لمقاصدهم
والمورّخون لذلك العهد كانوا يضعون (4) تواريخهم لاهل

(1) Man. B. للمزلّة.
(2) Man. A. فها.
(3) Man. A. ام.
(4) Man. B. يصنعون.

Digitized by Google

الدولة وابناوهم متشوّقون الى سير سلفهم ومعرفة احوالهم
ليقتفوا آثارهم وينسجوا على منوالهم حتى فى اصطناع الرجال
من خلف دولتهم وتقليد الخطط والمراتب لابناء صنايعهم
وذويهم والقضاة ايضا كانوا من اهل عصبة الدولة فى عداد
الوزراء كما ذكرناه لك فيحتاجون الى ذكر ذلك كله
وامّا حين تباينت الدول وتباعد ما بين العصور ووقف
الغرض على معرفة الملوك بانفسهم خاصّة ونسب الدول
بعضها من بعض فى قوتها وغلبها ومن كان يناهضها من
الامم او يقصر عنها فما الفايدة للمصنّف لهذا العهد فى ذكر
الابناء والنساء ونقش الخاتم واللقب والقاضى والوزير والحاجب
من دولة قديمة لا يعرف فيها اصولهم ولا انسابهم ولا مقاماتهم
انما حملهم على ذلك التقليد والغفلة عن مقاصد المولّفين
الاقدمين والذهول عن تحرّى الاغراض من التاريخ اللهمّ
الا ذكر الوزراء الذين عظمت آثارهم وعفّت على الملوك اخبارهم
كالحجاج وبنى المهلب والبرامكة وبنى سهل بن نوبخت
وكافور الاخشيدى وابن ابى عامر وامثالهم فغير نكير الالماع
بايامهم والاشارة الى احوالهم لانتظامهم فى عداد الملوك
(ولنذكر) هنا فايدة نختم كلامنا فى هذا الفصل بها وهى ان
التاريخ انما هو ذكر الاخبار الخاصة بعصر او جيل فاما ذكر
الاحوال العامّة للآفاق والاجيال والاعصار فهو أس للمورخ يتبنا

Digitized by Google

عليه اكثر مقاصده ويتبيّن به اخباره وقد كان الناس يفردونه (1) بالتاليف كما فعله المسعودى فى كتاب مروج الذهب شرح فيه احوال الامم والآفاق لعهده فى عصر الثلاثين والثلاثماية غربا وشرقا وذكر نحلهم وعوايدهم ووصف البلدان والجبال والبحار والممالك والدول وفرق شعوب العرب والعجم فصار امّا للمورّخين يرجعون اليه واصلا يعولون فى تحقيق الكثير من اخبارهم عليه ثم جآء البكرى من بعده ففعل مثل ذلك فى المسالك والممالك خاصّة دون غيرها من الاحوال لانّ الامم والاجيال لعهده لم يقع فيها كثير انتقال ولا عظيم تغيّر واما لهذا العهد وهو آخر الماية الثامنة فقد انقلبت احوال المغرب التى نحن شاهدوه وتبدّلت بالجملة واعتاض من اجيال البربر اهله على القديم بمن طراء فيه من لدن الماية الخامسة من اجيال العرب بما كثروهم وغلبوهم انتزعوا منهم عامة الاوطان وشاركوهم فى شئ (2) من البلدان لملكتهم هذا الى ما نزل بالعمران شرقا وغربا فى منتصف هذه الماية الثامنة من الطاعون الجارف الذى تحيّف الامم وذهب باهل الجيل وطوى كثيرا من محاسن العمران ومحاها وجآء للدول على حين هرمها وبلوغ الغاية

(1) Man. A. يفرضونه.

(2) Man. C. فيما بقى من.

Digitized by Google

من مداها فقلص من ظلالها وفلّ (1) من حدها واوهى (2) من سلطانها وتداعت الى التلاشى والاضمحلال احوالها وانتقص عمران الارض بانتقاص البشر فخربت الامصار والمصانع ودرست السبل والمعالم وخلت الديار والمنازل وضعفت الدول والقبايل وتبدّل الساكن (3) وكانّى (4) بالمشرق وقد نزل به ما قد نزل بالمغرب لكن على نسبته ومقدار عمرانه وكانمّا نادى لسان الكون فى لعالم بالخمول والانقباض فبادر الى الاجابة والله وارث الارض ومن عليها (واذا) تبدّلت الاحوال جملة فكانمّا تبدّل الخلق من اصله وتحوّل العالم باسره وكانّه خلق جديد ونشأة مستأنفة وعالم محدث فاحتاج لهذا العهد من يدوّن احوال الخليقة والآفاق واجيالها والعوايد والنحل التى تبدّلت لاهلها ويقفو مسلك المسعودى لعصره ليكون اصلا يقتدى به من ياتى من المورّخين من بعده (وانا) ذاكر فى كتابى هذا ما امكننى منه فى هذا القطر المغربى امّا صريحا او مندرجا فى اخباره وتلويحا لاختصاص قصدى فى التاليف بالمغرب واحوال اجياله وامه وذكر ممالكه ودوله دون ما سواه من الاقطار لعدم اطّلاعى على احوال المشرق وامه لان الاخبار المتناقلة لا توفى كنه

(1) Man. A. et B. قلّ.

(2) Man. C. اوهن.

(3) Man. B. المساكن.

(4) Man. A. كان.

Digitized by Google

ما اريده منه والمسعودى انما استوفى ذلك لبعد رحلته وتقلبه فى البلاد كما ذكره فى كتابه مع انّه لمّا ذكر المغرب قصّر فى استيفاء احواله وفوق كل ذى علم عليم ومردّ العلم كله الى الله والبشر عاجز قاصر والاعتراف متعيّن واجب ومن كان الله فى عونه تيسّرت عليه المذاهب وانجحت له المساعى والمطالب ونحن آخذون بعون الله فيما (1) رمناه من اغراض التاليف والله المسدّد والمعين وعليه التكلان (وقد) بقى علينا ان نقدّم مقدّمة فى كيفيّة وضع الحروف التى ليست من لغة العرب اذا عرضت فى كتابنا هذا (واعلم) ان الحروف فى النطق كما ياتى شرحه بعد هى كيفيّات للاصوات الخارجة من الحنجرة تعرض من تقطيع الصوت بقرع اللهاة واطراف اللسان مع الحلق والحنك والاضراس او بقرع الشفتين ايضا فتتغاير كيفيات الاصوات بتغاير ذلك القرع وتجى الحروف متمايزة فى السمع وتتركب منها الكلمات الدالة على ما فى الضماير وليست الامم كلها متساوية فى النطق بتلك الحروف (2) فقد تكون لامّة من الحروف ما ليس لامّة اخرى والحروف التى نطقت بها العرب هى ثمانية وعشرون حرفا كما علمت ونجد للعبرانيّين حروفا ليست فى لغتنا وفى

(1) Man. A. فيها.

(2) Man. A. الحرف.

Digitized by Google

لغتنا ايضا حروفا ليست فى لغتهم وكذلك الافرنج
والترك والبربر وغير هولآء من العجم ثم ان اهل الكتاب
من العرب اصطلحوا فى الدلالة على حروفهم المسموعة
باوضاع حروف (1) مكتوبة متميّزة باشخاصها كوضع الف
وباء وجيم وراء وطا الى آخر الثمانية والعشرين واذا عرض لهم
الحرف الذى ليس من حروف لغتهم بقى مهملا عن
الدلالة الكتابيّة (2) مغفلا عن البيان وربّما يرسمه بعض
الكتاب بشكل الحرف الذى يكتنفه (3) من لغتنا قبله او
بعده وليس ذلك بكاف فى الدلالة بل هو تغيير (4)
للحرف من اصله (ولها) كان كتابنا مشتملا على اخبار البربر
وبعض العجم وكانت تعرض لنا فى اسمايهم او بعض كلماتهم
حروف ليست من لغة كتابتنا ولا اصطلاح اوضاعنا اضطررنا
الى بيانه ولم نكتف برسم الحرف الذى يليه كما قلنا
لانه عندنا غير واف بالدلالة عليه فاصطلحت فى كتابى
هذا على ان اضع ذلك الحرف العجمى بما يدلّ على
الحرفين الذين يكتنفانه ليتوسّط القارى بالنطق به بين
مخرجى ذينك الحرفين فتحصل تاديته وانّها اقتبست
ذلك من رسم اهل المصحف حروف الاشمام كالصراط فى

(1) Man. A. حرف.
(2) Man. A. et B. الكتابة.
(3) Man. B. يكتنفهم Man. C. يكشفه.
(4) Man. A. تغير.

Digitized by Google

قراءة خلف فان النطق بصاده فيها مفخم متوسّط بين الصاد والزاى فوضعوا الصاد ورسموا فى داخلها شكل الزاى ودلّ ذلك عندهم على التوسّط بين الحرفين فكذلك (1) رسمت انا كل حرف بتوسط بين حرفين من حروفنا كالكاف المتوسّطة عند البربر بين الكاف الصريحة عندنا والجيم مثل اسم بُلُكّين فاضعها كافا وانقطها بنقطة الجيم واحدة من اسفل او بنقطة القاف واحدة من فوق او ثنتين فيدلّ ذلك على انه متوسّط بين الكاف والجيم او القاف وهذا الحرف اكثر ما يجى فى لغة البربر وما جآء من غيره فعلى هذا القياس اضع الحرف المتوسّط بين حرفين من لغتنا بالحرفين معا ليعلم القارى انه متوسّط فينطق به كذلك فيكون قد دللنا عليه و لو وضعناه برسم الحرف الواحد عن جانبيه لكنّا قد صرفناه من مخرجه الى مخرج الحرف الذى من لغتنا وغيرنا لغة القوم فاعلم ذلك والله سبحانه الموفّق لا ربّ غيره

(1) Man. A. لذلك. Man. B. ذلك.

Digitized by Google

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه وسلّم تسليما

الكتاب الاول فى طبيعه العمران فى الخليقة وما يعرض فيها من البدو والحضر

والتغلّب والكسب والمعاش والعلوم والصنايع ونحوها وما لذلك من العلل والاسباب (اعلم) انه لما كانت حقيقة التاريخ انه خبر عن الا جماع الانسانى الذى هو عمران العالم وما يعرض لطبيعة ذلك العمران من الاحوال مثل التوحّش والتأنّس والعصبيات واصناف التقلّبات للبشر بعضهم على بعض وما ينشئ عن ذلك من الملك والدول ومراتبها وما ينتحله البشر باعمالهم ومساعيهم من الكسب والمعاش والعلوم والصنايع وساير ما يحدث فى ذلك العمران بطبيعة من الاحوال ولما كان الكذب متطرّقا للخبر بطبيعته وله الاسباب تقتضيه (فمنها) التشيّعات للاراء والمذاهب فان النفس اذا كانت على حال الاعتدال فى قبول الخبر اعطته حقّه من التمحيص (1) والنظر حتى يتبيّن صدقه من كذبه واذا خامرها تشيّع لراى او نحلة قبلت ما يوافقها من الاخبار لاول وهلة وكان ذلك

(1) Man. B. التخصيص.

Digitized by Google

الميل والتشيّع غطاء على عين بصيرتها عن الانتقاد والتمحيص فيقع فى قبول الكذب ونقله (1) (ومن) الاسباب المقتضية للكذب فى الاخبار ايضا الثقة بالناقلين وتمحيص ذلك يرجع الى التعديل والتجريح (2) (ومنها) الذهول عن المقاصد فكثير من الناقلين لا يعرف القصد بما عاين او سمع وينقل الخبر على ما فى ظنّه وتخمينه فيقع فى الكذب (ومنها) توهّم الصدق وهو كثير وانّما يجئ فى الاكثر من جهة الثقة بالناقلين (ومنها) الجهل بتطبيق الاحوال على الواقع لاجل ما يداخلها من التلبّس والتصنّع فينقلها المخبر كما راءها وهى بالتصنّع على غير الحقّ فى نفسه (ومنها) تقرب الناس فى الاكثر لاصحاب التجلّة والمراتب بالثناء والمدح وتحسين الاحوال واشاعة الذكر بذلك فتستفيض الاخبار بها على غير حقيقة فالنفوس مولعة بحبّ الثناء والناس متطلّعون الى الدنيا واسبابها من جاه او ثروة وليسوا فى الاكثر براغبين فى الفضايل لا متنافسين فى اهلها (ومن) الاسباب المقتضية له ايضا وهى سابقة على جميع ما تقدّم الجهل بطبايع الاحوال فى العمران فان كل حادث من الحوادث ذاتا كان (3) او فعلا لا بدّ له من طبيعة تخصّه (4) فى ذاته وفيما يعرض من

(1) Man. A. نحوة.

(2) Man. A. الترجيح.

(3) Les man. A. et B. omettent كان.

(4) Man. C. تخصّ له. Man. B. تخص.

Digitized by Google

احواله فاذا كان السامع عارفا بطبايع الحوادث والاحوال فى الوجود ومقتضياتها اعانه ذلك فى تمحيص الخبر على تمييز الصدق من الكذب وهذا ابلغ فى التمحيص من كل وجه يعرض وكثيرا ما يعرض للسامعين قبول الاخبار المستحيلة وينقلونها وتوثر عنهم كما نقله المسعودى عن الاسكندر لما صدّته دوابّ البحر عن بناء الاسكندرية وكيف اتّخذ تابوت الخشب وفى باطنه صندوق الزجاج وغاص فيه الى قعر البحر حتى كتب صور تلك الدوابّ الشيطانيّة التى راها وعمل تماثيلها من اجساد معدنيّة ونصبها حذاء البنيان ففرّت تلك الدواب حين خرجت وعاينتها وتمّ له بناوة فى حكاية طويلة من احاديث خرافة مستحيلة من قبل اتّخاذ التابوت الزجاج ومصادمة البحر وامواجه بجرمه ومن قبل ان الملوك لا تحمل انفسها على مثل هذا الغرر ومن اعتمده منهم فقد عرض نفسه للهلكة وانتقاض العقدة واجتماع الناس الى غيره وفى ذلك تلافه لا ينتظرون (1) به رجوعه من غرره ذلك طرفة عين ومن قبل ان الجنّ لا يعرف لها صور ولا تماثيل تختصّ بها انما هى قادرة على التشكّل وما يذكر من كثرة الرؤس لها فانما المراد به البشاعة والتهويل لا انه حقيقة وهذه كلها قادحة فى تلك الحكاية والقادح المحيل (2) لها

(1) Man. C. ينظرون.

(2) Man. A. المحيد.

Digitized by Google

من طريق الوجود بابين من هذا كله ان المنغمس فى الماء
ولو كان فى الصندوق يضيق عليه الهواء للتنفّس الطبيعى
ويتسخن روحه بسرعة لقلته فيفقد صاحبه الهواء البارد المعدل
لمزاج الرية والروح القلبى ويهلك مكانه وهذا هو السبب
فى هلاك اهل الحمامات اذا اطبقت عليهم عن الهواء
البارد والمتدلّين فى الابار والمطامير العميقة المهوى اذا سخن
هواوها بالعفونة ولم تداخلها الرياح فتخلخلها فان المتدلّى
فيها يهلك لحينه وبهذا السبب يكون موت الحوت اذا
فارق البحر فان الهواء لا يكفيه فى تعديل ريته اذ هو حار
بافراط والماء الذى يعدله بارد والهواء الذى خرج اليه حار
فيستولى الحرّ على روحه الحيوانى ويهلك دفعة ومنه هلاك
المصعوقين وامثال ذلك (ومن) الاخبار المستحيلة ما نقله
المسعودى ايضا فى تمثال الزرزور الذى برومة تجتمع اليه
الزرازير فى يوم معلوم من السنة حاملة للزيتون ومنه
يتّخذون زيتهم وانظر ما ابعد ذلك عن المجرا الطبيعى
فى اتّخاذ الزيت (ومنها) ما نقله البكرى فى بناء المدينة
المسماة ذات الابواب تحيط باكثر من ثلاثين مرحلة وتشتمل
على عشرة آلاف باب والمدن انما اتّخذت للتحصن والاعتصام
كما ياتى وهذه خرجت عن ان يحاط بها فلا يكون فيها
حصن ولا معتصم (كما) نقله المسعودى ايضا فى حديث

Digitized by Google

مدينة النحاس وانها مدينة كلها من نحاس بصحراء سجلماسة طرقها موسى ابن نصير فى غزايه الى المغرب وانها مغلقة الابواب وان الصاعد اليها من اسوارها اذا اشرف على الحايط صفق ورمى بنفسه فلا يرجع آخر الدهر فى حديث مستحيل من خرافات القصاص وصحراء سجلماسة قد نفضها الركاب والادلّاء ولم يقفوا على هذه المدينة لخبر ثم ان هذه الاحوال التى ذكروا عنها كلها مستحيل عادة مناف للامور الطبيعيّة فى بناء المدن واختطاطها وان المعادن غاية الموجود منها ان يصرف فى الآنية والخُرثى واما تشييد مدينة منها فكما تراه من الاستحالة والبعد وامثال ذلك كثير وتمحيصه انما هو بمعرفة طبايع العمران وهو احسن الوجوه واوثقها فى تمحيص الاخبار وتمييز صدقها من كذبها وهو سابق على التمحيص بتعديل الرواة (1) ولا يرجع الى تعديل الرواة (2) حتى نعلم هل ذلك الخبر فى نفسه ممكن او ممتنع واما اذا كان مستحيلا فلا فايدة فى النظر فى التعديل او التجريح (3) ولقد عدّ اهل النظر من المطاعن فى الخبر استحالة مدلول اللفظ او تاويله ان يوؤل بما لا يقبله العقل وانما كان التعديل والتجريح (4) هو المعتبر فى صحّة الاخبار الشرعيّة لانّ معظمها

(1) Man. A. et D. الرواية.

(2) Man. A. et B. الرواية.

(3) Man. A. الترجيح.

(4) Man. A. الترجيح.

Digitized by Google

PROLÉGOMÈNES d'Ebn-Khaldoun.

تكاليف انشائيّة اوجب الشارع العمل بها متى حصل الظنّ بصدقها وسبيل صحّة الظنّ الثقة بالرواة للعدالة والضبط وامّا الاخبار عن الواقعات فلا بدّ فى صدقها وصحّتها من اعتبار المطابقة فلذلك وجب ان ننظر (1) فى امكان وقوعه وصار ذلك فيها اهمّ من التعديل ومقدّما عليه اذ فايدة الانشاء مقتبسة منه فقط وفايدة الخبر منه ومن الخارج بالمطابقة اذا كان ذلك فالقانون فى تمييز الحق من الباطل فى الاخبار بالامكان والاستحالة ان ننظر فى الاجتماع البشرىّ الذى هو العمران ونميّز ما يلحقه من الاحوال لذاته وبمقتضى طبعه وما يكون عارضا لا يعتدّ به وما لا يمكن ان يعرض له واذا فعلنا ذلك كان لنا قانونا فى تمييز الحق من الباطل فى الاخبار والصدق والكذب بوجه برهانىّ لا مدخل للشك فيه وحينيذ فاذا سمعنا عن شئ من الاحوال الواقعة فى العمران علمنا ما نحكم بقبوله مما نحكم بتزييفه وكان لنا ذلك معيارا صحيحا يتحرّى به المورّخون طريق الصدق والصواب فيما ينقلونه وهذا هو غرض هذا الكتاب الاول من تاليفنا وكان هذا علم مستقلّ بنفسه فانه ذو موضوع وهو العمران البشرىّ والاجتماع الانسانىّ وذو مسايل وهى بيان ما يلحقه من الاحوال لذاته واحدة بعد اخرى وهذا

(1) Man. B. تنظر. Man. C. ينظر.

شاءن كل علم من العلوم وضعيّا كان او عقليّا (واعلم) ان الكلام فى هذا الغرض مستحدث الصنعة غريب النزعة غزير(1) الفايدة اعثر عليه البحث وادى اليه الغوص وليس من علم الخطابة (2) الذى هو احد الكتب المنطقيّة فان موضوع الخطابة انما هو الاقوال المقنعة النافعة فى استمالة الجمهور الى راى او صدّهم عنه ولا هو ايضا من علم السياسة المدنيّة اذ السياسة المدنيّة هى تدبير المنزل او المدينة بما يجب بمقتضى الاخلاق والحكمة ليحمل الجمهور على منهاج يكون فيه حفظ النوع وبقاوه (3) فقد خالف موضوعه موضوع هذين الفنّين الذين ربّما يشبهانه وكانّه علم مستنبط النشاءة ولعمرى لم اقف على الكلام فى منحاه لاحد من الخليقة ما ادرى لغفلتهم عن ذلك وليس الظنّ بهم او لعلهم كتبوا فى هذا الغرض واستوفوه ولم يصل الينا فالعلوم كثيرة والحكماء فى امم النوع الانسانى متعددون وما لم يصل الينا من العلوم اكثر مما وصل فاين علوم الفرس الذى امر عمر رضى الله عنه بمحوها عند الفتح واين علوم الكلدانيّين والسريانيّين واهل بابل وما ظهر عليهم من آثارها ونتايجها واين علوم القبط من قبلهم وانّما وصل الينا علوم امّة واحدة وهم يونان خاصّة لكلف المامون باخراجها من لغتهم واقتداره على ذلك

(1) Man. A. et B. عزيز. (2) Man. الحكاية. (3) Man. B. بناوه.

Digitized by Google

لكثرة المترجمين وبذل الاموال (1) فيها ولم نقف على شئ
من علوم غيرهم واذا كانت كل حقيقة متعقّلة (2) طبيعيّة يصلح (3)
ان يبحث عمّا يعرض لها من العوارض لذاتها وجب ان
يكون باعتبار كل مفهوم وحقيقة علم من العلوم يخصّه لكن
الحكماء لعلّهم انما لاحظوا فى ذلك العناية بالثمرات (4)
وهذا انما ثمرته كما رايت فى الاخبار فقط واذا كانت مسايله
فى ذاتها وباختصاصاتها شريفة لكن ثمرته تصحيح الاخبار
وهى ضعيفة فلهذا هجروه والله تعالى اعلم وما اوتيتم من العلم
الا قليلا (وهذا) الفن الذى لاح لنا النظر فيه نجد منه
مسايل تجرى بالعرض لاهل العلوم فى براهين
علومهم وهى من جنس مسايله بالموضوع والمطلب مثل ما
يذكره الحكماء فى اثبات النبوة من ان البشر متعاونون فى
وجودهم فيحتاجون فيه الى الحاكم والوازع ومثلما يذكر فى
اصول الفقه فى باب اثبات اللغات ان الناس محتاجون
للعبارة عن المقاصد بطبيعة (5) التعاون والاجتماع وشأن
العبارات اخفّ ومثل ما يذكره الفقهاء فى تعليل الاحكام
الشرعيّة بالمقاصد فى ان الزنا مخلط للانساب مفسد للنوع
والقتل ايضا مفسد للنوع وان الظلم موذن بخراب العمران

(1) Man. A. اموالا. (2) Man. A. B. D. متعلّقة. (3) Man. B. بحيث.
(4) Man. A. فى الثمرات. (5) Man. A. et B. بطبيعية.

Digitized by Google

المقتضى فساد النوع وغير ذلك من ساير المقاصد الشرعيّة
فى الاحكام وانها كلها مبنية على المحافظة على العمران
فكان لها النظر فيما يعرض له وهو ظاهر من كلامنا هذا فى
هذه المسايل المهملة وكذلك ايضا يقع الينا القليل من
مسايله فى كلمات متفرّقة لحكماء الخليقة لكنهم لم يستوفوه (1)
(فمن كلام الموبذان) لبهرام ابن بهرام فى حكاية البوم التى
نقلها المسعودى ايّها الملك ان الملك لا يتمّ عزّه الا
بالشريعة والقيام للّه بطاعته والتصرّف تحت امره ونهيه ولا قوام
للشريعة الا بالملك ولا عزّ للملك الا بالرجال ولا قوام
للرجال الا بالمال ولا سبيل الى المال الا بالعمارة ولا سبيل
الى العمارة الا بالعدل والعدل الميزان المنصوب بين الخليقة
نصبه الربّ وجعل له قيّما وهو الملك (ومن كلام انوشروان) فى
هذا المعنى بعينه الملك بالجند والجند بالمال والمال بالخراج
والخراج بالعمارة والعمارة بالعدل والعدل باصلاح الاعمال
واصلاح الاعمال باستقامة الوزراء وراءس الكل بافتقاد الملك
حال رعيته بنفسه واقتداره على تاديبها (2) حتى يملكها
ولا تملكه وفى الكتاب المنسوب لارسطو فى السياسة
المتداول بين الناس جزء صالح منه الا انه غير مستوفى ولا
معطى حقّه من البراهين ومختلط بغيره وقد اشار فى ذلك

(1) Man. A. يستوفوا.

(2) Man. C. تاديبها.

Digitized by Google

الكتاب الى هذه الكلّيات (1) التى نقلناها عن الموبذان
وانوشروان وجعلها فى الدايرة الغريبة التى اعظم القول فيها
وهى قوله العالم بستان سياجه الدولة والدولة سلطان تحمى به
السنّة والسنّة سياسة يسوسها (2) الملك (3) الهلك
نظام يعضده الجند الجند اعوان يكفلهم المال الهال رزق
تجمعه الرعيّة الرعية عبيد يكنفهم العدل العدل مألوف وبه
قوام العالم العالم بستان ثم يرجع الى اول الكلام
فهذه ثمان كلمات حكميّة سياسيّة ارتبط بعضها ببعض وارتدّت
اعجازها على صدورها واتّصلت فى دايرة لا يتعيّن طرفها
فخر بعثوره عليها وعظم من فوايدها وانت اذا تاملت كلامنا
فى فصل الملك والدول واعطيته حقّه من التصفّح والتفهّم
عثرت فى اثنايه على تفسير هذه الكلمات وتفصيل اجمالها
مستوفى مبيّنا باوعب بيان واوضح دليل وبرهان اطلعنا الله
عليه من غير تعليم ارسطو ولا افادة (4) الموبذان وكذلك
نجد فى كلام ابن المقفّع وما يستطرد فى رسايله من ذكر
السياسات الكثير (5) من مسايل كتابنا هذا غير مبرهنة كما
برهناه انما يجلبها فى الذكر على منحى الخطابة فى اسلوب
الترسيل وبلاغة الكلام وكذلك حوّم (6) القاضى ابو بكر

(1) Man. B. الكلمات.
(2) Man. B. يسومها.
(3) Man. D. الامام راع الامام.
(4) Man. B. فايدة.
(5) Man. A. et B. الكثيرة.
(6) Man. D. جزم.

Digitized by Google

الطرطوشى فى كتاب سراج الملوك وبوّبه على ابواب
تقرب من ابواب كتابنا ومسايله لكنه لم يصادف فيه
الرميّة ولا اصاب الشاكلة ولا استوفى المسايل ولا اوضح
الادلّة انما يبوّب الباب للمسئلة ثم يستكثر الاحاديث والآثار
وينقل كلمات متفرّقة لحكماء الفرس مثل بزرجمهر والهوبذان
وحكماء الهند والماثور عن دانيال وهرمس وغيرهم من اكابر
الخليقة ولا يكشف عن التحقيق قناعا ولا يرفع بالبراهين
الطبيعيّة حجابا انما هو نقل وترغيب شبيه بالمواعظ وكانّه حوّم
على الغرض ولم يصادفه ولا تحقّق (1) قصده ولا استوفى
مسايله ونحن الهمنا الله الى ذلك الهاما واعثرنا على علم
جعلنا سنّ بكره وجهينة خبره فان كنت قد استوفيت مسايله
وميزت عن ساير الصنايع انظاره وانحاءه فتوفيق من الله
وهداية وان فاتنى شئ فى احصايه واشتبهت بغيره مسايله
فللناظر المحقّق اصلاحه ولى الفضل انّى نهجت له السبيل
واوضحت الطريق والله يهدى بنوره من يشاء (ونحن) الآن
نبيّن فى هذا الكتاب ما يعرض للبشر فى اجتماعهم من
احوال العمران فى الملك والكسب والعلوم والصنايع بوجوه
برهانيّة يتّضح بها التحقيق فى معارف الخاصّة والعامّة
وتندفع بها الاوهام وترتفع الشكوك (ونقول) لما كان الانسان

(1) Man. B. تحقيق.

Digitized by Google

PROLÉGOMÈNES d'Ebn-Khaldoun.

متميّزا عن ساير الحيوانات بخواصّ اختصّ بها فهنها العلوم والصنايع التى هى نتيجة الفكر الذى تميّز (1) به عن الحيوانات وشرف بوصفه على المخلوقات ومنها الحاجة الى الحكم الوازع والسلطان القاهر اذ لا يمكن وجوده دون ذلك من بين الحيوانات كلها الا ما يقال عن النحل والجراد وهذه وان كان لها مثل ذلك فبطريق الهامىّ لا بفكر وروية ومنها السعى فى المعاش والاعتمال فى تحصيله من وجوهه واكتساب اسبابه لما جعل الله فيه من الافتقار الى الغذاء فى حياته وبقايه وهداه الى التماسه وطلبه قال تعالى اعطى كل شئ خلقه ثم هدى ومنها العمران وهو التساكن والتنازل فى مصر او حلّة للانس بالعشرة واقتضاء الحاجات لها فى طباعهم من التعاون على المعاش كما نبيّنه ومن هذا العمران ما يكون بدويّا وهو الذى يكون فى الضواحى والجبال وفى الحلل المنتجعة للقفار واطراف الرمال ومنه ما يكون حضريّا وهو الذى بالامصار والقرى والمدن والمداشر للاعتصام بها والتحصّن بجدرانها وله فى كل هذه الاحوال امور تحدث من حيث الاجتماع عروضا ذاتيا له فلاجرم انحصر الكلام فى هذا الكتاب فى ستّة فصول (الاول) فى العمران البشرىّ

(1) Man. A. et B. يتميّز.

على الجملة واصنافه وقسطه من الارض (الثانى) فى العمران البدوىّ وذكر القبايل والامم الوحشيّة (الثالث) فىّ الدول والخلافة والملك وذكر المراتب السلطانيّة (الرابع) فى العمران الحضرىّ والبلدان والامصار (الخامس) فى الصنايع والمعاش والكسب ووجوهه (السادس) فى العلوم واكتسابها وتعلّمها وقدّمت العمران البدوى لانه سابق على جميعها كما يتبيّن لك بعد وكذا تقديم الملك على البلدان والامصار واما تقديم المعاش فلانّ المعاش ضرورىّ طبيعىّ وتعلّم (1) العلم كمالىّ او حاجىّ والطبيعىّ اقدم من الكمالىّ وجعلت الصنايع مع الكسب لانّها منه ببعض الوجوه ومن حيث العمران كما يتبيّن بعد والله الموفّق

الفصل الاول من الكتاب الاول فى العمران البشرىّ على الجملة وفيه مقدّمات

(الاولى) فى ان الاجتماع للانسان ضرورىّ ويعبر الحكماء عن هذا بقولهم الانسان مدنىّ بالطبع اى لا بدّ له من الاجتماع الذى هو المدينة فى اصطلاحهم وهو معنى العمران بيانه ان

(1) Man. A. et B. تعليم.

Digitized by Google

الله سبحانه خلق الانسان وركّبه على صورة لا تصحّ حياتها وبقاوها الا بالغذاء وهداه الى التماسه بفطرته وبما ركّب فيه من القدرة على تحصيله الّا ان قدرة الواحد من البشر قاصرة عن تحصيل حاجته من ذلك الغذاء غير موفية له بمادّة حياته منه ولو فرضْنا منه اقلّ ما يمكن فرضه وهو قوت يوم من الحنطة مثلا فلا يحصل الا بعلاج كثير من الطحن والعجن والطبخ وكل واحد من هذه الاعمال الثلاثة يحتاج الى مواعين والآت لا تتمّ الا بصناعات متعدّدة من حدّاد ونجّار وفخّار هب انه ياكله (1) حبّا من غير علاج فهو ايضا يحتاج فى تحصيله حبّا الى اعمال اخر (2) اكثر من هذه من الزراعة والحصاد والدرس الذى يخرج الحب من غلاف السنبل ويحتاج كل واحد من هذه الى الآت متعدّدة وصنايع كثيرة اكثر من الاولى بكثير ويستحيل ان توفى بذلك كله او ببعضه قدرة الواحد فلا بدّ من اجتماع القُدَر الكثيرة من ابناء جنسه لتحصيل القوت له ولهم فيحصل بالتعاون قدر الكفاية من الحاجة لاكثر منهم باضعاف وكذلك يحتاج كل واحد منهم ايضا فى الدفاع عن نفسه الى الاستعانة بابناء جنسه لانّ الله سبحانه لما ركّب الطبايع (3) الحيوانيّة كلها وقسم القدر بينها (4)

(1) Man. B. ياكل.

(2) Man. C. اخرى.

(3) Man. A. et C. الطباع.

(4) Ce mot manque dans les man. A. et B.

Digitized by Google

جعل حظوظ كثير من الحيوانات العجم من القدرة اكمل
من حظ الانسان فقدرة الفرس مثلا اعظم بكثير من قدرة
الانسان وكذا قدرة الحمار والثور وقدرة الاسد والفيل اضعاف
من قدرته ولمّا كان العدوان طبيعيّا فى الحيوان جعل لكل
واحد منها عضوا يختصّ بمدافعة ما يصل اليه من عادية غيره
وجعل للانسان عوضا من ذلك كله الفكر واليد فاليد مهيّئة
للصنايع بخدمة الفكر والصنايع تحصل له الآلات التى تنوب له
عن الجوارح المعدّة فى ساير الحيوانات للدفاع مثل الرماح
التى تنوب عن القرون الناطحة والسيوف النايبة عن
المخالب الجارحة والتراس النايبة عن البشرات الجاسية
الى غير ذلك وغيره مما ذكر جالينوس فى كتاب منافع
الاعضاء فالواحد من البشر لا تقاوم قدرته قدرة واحد من
الحيوانات العجم سيّما المفترسة فهو عاجز عن مدافعتها
وحده بالجملة ولا تفى قدرته ايضا باستعمال الآلات المعدّة
للمدافعة لكثرتها وكثرة الصنايع والمواعين المعدّة لها فلا بدّ
فى ذلك كله من التعاون عليه بابناء جنسه وما لم يكن
هذا التعاون فلا يحصل له قوت ولا غذاء ولا تتمّ حياته لما
ركّبه الله عليه من الحاجة الى الغذاء فى حياته ولا يحصل له ايضا
دفاع عن نفسه لفقدان السلاح فيكون فريسة للحيوانات ويعاجله(1)

(1) Man. A. et C. يعالجه.

Digitized by Google

الهلاك عن مدى حياته ويبطل نوع البشر واذا كان التعاون حصل له القوت للغذاء والسلاح للمدافعة وتمّت حكمة الله فى بقايه وحفظ نوعه فاذن هذا الاجتماع ضرورىّ للنوع الانسانىّ والّا لم يكمل وجودهم (1) وما اراده الله من اعتمار العالم بهم واستخلافه ايّاهم وهذا هو معنى العمران الذى جعلناه موضوعا لهذا العلم وفى هذا الكلام نوع اثبات للموضوع فى فنّه الذى هو موضوع له وهذا وان لم يكن واجبا على صاحب الفنّ لما تقرّر فى الصناعة المنطقيّة انه ليس على صاحب علم اثبات الموضوع فى ذلك العلم فليس ايضا من الممنوعات عندهم فيكون اثباته من التبرّعات والله الموفّق بفضله (ثم) ان هذا الاجتماع اذا حصل للبشر كما قررناه وتمّ عمران العالم بهم فلا بدّ من وازع يدفع بعضهم عن بعض لما فى طباعهم الحيوانيّة من العدوان والظلم وليست السلاح التى جعلت دافعة لعدوان الحيوانات العجم عنهم بكافية فى دفع العدوان بينهم لانّها موجودة لجميعهم فلا بدّ من شئ اخر يدفع عدوان بعضهم عن بعض ولا يكون من غيرهم لقصور جميع الحيوانات عن مداركهم والهاماتهم فيكون ذلك الوازع واحدا منهم يكون له عليهم الغلبة والسلطان واليد القاهرة حتّى لا يصل احد الى غيره بعدوان وهذا هو

(1) Man. A. وجوده.

Digitized by Google

معنى الملك وقد تبيّن لك بهذا انّه خاصّة للانسان طبيعيّة لا بدّ لهم منها وقد توجد فى بعض الحيوانات العجم على ما ذكره الحكماء كما فى النحل والجراد لما استقرى فيها من الحكم والانقياد والاتّباع لرئيس من اشخاصها متميّز عنهم فى خلقه وجثمانه الا ان ذلك موجود لغير الانسان بمقتضى الفطرة والهداية لا بمقتضى الفكرة والسياسة اعطى كل شئ خلقه ثم هدى ويزيد الفلاسفة على هذا البرهان حيث يحاولون اثبات النبوة بالدليل العقلىّ وانها خاصّة طبيعيّة للانسان فيقرّرون هذا البرهان الى غايته وانه لا بدّ للبشر من الحكم الوازع ثم يقولون بعد ذلك وذلك الحكم يكون بشرع مفروض من عند الله ياتى به واحد من البشر يكون متميّزا عنهم بما يودع الله فيه من خواصّ هدايته ليقع التسليم له والقبول منه حتى يتمّ الحكم فيهم وعليهم من غير انكار ولا تثريب وهذه القضيّة للحكماء غير برهانيّة كما ترى (1) اذ الوجود وحياة البشر قد تتمّ من دون ذلك بما يفرضه الحاكم لنفسه او بالعصبيّة التى يقتدر بها على قهرهم وحملهم على جادته فاهل الكتاب والمتّبعون للانبياء قليلون بالنسبة الى المجوس الذين ليس لهم كتاب فانّهم اكثر اهل العالم ومع ذلك فقد كانت لهم الدول (2) والآثار

(1) Man. B. et C. تراه.

(2) Man. B. الدولة.

Digitized by Google

فضلا عن الحياة وكذلك هى لهم لهذا العهد فى الاقاليم المنحرفة الى الشمال والجنوب بخلاف حياة البشر فوضى دون وازع البتّة فانه ممتنع وبهذا يتبيّن لك غلطهم فى وجوب النبوات وانه ليس بعقلىّ وانما مدركه الشرع كما هو مذهب السلف من الامّة والله ولى التوفيق والهداية

المقدّمة الثانية فى قسط العمران من الارض

والاشارة الى بعض ما فيه من البحار والانهار والاقاليم انه قد تبيّن فى كتب الحكماء الناظرين فى احوال العالم ان شكل الارض كرىّ وانّها محفوفة بعنصر الماء كانّها عنبة طافية عليه فانحسر الماء عن بعض جوانبها لما اراده الله تعالى من تكوين الحيوانات فيها وعمرانها بالنوع البشرىّ الذى له الخلافة على سايرها وقد يتوهّم من ذلك ان الماء تحت الارض وليس بصحيح وانّما التحت الطبيعىّ قلب الارض ووسط كرتها الذى هو مركزها والكل يطلبه بما فيه من الثقل وما عدا ذلك من جوانبها والماء المحيط بها فهو فوق وان قيل فى شئ منها انه تحت فبالاضافة الى جهة اخرى عنه وهذا (1) الذى انحسر عنه الماء من الارض هو النصف من

(1) Man. A. هو.

Digitized by Google

سطح كرتها فى شكل دايرة احاط العنصر الماءى بها من
جميع جهاتها بحرا يسمى البحر المحيط ويسمى ايضا البلاية
بتفخيم اللام الثانية ويسمى اوقيانوس اسماء اعجمية ويقال له
البحر الاخضر والاسود (ثم) ان هذا المنكشف من الارض
للعمران فيه القفار والخلاء اكثر من عمرانه والخالى من جهة
الجنوب منه اكثر من جهة الشمال وانّما المعمور منه قطعة
اميل الى جانب الشمال على شكل سطح كرىّ ينتهى من
جهة الجنوب الى خط الاستواء ومن جهة الشمال الى
خطّ كرىّ وراءه الجبال الفاصلة بينه وبين الماء
العنصرىّ التى بينها سدّ ياجوج وماجوج وهذه الجبال مايلة
الى جهة المشرق وينتهى من المشرق والمغرب الى عنصر
الماء ايضا بقطعتين من الدايرة المحيطة وهذا المنكشف من
الارض قالوا هو مقدار النصف من الكرة (1) او اقل والمعمور
منه مقدار ربعه وهو المنقسم بالاقاليم السبعة وخطّ الاستواء
يقسم الارض بنصفين من المغرب الى المشرق وهو طول
الارض واكبر خط فى كرتها كما ان منطقة البروج ودايرة
معدل النهار اكبر خطّ فى الفلك ومنطقة البروج منقسمة
بثلثماية وستّين درجة والدرجة من مسافة الارض خمسة
وعشرون فرسخا والفرسخ اثنا عشر الف ذراع فى ثلاثة

(1) Man. A. الكرى.

Digitized by Google

اميال لان الميل اربعة آلاف ذراع والذراع اربعة وعشرون
اصبعا والاصبع ست حبّات شعير مصفوفة يلحق بعضها الى
بعض ظهرا لبطن وبين دايرة معدل النهار التى تقسم
الفلك بنصفين وتسامت خطّ الاستواء من الارض وبين
كل واحد من القطبين تسعون درجة لكنّ العمارة فى الجهة
الشمالية من خط الاستواء اربعة وستّون درجة والباقى منها
خلاء لا عمارة فيه لشدّة البرد والجمود كما كانت الجهة
الجنوبيّة خلاء كلها لشدّة الحرّ كما نبين ذلك كله ان شاء
الله تعالى (ثم) ان المخبرين عن هذا المعمور وحدوده وما فيه
من الامصار والمدن والجبال والانهار والقفار والرمال مثل
بطليموس فى كتاب الجغرافيا وصاحب كتاب رجار من
بعده قسموا هذا المعمور بسبعة اقسام يسمونها السبع الاقاليم
بحدود وهميّة بين المشرق والمغرب متساوية فى العرض
مختلفة فى الطول فالاقليم الاول اطول ممّا بعده وكذا الثانى
الى آخرها فيكون السابع اقصر لما اقتضاه وضع الدايرة
الناشية من انحسار الماء عن كرة الارض وكل واحد من هذه
الاقاليم عندهم منقسم بعشرة اجزاء من المغرب الى المشرق
على التوالى وفى كل جزء الخبر عن احواله واحوال عمرانه
وذكروا ان هذا البحر المحيط يخرج منه من جهة المغرب
فى الاقليم الرابع البحر الرومى المعروف يبدا فى خليج

Digitized by Google

متضايق فى عرض اثنى (1) عشر ميلا او نحوها ما بين طنجة وطريف ويسمى الزقاق ثم يذهب مشرقا وينفسح الى عرض ستماية ميل ونهايته فى آخر الجزء الرابع من الاقليم الرابع على الف فرسخ وماية وستّين فرسخا من مبدايه وعليه هناك سواحل الشام وعليه من جهة الجنوب سواحل المغرب اولها طنجة عند الخليج ثم افريقية ثم برقة الى الاسكندرية ومن جهة الشمال سواحل القسطنطينية ثم البنادقة ثم رومة ثم الافرنجة ثم الاندلس الى طريف عند الزقاق قبالة طنجة ويسمى هذا البحر الرومى والشامى وفيه جزر كثيرة عامرة كبارها مثل اقريطش وقبرص وصقلية وميورقة وسردانية ودانية (1) قالوا ويخرج منه فى جهة الشمال بحران اخران من خليجين احدهما مسامت للقسطنطينية يبدا من هذا البحر متضايقا فى عرض رمية السهم ويمرّ ثلاثة مجار فيتّصل بالقسطنطينية ثم ينفسح فى عرض اربعة اميال ويمرّ فى جريه ستين ميلا ويسمى خليج القسطنطينية ثم يخرج من فوهة عرضها ستّة اميال فيمدّ بحر نيطش وهو بحر ينحرف من هنالك فى مذهبه الى ناحية الشرق فيمرّ بارض هريقلية وينتهى الى بلاد الخزرية على الف وثلثماية ميل من فوهته وعليه من الجانبين امم من الروم والترك وبرجان والروس والبحر

(1) Man. A. et C. اثنا.

(1) Ce mot est omis dans le man. B.

Digitized by Google

PROLEGOMÈNES d'Ebn-Khaldoun.

الثانى من خليج هذا البحر الرومى وهو بحر البنادقة يخرج
من بلاد الروم على سمت الشمال فاذا انتهى الى شنت
انجل انحرف فى سمت الغرب الى بلاد البنادقة وينتهى
الى بلاد انكلابة على الف وماية ميل من مبدايه وعلى ضفّتيه
من البنادقة والروم وغيرهم امم ويسمى خليج البنادقة قالوا
وينساح من هذا البحر المحيط ايضا من الشرق وعلى ثلاث
عشرة درجة فى الشمال من خطّ الاستواء بحر عظيم متّسع يمرّ
الى الجنوب قليلا حتى ينتهى الى الاقليم الاول ثم يمرّ فيه
مغربا الى ان ينتهى فى الجزء الخامس منه الى بلاد
الحبشة والزنج والى باب المندب منه على اربعة آلاف
فرسخ وخمسماية فرسخ من مبدايه ويسمى البحر الصينىّ
والهندىّ والحبشىّ وعليه من جهة الجنوب بلاد الزنج
وبلاد بربر التى ذكرها امرؤ القيس فى شعره وليسوا من
البربر الذين هم قبايل المغرب ثم بلد مقدشو ثم بلد سفالة
وارض الواق واق وامم اخرى ليس بعدهم الا القفار والخلاء
وعليه من جهة الشمال الصين من عند مبدايه ثم الهند ثم
السند ثم سواحل اليمن من الاحقاف وزبيد وغيرها ثم بلاد
الزنج عند نهايته وبعدهم البجة قالوا ويخرج من هذا البحر
الحبشىّ بحران اخران يخرج احدهما من نهايته عند باب
المندب فيبداء متضايقا ثم يمرّ مستبحرا الى ناحية الشمال

Digitized by Google

ومغربا قليلا الى ان ينتهى الى مدينة القلزم فى الجزء
الخامس من الاقليم الثانى على الف واربعماية ميل من
مبدايه وهو بحر القلزم وبحر السويس وبينه وبين فسطاط
مصر من هنالك ثلاث مراحل وعليه من جهة الشرق
سواحل اليمن ثم الحجاز وجدّة ثم مدين وايلة وفاران عند
نهايته ومن جهة الغرب سواحل الصعيد وعيذاب وسواكن
وزيلع ثم بلاد البجة عند مبدايه وآخره عند القلزم يسامت
البحر الرومى عند العريش وبينهما نحو ستّ مراحل وما
زال الملوك فى الاسلام وقبله يرومون خرق ما بينهما ولم
يتمّ ذلك والبحر الثانى من هذا البحر الحبشىّ ويسمى
الخليج الاخضر يخرج ما بين بلاد السند والاحقاف من اليمن
ويمرّ الى ناحية الشمال مغربا قليلا الى ان ينتهى الى الابلّة
من سواحل البصرة فى الجزء السادس من الاقليم الثانى
وعلى اربعماية فرسخ واربعين فرسخا من مبدايه ويسمى بحر
فارس وعليه من جهة الشرق سواحل السند ومكران وكرمان
وفارس والابلّة عند نهايته ومن جهة الغرب سواحل البحرين
واليمامة والعمان والشحر والاحقاف عند مبدايه وفيما بين
بحر فارس والقلزم هى جزيرة العرب كانّها دخلة (1) من البرّ
فى البحر يحيط بها البحر الحبشىّ من الجنوب وبحر

(1) Man. A. et B. داخلة.

Digitized by Google

القلزم من الغرب وبحر فارس من الشرق وتفضى الى العراق
فيما بين الشام والبصرة على الف وخمسماية ميل بينهما
وهناك الكوفة والقادسية وبغداذ وايوان كسرى والحيرة
ووراء ذلك امم الاعاجم من الترك والخزر وغيرهم وفى
جزيرة العرب بلاد الحجاز فى جهة الغرب منها وبلاد
اليمامة والبحرين وعمان فى جهة الشرق منها وبلاد
اليمن فى جهة الجنوب منها وسواحله على البحر الحبشىّ
(قالوا) وفى هذا المعمور بحر اخر منقطع عن ساير البحار
فى ناحية الشمال وبارض الديلم يسمى بحر جرجان
وطبرستان طوله الف ميل فى عرض ستماية ميل فى غربيه
اذربيجان والديلم وفى شرقيه ارض الترك وخوارزم وفى
جنوبيه طبرستان وفى شماليه ارض الخزر واللان هذه جملة
البحار المشهورة التى ذكرها اهل جعرافيا (قالوا) وفى هذا
الجزء المعمور انهار كثيرة اعظمها اربعة انهار وهى النيل
والفرات ودجلة ونهر بلخ المسمى جيحون (فاما النيل)
فمبداؤه من جبل عظيم وراء خطّ الاستواء بست عشر درجة
وعلى سمت الجزء الرابع من الاقليم الاول ويسمى جبل
القُمر ولا يعلم فى الارض جبل اعلا منه تخرج منه عيون كثيرة
فيصبّ بعضها فى بحيرة هناك وبعض فى اخرى ثم
تخرج انهار من البحيرتين فتصبّ كلها فى بحيرة

Digitized by Google

واحدة عند خطّ الاستواء وعلى عشرة مراحل من الجبل
ويخرج من هذه البحيرة نهران يذهب احدهما الى ناحية
الشمال وعلى سمته ويمرّ ببلاد النوبة ثم ببلاد مصر فاذا
جاوزها تشعّب فى شعب متقاربه يسمى كل واحد منها
خليجا وتصبّ كلها فى البحر الرومى عند الاسكندرية
ويسمى نيل مصر وعليه الصعيد من شرقيه والواحات من
غربيه ويذهب الاخر منعطفا الى الغرب ثم يمرّ على سمته
الى ان يصبّ فى البحر المحيط وهو (1) نيل السودان
واممهم كلهم على ضفّتيه (وامّا الفرات) فمبدأوه من بلاد
ارمينية فى الجزء السادس من الاقليم الخامس ويمرّ جنوبا
فى ارض الروم وملطية الى منبج ثم يمرّ بصفّين ثم بالرقّة ثم
بالكوفة الى ان ينتهى الى البطحاء التى بين البصرة وواسط
ومن هنالك يصبّ فى البحر الحبشىّ وتتجلّب اليه فى
طريقه انهار كثيرة ويخرج منه انهار اخرى تصبّ فى دجلة
(واما دجلة) فمبدأوها عيون ببلاد خلاط من ارمينية ايضا ويمرّ
على سمت الجنوب بالموصل واذربيجان وبغداذ الى واسط
فيتفرّق فى خلجان تصبّ كلها فى بحيرة البصرة وتفضى
الى بحر فارس وهو فى الشرق عن نهر الفرات وتتجلّب
اليه انهار كثيرة عظيمة من كل جانب وفيما بين الفرات

(1) Man A. اهل.

Digitized by Google

PROLÉGOMÈNES d'Ebn-Khaldoun.

ودجلة من اوله (1) جزيرة الموصل قبالة الشام من عدوتى الفرات وقبالة اذربيجان من عدوتى دجلة (وامّا نهر جيحون) فمبدؤه من بلخ فى الجزء الثانى من الاقليم الثالث من عيون هناك كثيرة وتتجلّب اليه انهار عظام ويذهب من الجنوب الى الشمال فيمرّ ببلاد خراسان ويخرج منها الى بلاد خوارزم فى الجزء الثامن من الاقليم الخامس فيصبّ فى بحيرة الجرجانية التى باسفل مدينتها وهى مسيرة شهر فى مثله واليها ينصبّ نهر فرغانة والشاش الآتى من (2) بلاد الترك وعلى غربى نهر جيحون بلاد خراسان وخوارزم وعلى شرقيه بلاد بخارا والترمذ وسمرقند ومن هنالك الى ما وراءه بلاد الترك وفرغانة والخرلجية وامم الاعاجم وقد ذكر ذلك كله بطليموس فى كتابه والشريف فى كتاب رجار وصوّروا فى الجغرافيا جميع ما فى المعمور من الجبال والبحار والاودية واستوفوا من ذلك ما لا حاجة لنا به لطوله وان عنايتنا فى الاكثر انما هى بالمغرب الذى هو وطن البربر وبالاوطان التى للعرب من المشرق (3) والله واهب المعونة

(1) Le man. C. ajoute هى.

(2) Man. A. et B. فى.

(3) Man. D. التى فى المغرب والمشرق.

Digitized by Google

تكملة لهذه المقدّمة الثانية

فى ان الربع الشمالى من الارض اكثر عمرانا من الربع الجنوبىّ وذكر السبب فى ذلك نحن نرى بالمشاهدة والاخبار المتواترة ان الاول والثانى من الاقاليم المعمورة اقلّ عمرانا مما بعدهما وما وجد من عمرانه فيتخلله الخلاء والقفار والرمال والبحر الهندى الذى فى الشرق منها وامم هذين الاقليمين واناسيّهما ليست لهم الكثرة البالغة وامصاره ومدنه كذلك والثالث والرابع وما بعدهما بخلاف ذلك فالقفار فيهما قليلة والرمال كذلك او معدومة وامهما واناسيها بحر زاخر من الكثرة وامصارهما ومدنهما تجاوز الحدّ عددا والعمران فيهما متدرّج ما بين الثالث والسادس والجنوب خلاء كلّه وقد ذكر كثير من الحكماء ان ذلك لافراط الحرّ وقلّة ميل الشمس فيها عن سمت الرؤس فلنوضح ذلك ببرهانه ويتبيّن منه سبب كثرة العمارة فيما بين الثالث والرابع من جانب الشمال الى الخامس والسابع فنقول ان قطبى الفلك الجنوبىّ والشمالىّ اذا كانا على الافق فهناك دايرة عظيمة تقسم الفلك بنصفين هى اعظم الدواير المارّة من المغرب الى المشرق وتسمى دايرة معدل النهار وقد تبيّن فى موضعه من الهيئة ان الفلك الاعلى متحرّك من المشرق الى

Digitized by Google

المغرب حركة يوميّة يحرك بها ساير الافلاك التى فى
جوفه قسرا وهذه الحركة محسوسة وكذلك تبيّن ان
للكواكب فى افلاكها حركة مخالفة لهذه الحركة وهى
من المغرب الى المشرق وتختلف آمادها باختلاف حركات
الكواكب فى السرعة والبطوء وممرّات هذه الكواكب فى
افلاكها توازيها كلّها دايرة عظيمة من الفلك الاعلى تقسمه
بنصفين وهى دايرة فلك البروج منقسمة باثنى عشر برجا
وهى على ما تبيّن فى موضعه مقاطعة لدايرة معدل النهار
على نقطتين متقابلتين من البروج هما اوّل الحمل واول
الميزان فتقسمها دايرة معدل النهار بنصفين نصف مايل
عن معدل النهار الى الشمال وهو من اوّل الحمل الى آخر
السنبلة ونصف مايل عنه الى الجنوب وهو من اول الميزان
الى آخر الحوت فاذا وقع القطبان على الافق فى جميع
نواحى الارض كان على سطح الارض خطّ واحد يسامت
دايرة معدل النهار يمرّ من المغرب الى المشرق ويسمى
خط الاستواء ووقع هذا الخط بالرصد على ما زعموا فى مبداء
الاقليم الاول من الاقاليم السبعة والعمران كلّه فى الجهة
الشماليّة عنه والقطب الشمالىّ يرتفع على آفاق هذا المعمور
بالتدريج الى ان ينتهى ارتفاعه الى اربع وستّين درجة
وهناك ينقطع العمران وهو آخر الاقليم السابع واذا ارتفع على

Digitized by Google

الافق تسعين درجة وهى التى بين القطب ودايرة معدل النهار صار القطب على سمت الرؤس وصارت دايرة معدل النهار على الافق وبقيت ستّة من البروج فوق الافق وهى الشماليّة وستّة تحت الارض وهى الجنوبيّة والعمارة فيما بين الاربعة والستّين الى التسعين ممتنعة لانّ الحرّ والبرد حينئذ لا يحصلان ممتزجين لبعد الزمان بينهما فلا يحصل تكوين فاذن الشمس تسامت الرؤس على خطّ الاستواء فى راس الحمل والميزان ثم تميل عن المسامتة الى راس السرطان والى راس الجدى وتكون نهاية ميلها عن دايرة معدل النهار اربعا وعشرين درجة ثم اذا ارتفع القطب الشمالىّ عن الافق مالت دايرة معدل النهار عن سمت الرؤس بمقدار ارتفاعه وانخفض القطب الجنوبىّ كذلك بمقدار متساو فى الثلاثة وهو المسمى عند اهل المواقيت عرض البلد واذا مالت دايرة معدل النهار عن سمت الرؤس علت عليها البروج الشماليّة متدرّجة فى مقدار علوها الى راس السرطان وانخفضت البروج الجنوبيّة عن الافق (1) كذلك الى راس الجدى لانحرافها الى الجانبين فى افق الاستواء كما قلناه فلا يزال الافق الشمالىّ يرتفع حتى يصير ابعد الشماليّة وهو راس السرطان فى سمت الرؤس وذلك حيث يكون عرض البلد اربعا

(1) Man. A. et B. لذلك.

Digitized by Google

وعشرين فى الحجاز وما يليه وهذا هو الهيل الذى مال
راءس السرطان عن معدل النهار فى افق الاستواء ارتفع بارتفاع
القطب الشمالى حتى صار مسامتا فاذا ارتفع القطب اكثر من
اربع وعشرين نزلت الشمس عن المسامتة ولا تزال فى انخفاض
الى ان يكون ارتفاع القطب اربعا وستّين ويكون انخفاض الشمس
عن المسامتة كذلك وانخفاض القطب الجنوبىّ عن
الافق مثلها فينقطع التكوين لافراط البرد والجمد وطول زمانه
غير ممتزج بالحرّ ثم ان الشمس عند المسامتة وما يقاربها
تبعث الاشعّة على الارض على زوايا قايمة وفيما دون المسامتة
على زوايا منفرجة وحادّة واذا كانت زوايا الاشعّة قايمة عظم
الضوء وانتشر بخلافه فى المنفرجة والحادّة فلهذا يكون الحرّ
عند المسامتة وما قرب منها اكثر منه فيما بعد لانّ الضوء
سبب الحرّ والتسخين ثمّ ان المسامتة فى خطّ الاستواء تكون
مرّتين فى السنة عند نقطتى الحمل والميزان واذا مالت فغير
بعيد ولا يكاد الحرّ يعتدل فى آخر ميلها عند راءس السرطان
والجدى الّا وقد صعدت الى المسامتة فتبقى الاشعّة
القايمة الزوايا تلحّ على ذلك الافق ويطول مكثها
او يدوم فيشتعل الهواء حرارة ويفرط فى شدّتها
وكذا ما دامت الشمس تسامت مرّتين فيما بعد
خطّ الاستواء الى عرض اربعة وعشرين فان الاشعّة مماسّة على

Digitized by Google

الافق فى ذلك الافق بقريب من الحاحها فى خطّ الاستواء وافراط الحرّ يفعل فى الهواء تجفيفا ويبسا يمنع من التكوين لانّه اذا افرط الحرّ جفّت المياه والرطوبات وفسد التكوين فى المعدن والنبات والحيوان اذ التكوين لا يكون الّا بالرطوبة ثم اذا مال راءس السرطان عن سمت الرؤس فى عرض خمسة وعشرين فما بعده نزلت الشمس عن المسامتة فيصير الحرّ الى الاعتدال او يميل عنه قليلا فيكون التكوين ويزيد على التدريج الى ان يفرط البرد فى شدّته بقلّة الضوء وكون الاشعّة منفرجة الزوايا فينقص التكوين ويفسد الّا ان فساد التكوين من جهة شدّة الحرّ اعظم منه من جهة شدّة البرد لانّ الحرّ اسرع تاثيرا فى التجفيف من تاثير البرد فى الجمد فلذلك كان العمران فى الاقليم الاول والثانى قليلا وفى الثالث والرابع والخامس متوسّطا لاعتدال الحرّ بنقصان الضوء وفى السادس والسابع كثيرا لنقصان الحرّ وان كيفيّة البرد لا تؤثر عند اولها فى فساد التكوين كما يفعل الحرّ اذ لا تجفيف فيها الّا عند الافراط بما يعرض لها حينئذ من اليبس كما بعد السابع فلهذا كان العمران فى الربع الشمالىّ اكثر واوفر والله تعالى اعلم (ومن هنا) اخذ الحكماء خلاء خطّ الاستواء وما وراءه واورد (1) عليهم انّه معمور بالمشاهدة (2)

(1) Man. D. ورد.

(2) Man. A. ajoute والخبر

والاخبار المتواترة فكيف يتمّ البرهان على ذلك والظاهر انّهم لم يردوا امتناع العمران فيه بالكلّية انما اداهم البرهان الى ان فساد التكوين فيه قوى بافراط الحرّ فالعمران فيه امّا ممتنع او ممكن أقلّىّ وهو كذلك لانّ خطّ الاستواء والذى وراءه وان كان فيه عمران كما نقل فهو قليل جدّا وقد زعم ابن رشد ان خطّ الاستواء معتدل وان ما وراءه فى الجنوب فى مثابة ما وراءه فى الشمال فيعمر منه ما عمر من هذا والذى قاله غير ممتنع من جهة فساد التكوين وانما امتنع فيما وراء خطّ الاستواء فى الجنوب من جهة ان العنصر الماءىّ غمر (1) وجه الارض هنالك الى الحدّ الذى كان مقابله من الجهة الشماليّة قابلا للتكوين ولما امتنع المعتدل لغلبة الماء تبعه ما سواه لانّ العمران متدرّج ويأخذ فى التدريج من جهة الوجود لا من جهة الامتناع وامّا القول بامتناعه فى خطّ الاستواء فيردّه النقل والله سبحانه اعلم (ولنرسم) بعد هذا الكلام صورة الجغرافيا كما رسمها صاحب كتاب رجار ثمّ ناخذ فى تفصيل الكلام عليها الى آخره

(1) Man. A. غير. Man. C. عمّ.

Digitized by Google

تفصيل الكلام على هذه الجغرافيا

وهو على نوعين مفصّل ومجمل فالمفصّل هو الكلام فى بلدان هذا المعمور وجباله وبحاره وانهاره واحدا واحدا وسياتى فى الفصل بعد هذا واما المجمل فالكلام فى انقسام المعمور بالاقاليم السبعة وذكر عروضها وساعات نهارها وهو الذى تضمنه هذا الفصل فناخذ فى بيانه وقد تقدّم لنا انّ الارض طافية على الماء العنصرىّ كالغبة فانكشف كذلك بعضها بحكمة الله فى العمران والتكوين العنصرىّ فيقال ان هذا المنكشف هو النصف من سطح الارض فالمعمور منه ربعه والباقى خراب وقيل المعمور سدسه فقط فالخلاء من هذا المنكشف فى جهتى الجنوب والشمال والعمران بينهما متّصل من الغرب الى الشرق وليس بينه وبين البحر من الجهتين خلاء قالوا وفيه خطّ وهمىّ يمرّ من المغرب الى المشرق مسامتا لدايرة معدل النهار حيث يكون قطبا الفلك على الافق هذا (1) اول العمران الى ما بعده من الشمال وقال بطليموس بل بعده فى جهة الجنوب عمران وقدره بعرض البلد كما ياتى وعند اسحق بن الحسن الخازنى ان وراء الاقليم السابع عمرانا اخر وقدّره بعرض بلده كما نذكر وهو من ايّة

(1) Man. B. هو.

هذه الصناعة (ثم) ان الحكماء قديما قسموا هذا المعمور فى
جهة الشمال بالاقاليم المسبعة بخطوط وهميّة آخذة من المغرب
الى المشرق وعروضها مختلفة عندهم كما ياتى تفصيله
فالاقليم الاول منها مارّ مع خطّ الاستواء من جهة شماليه
وليس فى جنوبه الّا تلك العمارة التى اشار اليها بطليموس وبعدها
القفار والرمال الى دايرة الماء المسمّاة بالبحر المحيط ويليه من
جهة شماليه الاقليم الثانى كذلك ثم الثالث ثم الرابع والخامس
والسادس والسابع وهو آخر العمران فى جهة الشمال وليس
وراءه الّا الخلاء والقفار الى البحر المحيط ايضا لانّ الخلاء فى
جهة الجنوب اكثر منه فى جهة الشمال بكثير (وامّا عروض)
هذه الاقاليم وساعات نهارها فاعلم ان قطبى الفلك
يكونان فى خطّ الاستواء على الافق من غربه الى شرقه
والشمس تسامت رؤس اهله فاذا بعد العمران الى جهة
الشمال ارتفع القطب الشمالىّ قليلا وانخفض الجنوبىّ مثله
وبعدت الشمس عن دايرة معدل النهار الى سمته بمثل ذلك
وصارت هذه الابعاد الثلاثة متساوية يسمّى كل واحد منها
عرض البلد كما هو معروف عند اهل المواقيت وقد اختلف
الناس فى مقدار هذه العروض ومقدارها فى الاقاليم فالذى
عند بطليموس ان عرض المعمور كله سبع وسبعون درجة
ونصف فعرض المعمور خلف خطّ الاستواء الى الجنوب منها

Digitized by Google

احدى عشر درجة وستّ وستّون درجة ونصف هى عرض الاقاليم الشمالية الى آخرها فعرض الاقليم الاول منها عنده ستّ عشر درجة والثانى عشرون والثالث سبع وعشرون والرابع ثلاث وثلاثون والخامس ثمان وثلاثون درجة والسادس ثلاث واربعون والسابع ثمان واربعون (ثم) قدّر الدرجة فى الفلك بستّة وستّين ميلا وثلثى ميل من مسافة الارض فيكون اميال الاقليم الاول ما بين الجنوب والشمال الف ميل وسبعة وستون ميلا واميال الاقليم الثانى معه الفا ميل وثلثماية ميل وثلاثة وثلاثون ميلا واميال الثالث معهما الفا ميل وسبعماية وتسعين والرابع معها الفين وماية وخمسة وثمانين والخامس الفين وخمسماية وعشرين والسادس الفين وثمانماية واربعين والسابع ثلاثة آلاف وماية وخمسين (ثمّ) انّ ازمنة الليل والنهار تتفاوت فى هذه الاقاليم بسبب ميل الشمس عن دايرة معدل النهار وارتفاع القطب الشمالىّ عن آفاقها فيتفاوت قوس النهار او الليل لذلك وينتهى اطول الليل والنهار فى آخر الاقليم الاول عند حلول الشمس براءس الجدى وبراءس السرطان للنهار كل واحد منهما عند بطليموس الى اثنى عشرة ساعة ونصف وينتهيان فى آخر الاقليم الثانى الى ثلاث عشرة ساعة وفى آخر الاقليم الثالث الى ثلاث عشرة ساعة ونصف وفى آخر الرابع الى اربع عشرة

Digitized by Google

ساعة وفى آخر الخامس بزيادة نصف ساعة وفى آخر السادس الى خمس عشرة ساعة وفى آخر السابع بزيادة نصف ساعة ويبقى للاقصر من النهار والليل ما يبقى بعد هذه الاعداد (1) من جملة اربعة وعشرين من الساعات الزمانيّة لمجموع الليل والنهار وهو دورة الفلك الكاملة فيكون تفاوت هذه الاقاليم فى الاطول من ليلها ونهارها بنصف ساعة لكل اقليم تزيد من اوله فى ناحية الجنوب الى آخره فى ناحية الشمال موزّعة على اجزاء هذا البعد وعند اسحق بن الحسن الخازنى ان عرض المعمور ان الذى وراء خطّ الاستواء ستّ عشر درجة وخمسة وعشرون دقيقة واطول ليله ونهاره ثلاث عشر ساعة وعرض الاقليم الاول وساعاته مثل الذى وراء خطّ الاستواء وعرض الاقليم الثانى اربع وعشرون درجة وساعاته عند آخره ثلاث عشرة ساعة ونصف وعرض الثالث ثلاثون درجة وساعاته اربع عشرة ساعة وعرض الرابع ستّة وثلاثون درجة وساعاته اربع عشر ساعة ونصف وعرض الخامس احدى واربعون درجة وساعاته خمس عشرة ساعة وعرض السادس خمس واربعون درجة وساعاته خمس عشر ساعة ونصف وعرض السابع ثمان واربعون درجة ونصف وساعاته ستّ عشرة ساعة ثم ينتهى عرض العمران وراء

(1) Man. C. et D. بعد الثلاثة عشر ونصف.

Digitized by Google

السابع من عند آخره الى ثلاث وستّين درجة وساعاته الى
عشرين ساعة وعند غير اسحق الخازنى من ايمّة هذا الشاءن
ان عرض الذى وراء خطّ الاستواء ستّ عشر درجة وسبع
وعشرون دقيقة وعرض الاقليم الاول عشرون درجة وخمس عشر
دقيقة والثانى سبع وعشرون درجة وثلاث عشرة دقيقة والثالث
ثلاث وثلاثون درجة وعشرون دقيقة والرابع ثمان وثلاثون
درجة ونصف درجة والخامس ثلاث واربعون درجة والسادس
سبع واربعون درجة وثلاث وخمسون دقيقة وقيل فيه ستّ
واربعون درجة وخمسون دقيقة والسابع احدى وخمسون
درجة وثلاث وخمسون دقيقة والعمران وراء السابع سبع
وسبعون درجة وعند ابى جعفر الخازنى من ايمّتهم ايضا ان
عرض الاقليم الاول من درجة الى عشرين وثلاث عشرة
دقيقة والثانى الى سبع وعشرين وثلاث عشرة دقيقة والثالث
الى ثلاث وثلاثين وتسع وثلاثين دقيقة والرابع الى ثمان
وثلاثين وثلاث وعشرين دقيقة والخامس الى اثنين واربعين
وثمان وخمسين دقيقة والسادس الى سبع واربعين ودقيقتين
والسابع الى خمسين وخمس واربعين دقيقة هذا ما حضرنى
من اختلافهم فى العروض والساعات والاميال لهذه الاقاليم
والله خلق كلّ شئ فقدّره تقديرا (فصل) والمتكلّمون على
هذه الجغرافيا قسموا كل واحد من هذه الاقاليم السبعة فى

Digitized by Google

طوله من المغرب الى المشرق بعشرة اجزاء متساوية ويذكرون ما اشتمل عليه كلّ جزء منها من البلدان والامصار والجبال والانهار والمسافات بينها فى المسالك ونحن الآن نوجز القول فى ذلك باختصار ونذكر مشاهير البلدان والانهار والبحر فى كل جزء منها ونحاذى (1) بذلك ما وقع فى كتاب نزهة المشتاق الذى الّفه العلوىّ الادريسىّ الحمودى لملك صقلية من الافرنج وهو رجار بن رجار عند ما كان نازلا عليه بصقلية بعد خروج سلفه عن امارة مالقة وكان تاليفه للكتاب فى منتصف الماية السادسة وجمع له كتب جمّة للمسعودى وابن خرداذبه والحوقلى والعذرى واسحق المنجم وبطليموس وغيرهم ونبداء منها بالاقليم الاول الى آخرها

الاقليم الاول

وفيه من جهة غربيه الجزاير الخالدات التى منها بداء بطليموس باخذ اطوال البلاد وليست فى بسيط الاقليم وانّما هى فى البحر المحيط جزر متكثّرة اكبرها واشهرها ثلاثة ويقال انها معمورة وقد بلغنا ان سفاين من الافرنج مرّت بها فى اواسط هذه الماية وقاتلوهم فغنموا منهم وسبوا وباعوا بعض

(1) Man. A. نحزى. B. نجازى.

Digitized by Google

اسراهم بسواحل المغرب الاقصى وصاروا الى خدمة السلطان
فلما تعلّموا اللسان العربى اخبروا عن حال جزيرتهم وانهم
يحتفرون الارض للزراعة بالقرون وان الحديد مفقود بارضهم
وعيشهم من الشعير وماشيتهم المعز وقتالهم بالحجارة يلوحونها (1)
الى خلف وعبادتهم السجود للشمس اذا طلعت ولا يعرفون
دينا ولم تبلغهم دعوة ولا يوقف على مكان هذه الجزاير الا
بالعثور لا بالقصد اليها لانّ سفر السفن فى البحر انما هو
بالرياح ومعرفة جهات مهابّها والى اين توصل اذا مرّت
على الاستقامة من البلاد التى فى ممرّ ذلك المهبّ واذا
اختلف المهبّ وعلم حيث يوصل على الاستقامة حوذى به
القلع محاذاة تحمل السفينة بها على قوانين فى ذلك
محصّلة عند النواتية والملّاحين الذين هم روساء السفر فى
البحر والبلاد التى حفافى البحر الرومى وفى عدوتيه مكتوبة
كلها فى صحيفة على شكل ما هى عليه فى الوجود وفى
وضعها فى سواحل البحر على ترتيبها ومهابّ الرياح
وممّراتها على اختلافها مرسوم معها فى تلك الصحيفة
ويسمونها الكنباص (2) وعليها يعتمدون فى اسفارهم وهذا كلّه
مفقود فى البحر المحيط فلذلك لاتلجج فيه السفن لانّها
ان غابت عن مرائى السواحل فقلّ ان تهتدى الى الرجوع

(1) Man. D. يرمونها.

(2) Man. A. الكتباص.

Digitized by Google

اليها مع ما ينعقد فى جوّ هذا البحر وعلى صفح مايه (1) من
الابخرة المانعة للسفن فى مسيرها وهى لبعدها لا تدركها
اضواء الشمس المنعكسة من سطح الارض فتحلّلها (2) فلذلك
عسر الاهتداء اليها وصعب الوقوف على خبرها (واما الجزء
الاول) من هذا الاقليم ففيه مصبّ النيل الآتى من مبدائه
عند جبل القمر كما ذكرناه ويسمى نيل السودان ويذهب
الى البحر المحيط فيصبّ فيه عند جزيرة اوليل (3) وعلى هذا
النيل مدينة سلى وتكرور وغانة وكلها لهذا العهد فى ملكة اهل
مالى من امم السودان والى بلاده يسافر تجّار المغرب الاقصى
وبالقرب منها من شماليها بلاد لمتونة وساير طوايف الملثمين
مفاوز يجولون فيها وفى جنوبى هذا النيل قوم من السودان يقال
لهم لملم وهم كفّار ويكتبون فى وجوههم واصداغهم واهل
غانة والتكرور يغيرون عليهم ويسبونهم ويبيعونهم للتجّار
فيجلبونهم الى المغرب ومنهم عامّة رقيقهم وليس وراءهم فى
الجنوب عمران يعتبر الّا اناسى اقرب الى الحيوان العجم
من الناطق يسكنون الغياض والكهوف وياكلون العشب
والحبوب غير مهيئة (4) وربّما ياكل بعضهم بعضا وليسوا فى
اعداد البشر وفواكه بلاد السودان كلّها من قصور صحراء

(1) Man. B. سفح.

(2) Man. C. فتخللها.

(3) Man. C. اوليك.

(4) Man. A. مهيات.

Digitized by Google

المغرب مثل توات وتيكورارين ووارکلان (1) وكان فى
غانة فيما يقال ملك ودولة لقوم من العلوية يعرفون ببنى
صالح وقال صاحب كتاب رجار انه صالح بن عبد الله
بن حسن بن الحسن ولا يعرف صالح هذا فى ولد عبد
الله بن حسن وقد ذهبت هذه الدولة لهذا العهد وصارت
غانة لسلطان مالى وفى شرقى هذه البلاد فى الجزء الثالث
من هذا الاقليم بلد كوكو على نهر ينبع من بعض الجبال
هنالك ويمرّ مغربا فيغوص فى رمال الجزء الثانى وكان
ملك كوكو قايما بنفسه ثم استولى عليها سلطان مالى
واصبحت فى ملكته وخربت لهذا العهد من اجل فتنة
وقعت هنالك نذكرها عند ذكر دولة اهل مالى فى محلّها
من تاريخ البربر وفى جنوبى بلاد كوكو بلاد كانم من
امم السودان وبعدهم ونكارة (2) على ضفّة النيل من شماليه وفى
شرقى بلاد ونكارة وكانم بلاد زغاى (3) وتاجرة المتّصلة بارض
النوبة فى الجزء الرابع من هذا الاقليم (وفيها) يمرّ نيل مصر
ذاهبا من مبدائه عند خطّ الاستواء الى البحر الرومى فى
الشمالى ومخرج هذا النيل من جبل القمر الذى فوق خطّ
الاستواء بستّ عشرة درجة واختلفوا فى ضبط هذه اللفظة

(1) Man A. مراركلان. B. قراركلان.

(2) Man. C. et D. ونقارة.

(3) Man. C. زغانة, D. زغاوة.

Digitized by Google

PROLÉGOMÈNES d'Ebn-Khaldoun.

فبعضهم بفتح القاف والميم نسبة الى قمر السماء لشدّة بياضه وكثرة ضوئه وفى كتاب المشترك لياقوت بضمّ القاف وسكون الميم نسبة الى قوم من اهل الهند وكذا ضبطه ابن سعيد فيخرج من هذا الجبل عشر عيون يجتمع كل خمسة منها فى بحيرة وبينها ستّة اميال وتخرج من كل واحدة من البحيرتين ثلاثة انهار تجتمع كلها فى بطيحة واحدة فى اسفلها جبل معترض يشقّ البحيرة من ناحية الشمال وينقسم ماؤها بقسمين فيمرّ الغربى منه الى بلاد السودان مغربا حتّى يصبّ فى البحر المحيط ويخرج الشرقى منه ذاهبا الى الشمال فى بلاد الحبشة والنوبة وفيما بينهما وينقسم فى اعلا ارض مصر فيصبّ ثلاثه من جداوله فى البحر الرومى عند الاسكندرية ورشيد ودمياط ويصبّ واحد فى بحيرة ملحة قبل ان يتّصل بالبحر وفى وسط هذا الاقليم الاول وعلى هذا النيل بلاد النوبة والحبشة وبعض بلاد الواحات الى اسوان وحاضرة بلاد النوبة مدينة دنقلة وهى فى غربى هذا النيل وبعدها علوة (1) وبلاق (2) وبعدهما جبل الجنادل على ستّة مراحل من بلاق فى الشمال وهو جبل عالى من جهة مصر منخفض من جهة النوبة فينفذ فيه النيل ويصبّ فى مهوى بعيد صبّا مهولا فلا يمكن ان تسلكه

(1) Man. A. et B. غلو.

(2) Man. A. et B. يلاق.

Digitized by Google

المراكب بل يحول الوسق من مراكب السودان فيحمل
على الظهر الى بلاد اسوان قاعدة الصعيد وكذا وسق مراكب
الصعيد الى فوق الجنادل وبين الجنادل واسوان ثنتى
عشر مرحلة والواحات فى غربيها عدوة النيل وهى الآن
خراب وبها آثار العمارة القديمة (وفى) وسط هذا الاقليم فى
الجزء الخامس منه بلاد الحبشة على واد ياتى من وراء خطّ
الاستواء ويمرّ قبالة مقدشو التى فى جنوب البحر الهندى
ذاهبا الى ارض النوبة فيصبّ هنالك فى النيل الهابط الى
مصر وقد وهم فيه كثير من الناس وزعموا انه من نيل القمر
وبطليموس ذكره فى كتاب الجعرافيا وذكر انه ليس من
هذا النيل والى وسط هذا الاقليم من هذا الجزء الخامس
ينتهى بحر الهند الذى يدخل من ناحية الصين ويغمر
عامّة هذا الاقليم الى هذا الجزء الخامس فلا يبقى فيه عمران
الّا ما كان فى الجزاير التى فى داخله وهى متعدّدة يقال
تنتهى الى الف جزيرة او فيما على سواحله الجنوبيّة وهى
آخر المعمور فى الجنوب وفيما على سواحله من جهة
الشمال وليس منها فى هذا الاقليم الاول الّا طرف من بلاد
الصين فى جهة المشرق وبلاد اليمن فى الجزء السادس من
هذا الاقليم فيما بين البحرين الهابطين من هذا البحر
الهندى الى جهة الشمال وهما بحر القلزم وبحر فارس وفيها

Digitized by Google

بينهما جزيرة العرب وتشتمل على بلاد اليمن وبلاد الشحر
فى شرقيها على ساحل هذا البحر الهندى وعلى بلاد الحجاز
واليمامة وما يليهما كما نذكر فى الاقليم الثانى وما بعده
فامّا الذى على ساحل هذا البحر غربيه فبلد زالع من
اطراف الحبشة ومجالات البجّة فى شمالى الحبشة ما
بين جبل العلاقى الذى فى اعالى الصعيد وبين بحر القلزم
الهابط من البحر الهندى الى ارض مصر وتحت بلد زالع
من جهة الشمال فى هذا البحر خليج باب المندب يضيق
البحر الهابط هنالك بمزاحمة جبل المندب الهائل (1) فى
وسط البحر الهندى ممتدّا مع ساحل اليمن الغربى من
الجنوب الى الشمال فى طول اثنى عشر ميلا فيضيق البحر
بسبب ذلك الى ان يصير فى عرض ثلاثة اميال او نحوها
ويسمى باب المندب وعليه تمرّ مراكب اليمن الى ساحل
السويس قريبا من مصر وتحت باب المندب جزيرة سواكن
ودهلك وقبالته من غربيه مجالات البجة من امم السودان
كما ذكرنا ومن شرقيه تهايم اليمن على ساحله ومنها بلد
حلى بن يعقوب وفى جهة الجنوب من بلد زالع وعلى
ساحل هذا البحر من غربيه قرى بربرا يتلو بعضها بعضا
وتنعطف مع جنوبيه الى آخر الجزء السادس ويليها هنالك

(1) Man. B. المايل.

Digitized by Google

من جهة شرقها بلاد الزنج وبعدها مدينة مقدشو وهى مدينة مستبحرة العمارة بدوّية الاحوال كثيرة التجّار على ساحل البحر الهندى من جنوبيه ثم يليها شرقا بلاد سفالة (1) على ساحله الجنوبى فى الجزء السابع من هذا الاقليم وفى شرقى بلاد سفالة من ساحله الجنوبى بلاد الواق واق متّصلة الى آخر الجزء العاشر من هذا الاقليم وعند مدخل هذا البحر من البحر المحيط (وامّا) جزاير هذا البحر فكثيرة ومن اعظمها جزيرة سرنديب مدوّرة الشكل وبها الجبل المشهور يقال ليس فى الارض اعلا منه وهى قبالة سفالة ثم جزيرة القمر وهى جزيرة مستطيلة تبداء من قبالة ارض سفالة وتذهب الى الشرق منحرفة بكثير الى الشمال الى ان تقرب من سواحل اعالى الصين وتحتقّ بها فى هذا البحر من جنوبيها جزاير الواق واق ومن شرقيها جزاير السيلا الى جزاير اخرى فى هذا البحر كثيرة العدد وفيها انواع الطيوب والافاوية (2) وفيما يقال معادن الذهب والزمرد وعامّة اهلها على دين المجوسيّة وفيهم ملوك متعدّدون وبهذه الجزاير من احوال العمران عجايب ذكرها اهل الجعرافيا وعلى الضفّة الشمالية من هذا البحر وفى الجزء السادس من هذا الاقليم بلاد اليمن كلها فمن جهة بحر القلزم بلد زبيد والمهجم

(1) Man. A. et B. سافلة.

(2) Man. A. B. C. الافاوة.

Digitized by Google

وتهامة اليمن وبعدها بلد صعدة مقرّ الايمّة الزيديّة وهى بعيدة عن البحر الجنوبى وعن البحر الشرقى وفيما بعد ذلك مدينة عدن وفى شمالها صنعا وبعدهما الى الشرق ارض الاحقاف وظفار وبعدها ارض حضرموت ثم بلاد الشحر ما بين البحر الجنوبى وبحر فارس وهذه القطعة من الجزء السادس هى التى انكشف عنها البحر من اجزاء هذا الاقليم الوسطىّ وينكشف بعدها قليل من التاسع واكثر منه فى العاشر فيه اعالى بلاد الصين ومن مدنه الشهيرة مدينة خانكو وقبالتها من جهة المشرق جزاير السيلا وقد تقدّم ذكرها وهذا آخر الكلام فى الاقليم الاول

الاقليم الثانى

وهو متّصل بالاول من جهة الشمال وقبالة المغرب منه فى البحر المحيط جزيرتان من الجزاير الخالدات التى مرّ ذكرها فى الجزء الاول والثانى منه فى الجانب الاعلا منهما ارض قمنورية وبعدها فى جهة المشرق اعالى ارض غانة ثم مجالات زغاى (1) من السودان وفى الجانب الاسفل منها صحراء نيسرة (2) متّصلة من الغرب الى الشرق ذات مفاوز

(1) Man. C. زغاوة.

(2) Man. C. نيسر.

Digitized by Google

يسلك فيها التجّار ما بين بلاد المغرب وبلاد السودان
وفيها مجالات الملثمين من صنهاجة وهم شعوب كثيرة ما
بين كدالة ولمتونة ومسوفة (1) ولمطة ووتريكة (2) وعلى
سمت هذه المفاوز شرقا ارض فزان (3) ثمّ مجالات ازكار
من قبايل البربر ذاهبة الى اعالى الجزء الثالث على سمتها
فى الشرق وبعدها من هذا الجزء بلاد كوار من امم السودان
ثم قطعة من ارض التاجوين وفى اسافل هذا الجزء الثالث
وهى جهة الشمال منه بقية ودان (4) وعلى سمتها شرقا ارض
سنترية وتسمى الواحات الداخلة وفى الجزء الرابع من
اعلاه بقيّة ارض التاجوين ثم تعترض فى وسط هذا الجزء
بلاد الصعيد حفافى النيل الذاهب من مبدائه فى الاقليم
الاول الى مصبّه فى البحر فيمرّ فى هذا الجزء بين الجبلين
الحاجزين وهما جبل الواحات من غربيه وجبل المقطم من
شرقيه وعليه من اعلاه بلد اسنا وارمنت وتتّصل كذلك
حفافيه الى اسيوط وقوص ثم الى صول ويفترق النيل هنالك
شعبتين ينتهى الايمن منهما فى هذا الجزء عند اللاهون
والايسر عند دلاص وفيها بينهما اعالى ديار مصر وفى الشرق
من جبل المقطم صحارى عيذاب وذاهبة فى الجزء الخامس

(1) Man. A et B. مسوقة.

(2) Man. C. وزيكة.

(3) Man. A. B. C. قران.

(4) Man. A. السودان.

Digitized by Google

الى ان تنتهى الى ارض بحر السويس وهو بحر القلزم
الهابط من البحر الهندى فى الجنوب الى جهة الشمال
وفى عدوته الشرقية من هذا الجزء ارض الحجاز من جبل
يلملم الى بلد يثرب وفى وسط الحجاز بلد مكّة شرفها الله
تعالى وفى ساحلها جدّة مقابل بلد عيذاب فى العدوة
الغربيّة من هذا البحر وفى الجزء السادس من غربيه بلاد
نجد اعلاها فى الجنوب جرش وتبالة الى عكاظ من الشمال
وتحت بلاد نجد بقيّة ارض الحجاز وعلى سمتها فى الشرق
بلاد نجران وجند وتحتهما ارض اليمامة وعلى سمت نجران
فى الشرق ارض سبا ومارب ثم ارض الشحر وتنتهى الى
بحر فارس وهو البحر الثانى الهابط من البحر الهندى الى
الشمال كما مرّ ويذهب فى هذا الجزء بانحراف الى الغرب
فيغمر ما بين شرقيه وجوفيه قطعة مثلّثة عليها من اعلاه
مدينة قلهات وهى ساحل الشحر ثم تحتها على ساحله بلاد
عمان ثم بلاد البحرين وهجر منها فى آخر الجزء وفى الجزء
السابع ثم فى الاعلا من غربيه قطعة من بحر فارس تتّصل
بالقطعة الاخرى فى السادس ويغمر بحر الهند جانبه الاعلا
كلّه وعليه هنالك بلاد السند الى بلاد مكران منه وتقابلها
بلاد الطوبران وهى من السند ايضا فيتّصل السند كلّه فى
الجانب الغربى من هذا الجزء وتحول المفاوز بينه وبين

Digitized by Google

ارض الهند ويمرّ فيه نهره الآتى من ناحية بلاد الهند ويصبّ
فى البحر الهندى فى الجنوب واوّل بلاد الهند على ساحل
البحر الهندى وفى سمتها شرقا بلاد بلهرا (1) وتحتها
الملتان بلد الصنم العظيم عندهم ثم اسفل من الهند اعالى
بلاد سجستان وفى الجزء الثامن من غربيه بقيّة بلاد بَلَهْرا
من الهند وعلى سمتها شرقا بلاد القندهار ثم بلاد منيبار فى
الجانب الاعلى على ساحل البحر الهندى وتحتها من
الجانب الاسفل ارض كابل وبعدهما شرقا الى البحر المحيط
بلاد القنوج وما بين قشمير الداخلة وقشمير الخارجة عند
آخر الاقليم وفى الجزء التاسع ثم فى الجانب الغربى منه
بلاد الهند الاقصى وتتّصل فيه الى الجانب الشرقى فتتّصل
من اعلاه الى العاشر وتبقى فى اسفل ذلك الجانب
قطعة من بلاد الصين فيها مدينة خيفون (2) ثم تتّصل بلاد
الصين فى الجزء العاشر كله الى البحر المحيط

(1) Man. A. بكهرا.

(2) Man. A. خيغون.

Digitized by Google

الاقليم الثالث

هو متّصل بالثانى من جهة الشمال ففى الجزء الاول وعلى نحو الثلث من اعلاه جبل درن معترض فيه من غربيه عند البحر المحيط الى الشرق عند آخره ويسكن هذا الجبل من البربر امم لا يحصيهم الّا خالقهم حسبما ياتى ذكره وفى القطعة التى بين هذا الجبل والاقليم الثانى وعلى البحر المحيط منها رباط ماسة وتتّصل به شرقا بلاد سوس ونول (1) وعلى سمتها شرقا بلاد درعة ثم بلاد سجلماسة ثم قطعة من صحراء نيسر المفازة التى ذكرناها فى الاقليم الثانى وهذا الجبل مطلّ على هذه البلاد كلّها فى هذا الجزء وهو قليل الثنايا والمسالك فى هذه الناحية الغربية الى ان يسامت وادى ملوية فتكثر ثناياه ومسالكه الى ان ينتهى وفى هذه الناحية منه امم المصامدة فسكسيوة (2) عند البحر المحيط ثم هنانة (3) ثم تينملل (4) ثم كدميوة ثم هسكورة وهم آخر المصامدة فيه ثم قبايل صناكة وهم صنهاجة ثم فى آخر هذا الجزء منه بعض قبايل زناتة ويتّصل به هنالك من جوفيه جبل اوراس وهو جبل كتامة وبعد ذلك امم اخرى من البرابرة نذكرهم فى اماكنهم ثم ان جبل درن هذا من جهة

(1) Lisez نون.
(2) Man. A. فسكيوة.
(3) Man. C. هنتانة.
(4) *Ibid.* نيتهال.

Digitized by Google

غربيه مطلّ على بلاد المغرب الاقصى وهى فى جوفيه ففى
الناحية الجنوبية منها بلاد مراكش واغمات وتادلا وعلى البحر
المحيط منها رباط اسفى ومدينة سلا وفى الشرق عن بلاد
مراكش بلاد فاس ومكناسة وتازا وقصر كتامة وهذه هى التى
تسمى المغرب الاقصى فى عرف اهلها وعلى ساحل البحر
المحيط منها بلد ارصيلا والعرايش وفى سمت هذه البلاد
شرقا بلاد المغرب الاوسط وقاعدتها تلمسان وفى سواحلها
على البحر الرومى بلد هنين ووهران والجزاير لان هذا البحر
الرومى يخرج من البحر المحيط من خليج طنجة فى
الناحية الغربية من الجزء الرابع ويذهب مشرقا فينتهى الى
بلاد الشام فاذا خرج من الخليج المتضايق غير بعيد انفسح
جنوبا وشمالا فدخل فى الاقليم الثالث والخامس فلهذا كان
على ساحله من هذا الاقليم الثالث الكثير من بلاده تبتدى
من طنجة الى القصر الصغير ثم سبتة ثم بادس ثم غساسة ثم
يتّصل ببلد الجزاير من شرقيها بلد بجاية فى ساحل البحر
ثم قسطنطينة (1) فى الشرق عنها وفى آخر الجزء الاول وعلى
مرحلة من هذا البحر وفى جنوبىّ هذه البلاد مرتفعا الى
جنوب المغرب الاوسط بلد شير بجبل تيطرى ثم بلد المسيلة
ثم الزاب وقاعدتها بسكرة تحت جبل اوراس المتّصل بدرن

(1) Man. A. قسطينة. Man. B. قسنطينة. Man. C. قسطنطينية.

Digitized by Google

كما مرّ وذلك عند آخر هذا الجزء من جهة الشرق والجزء الثانى من هذا الاقليم على هيئة الجزء الاول يمرّ جبل درن على نحو الثلث من جنوبه ذاهبا فيه من غرب الى شرق فيقسمه بقطعتين ويغمر البحر الرومى مسافة من شماله فالقطعة الجنوبيّة عن جبل درن غربها كله مفاوز وفى الشرق منها بلد غدامس وفى سمتها شرقا ارض ودان التى بقيّتها بالاقليم الثانى كما مرّ والقطعة الجوفيّة عن جبل درن ما بينه وبين البحر الرومى فالغربى منها جبل اوراس وتبسة والاربس وعلى ساحل هذا البحر بلد بونة ثم فى سمت هذه البلاد شرقا بلاد افريقية فعلى ساحل البحر مدينة تونس ثم سوسة ثم المهدية وفى جنوب هذه البلاد تحت جبل درن بلاد الجريد توزر وقفصة ونفراوة وفيما بينها وبين السواحل مدينة القيروان وجبل وشلات وسُبَيطلة وعلى سمت هذه البلاد كلها شرقا بلاد طرابلس على البحر الرومى وبازايها بالجنوب جبال دمر ومقرة من قبايل هوارة متّصلة بجبل درن وفى مقابله غدامس التى نذكرها فى آخر القطعة الجنوبيّة وآخر هذا الجزء فى الشمرق سويقة (1) ابن مشكود على البحر وفى جنوبها مجالات العرب فى ارض ودان والجزء الثالث من هذا الاقليم يمرّ فيه ايضا جبل درن الّا انه ينعطف عند آخره

(1) Man. A. سويقية.

Digitized by Google

الى الشمال فيذهب على سمته الى ان يدخل فى البحر الرومى
ويسمّى هناك طرف اوثان والبحر الرومى من شماليه غمر
طايفة منه الى ان تضايق ما بينه وبين جبل درن فالذى
وراء الجبل فى الجنوب وفى الغرب منه بقيّة ارض ودان
ومجالات العرب فيها ثم زويلة ابن خطاب ثم رمال وقفار
الى آخر الجزء فى الشرق وفيما بين الجبل والبحر فى
الغرب منه بلد سرت على البحر ثم خلا وقفار تجول فيها
العرب ثم اجدابية ثم برقة عند منعطف الجبل ثم طليمثة (1)
على البحر هنالك ثم فى شرق المنعطف من الجبل مجالات
هيب ورواحة الى آخر الجزء وفى الجزء الرابع من هذا
الاقليم وفى الاعلا من غربه صحارى برنيق واسفل منها بلاد
هيب ورواحة ثم يدخل البحر الرومى فى هذا الجزء فيغمر طايفة
منه ذاهبا الى الجنوب حتى يزاحم طرفه الاعلى ويبقى بينه
وبين آخر الجزء قفار يجول فيها العرب وعلى سمتها شرقا
بلاد الفيوم وهى على مصبّ احدى الشعبين من النيل
الذى يمرّ على اللاهون من بلد الصعيد فى الجزء الرابع من
الاقليم الثالث فيصبّ فى بحيرة الفيوم وعلى سمته شرقا
ارض مصر ومدينتها الشهيرة على الشعب الثانى الذى يمرّ
بدلاص عند بلاد الصعيد عند آخر الجزء الثانى ويفترق هذا

(1) Man. C. et D. طلمسة.

Digitized by Google

الشعب افتراقة ثانية من تحت مصر على شعبين اخرين
من شطنوق (1) وزفتة وينقسم الايمن منهما من تروط (2) بشعبين
اخرين ويصبّ جميعهما فى البحر الرومى فعلى مصبّ
الغربى من هذه الشعب بلاد اسكندرية وعلى مصبّ الوسط
بلد رشيد وعلى مصبّ الشرقى بلد دمياط وبين مصر
والقاهرة وبين هذه السواحل البحرية اسافل الديار المصرية
كلّها محشوة عمرانا وفلحا وفى الجزء الخامس من هذا الاقليم
بلاد الشام واكثرها على ما اصف وذلك ان بحر القلزم
ينتهى من الجنوب وفى المغرب منه عند السويس لانّه فى
ممرّه من البحر الهندى الى الشمال ينعطف آخر الى جهة
المغرب فتكون قطعة من انعطافه فى هذا الجزء طويلة تنتهى
فى الطرف الغربى منه الى السويس وعلى هذه القطعة بعد
السويس جبل فاران ثم جبل الطور ثم ايلة بلد مدين ثم
الحورا فى آخره ومن هناك ينعطف ساحله الى الجنوب
فى ارض الحجاز كما مرّ فى الاقليم الثانى فى الجزء الخامس
منه وفى الناحية الشمالية من هذا الجزء قطعة من البحر الرومى
غمرت كثيرا من غربيه عليها الفرما والعريش وقارب طرفها
بلد القلزم فتضايق ما بينهما من هنالك وبقى شبه الباب
مفضيا الى ارض الشام وفى غربى هذا الباب فحص التيه ارض

(1) Man. A. et B. سطنوق.
(2) Lisez ترنوط.

Digitized by Google

جرداء لا تنبت كانت مجالا لبنى اسرائيل بعد خروجهم من
مصر وقبل دخولهم الى الشام اربعين سنة كما قصّه القران
وفى هذه القطعة من البحر الرومى فى هذا الجزء طايفة من
جزيرة قبرص وبقيتها فى الاقليم الرابع كما نذكره وعلى ساحل
هذه القطعة عند الطرف المضايق لبحر السويس بلد العريش
وهو آخر الديار المصريّة وعسقلان وبينهما طرف هذا البحر
ثم تنحطّ هذه القطعة فى انعطافها من هنالك الى الاقليم
الرابع عند طرابلس وعرقة وهنالك منتهى البحر الرومى
فى جهة الشرق على هذه القطعة اكثر السواحل الشامية (1)
ففى شرق عسقلان وبانحراف يسير عنها الى الشمال بلد
قيسارية ثم كذلك بلد عكا ثم صور ثم صيدا ثم عرقة ثم
ينعطف البحر الى الشمال فى الاقليم الرابع ويقابل هذه البلاد
الساحليّة من هذه القطعة فى هذا الجزء جبل عظيم يخرج
من ساحل ايلة من بحر القلزم ويذهب فى ناحية الشمال
منحرفا الى الشرق الى ان يتجاوز (2) هذا الجزء ويسمى
جبل اللكام وكانّه حاجز بين ارض مصر والشام ففى طرفه
عند ايلة العقبة التى يمرّ عليها الحاجّ من مصر الى مكّة
ثم بعدها فى ناحية الشمال مدفن الخليل عليه الصلاة
والسلام عند جبل الشراة يتّصل من عند جبل اللكام المذكور

(1) Man. B. et C. سواحل الشام.

(2) Man. A. et B. يجاوز.

Digitized by Google

من شمال العقبة ذاهبا على سمت الشرق ثم ينعطف قليلا
وفى شرقه هنالك بلد الحجر وديار ثمود وتيما ودومة الجندل
وهى اسافل الحجاز وفوقها جبل رضوى وحصون خيبر فى
جهة الجنوب عنها وفيما بين جبل الشراة وبحر القلزم
صحراء تبوك وفى شمالى جبل الشراة مدينة القدس عند جبل
اللكام ثم الاردن ثم طبرية وفى شرقها بلاد الغور الى ادرعات
وحوران وعلى سمتها شرقا دومة الجندل آخر هذا الجزء
وهى آخر الحجاز وعند منعطف جبل اللكام الى الشمال من
آخر هذا الجزء مدينة دمشق مقابلة صيدا وبيروت من
القطعة البحريّة وجبل اللكام يعترض بينهما وعلى سمت
دمشق فى الشرق مدينة بعلبك ثم مدينة حمص فى الجهة
الشماليّة آخر الجزء وعند منقطع جبل اللكام وفى الشرق عن
بعلبك وحمص بلد تدمر ومجالات البادية الى آخر الجزء
وفى الجزء السادس من اعلاه مجالات الاعراب تحت بلاد
نجد واليمامة ما بين جبل الغرج والضمان الى البحرين
وهجر على بحر فارس وفى اسافل هذا الجزء تحت المجالات
بلد الحيرة والقادسية ومغايص الفرات وفيما بعدها شرقا مدينة
البصرة وفى هذا الجزء ينتهى بحر فارس منه عبادان والابلّة
فى اسافل الجزء من شماله ويصبّ فيه عند عبادان نهر
دجلة بعد ان ينقسم بجداول كثيرة وتختلط به جداول اخر

Digitized by Google

من الفرات ثم تجتمع كلها عند عبادان وتصبّ فى بحر فارس وهذه القطعة من البحر متسعة فى اعلاه مضايقة لآخره فى شرقيه وضيّقة عند منتهاه مضايقة للحدّ الشمالى منه وعلى عدوتها الغربيّة اسافل البحرين وهجر والاحساء وفى غربيها الخطّ والضهان وبقيّة ارض اليهامة وعلى عدوته الشرقيّة سواحل فارس فمن اعلاها وهو من عند آخر الجزء من الشرق على طرف قد امتدّ من هذا البحر مشرقا ووراه على الجنوب فى هذا الجزء جبال القُفص من كرمان وتحت هرمز على الساحل بلد سيراف ونجيرم على ساحل هذا البحر وفى شرقيه الى آخر الجزء وتحت هرمز بلاد فارس مثل سابور ودرابجرد وفسا (1) واصطخر والشاهجان وشيراز وهى قاعدتها كلها وتحت بلاد فارس الى الشمال عند طرف البحر بلاد خورستان ومنها الاهواز وتستر وجندى سابور والسوس ورام هرمز وغيرها وارجان هى حدّ بين فارس وخورستان وفى شرقى بلاد خورستان جبل الاكراد متّصلة الى نواحى اصبهان وبها مساكنهم ومجالاتهم وراها فى ارض فارس وتسمى الزموم وفى الجزء السابع ثم فى اعلى منه من (2) الغرب بقيّة جبال القفص ويليها من الجنوب

(1) Man. A. et B. نسا.

(2) Man. B. فى.

Digitized by Google

PROLÉGOMÈNES d'Ebn-Khaldoun.

والشمال بلاد كرمان ومكران ومن مدنها الروذان (1) والشيرجان (2) وجيرفت وتردشير (3) والفهرج وتحت ارض كرمان الى الشمال بقيّة بلاد فارس الى حدود اصبهان ومدينة اصبهان فى طرف هذا الجزء ما بين غربه وشماله ثم فى الشرق عن عرض كرمان وبلاد فارس ارض سجستان فى الجنوب وارض كوهستان فى الشمال عنها ويتوسّط بين كرمان وفارس وبين سجستان وكوهستان فى وسط هذا الجزء المفازة العظمى القليلة المسالك لصعوبتها ومن مدن سجستان بست والطاق وامّا كوهستان فهى من بلاد خراسان ومن مشاهير بلادها سرخس وقوهستان آخر الجزء وفى الجزء الثامن من غربه وجنوبه مجالات الخلج من امم الترك متّصلة بارض سجستان من غربها وبارض كابل الهند من جنوبها وفي الشمال عن هذه المجالات جبل الغور وقاعدتها غزنة فرضة الهند وفى آخر الغور من الشمال بلد استراباذ ثم فى الشمال عنها الى آخر الجزء بلاد هراة اوسط خراسان وبها اسفراين وقاشان وبوشنج ومروالرود والطالقان والجوزجان وتنتهى خراسان هنالك الى نهر جيحون وعلى هذا النهر من بلاد خراسان فى غربيه مدينة بلخ وفى

(1) Man. B. السرودان.

(2) Man. C. الشرجان.

(3) Man. A. نردشيرن.

Digitized by Google

شرقيه مدينة الترمذ ومدينة بلخ كانت كرسى ملك الترك
وهذا النهر نهر جيحون مخرجه من بلاد وخان فى حدود
بدخشان مما يلى الهند ويخرج من جنوب هذا الجزء وعند
آخره من الشرق فينعطف عن قرب مغربا الى وسط الجزء
ويسمى هنالك نهر خربات (1) ثم ينعطف الى الشمال حتّى
يمرّ بخراسان ويذهب على سمته الى ان يصبّ فى بحيرة
خوارزم فى الاقليم الخامس كما نذكر ويمدّه عند انعطافه
فى وسط الجزء من الجنوب والشمال خمسة انهار عظيمة
من بلاد الجيل والوخش من شرقيه وانهار اخر من جبال
البتم من شرقه ايضا وجوفى الجيل حتى يتّسع ويعظم بما
لا كفاء له ومن هذه الانهار الخمسة الممدّة له نهر وخشاب
يخرج من بلاد التبت وهى بين الجنوب والشرق من هذا
الجزء فيمرّ مغربا بانحراف الى الشمال ويعترضه فى طريقه
جبل عظيم يمرّ فى وسط الجنوب فى هذا الجزء (2)
ويذهب مشرقا بانحراف الى الشمال الى ان يخرج الى
الجزء التاسع قريبا من شمال هذا الجزء فيحوز بلاد التبت
الى القطعة الشرقيّة الجنوبيّة من هذا الجزء ويحول بين
الترك وبين بلاد الجبل وليس فيه الّا مسلك واحد فى
وسط الشرق من هذا الجزء جعل فيه الفضل بن يحيى سدّا

(1) Man. C. خرباب.

(2) Man. B. النهر.

Digitized by Google

PROLEGOMÈNES d'Ebn-Khaldoun.

وبنى له بابا كسدّ ياجوج فاذا خرج نهر وخشاب من بلاد التبت واعترضه هذا الجبل فنفذ تحته فى مدى بعيد الى ان يمرّ ببلاد الوخش ويصبّ فى نهر جيحون عند حدود بلخ ثم يمرّ هابطا الى الترمذ فى الشمال الى بلاد الجوزجان وفى الشرق من بلاد الغور فيما بينه وبين نهر جيحون بلاد الباميان من خراسان وفى العدوة الشرقية هنالك من النهر بلاد الجيل واكثرها جبال وبلاد الوخش ويحدّها من جهة الشمال جبال البتم تخرج من طرف خراسان غربى نهر جيحون وتذهب مشرقة الى ان يتّصل طرفها بالجبل العظيم الذى خلفه بلاد التبت ويمرّ تحته نهر وخشاب كما قلناه فيتّصل به عند باب الفضل بن يحيى ويمرّ نهر جيحون بين هذه الجبال وانهار اخرى تصبّ فيه منها نهر بلاد الوخش يصبّ فيه من الشرق تحت الترمذ الى جهة الشمال ونهر بلخا يخرج من جبال البتم من مبدائه عند الجوزجان ويصبّ فيه من غربيه وعلى هذا النهر من غربيه بلد امُل من خراسان وفى شرقى النهر من هنالك ارض الصغد واشروسنة من بلاد الترك وفى شرقها ارض فرغانة ايضا الى آخر الجزء شرقا وكل بلاد الترك هذه تحوزها جبال البتم الى شماليها وفى الجزء التاسع من غربيه ارض التبت الى وسط الجزء وفى جنوبيها بلاد الهند وفى

Digitized by Google

شرقها بلاد الصين الى آخر الجزء وفى اسفل هذا الجزء
شمالا عن بلاد التبت بلاد الخزلخية (1) من الترك الى آخر
الجزء شمالا ويتّصل بها من غربها ارض فرغانة ومن شرقها
ارض البغرغر من الترك الى آخر الجزء شرقا وشمالا وفى
الجزء العاشر فى الجنوب منه جميعا بقيّة الصين واسافله
وفى الشمال بقيّة بلاد البغرغر ثم شرقا عنهم بلاد خرخير (2) من
الترك ايضا الى آخر الجزء شرقا وفى الشمال عن ارض
خرخير بلاد كيماك من الترك وقبالتهما فى البحر المحيط
جزيرة الياقوت فى وسط جبل مستدير لا منفذ منه اليها
ولا مسلك والصعود الى اعلاه من خارجه صعب فى الغاية
وبالجزيرة حيّات قتّالة وحصى من الياقوت كثير فيحتال
اهل تلك الناحية فى استخراجه بما يلهمهم الله اليه وهذه
البلاد فى الجزء التاسع والعاشر فيما وراء خراسان والجبل
كلها مجالات للترك امم لا تحصى وهم ظواعن رحّالة اهل
ابل وشاء وبقر وخيل للنتاج والركوب والاكل وطوايفهم
كثيرة لا يحصيهم الّا خالقهم وفيهم مسلمون مما يلى بلاد
النهر نهر جيحون يغزون الكفّار منهم الداينين بالمجوسية
فيبيعون رقيقهم لمن يليهم ويخرجون الى بلاد خراسان
والهند والعراق

(1) Man. B. et D. الخزلخية, C. الخزلجية (2) Lisez خرخيز.

الاقليم الرابع

يتّصل بالثالث من جهة الشمال والجزء الاول منه فى غربيه قطعة من البحر المحيط مستطيلة من اوله جنوبا الى آخره شمالا وعليها فى الجنوب مدينة طنجة ويخرج من هذه القطعة تحت طنجة من البحر المحيط البحر الرومى فى خليج متضايق بمقدار اثنى عشر ميلا بين طريف والجزيرة الخضراء شمالا وقصر المجاز وسبتة جنوبا ويذهب مشرقا الى ان ينتهى الى وسط الجزء الخامس من هذا الاقليم وينفسح فى ذهابه بتدريج الى ان يغمر الاربعة الاجزاء واكثر الخامس ويغمر عن جانبيه طرفا من الاقليم الثالث والخامس كما نذكره ويسمى هذا البحر البحر الشامى ايضا وفيه جزاير كثيرة واعظمها فى جهة الغرب يابسة ثم ميورقة ثم منرقة ثم سردانية ثم صقلية وهى اعظمها ثم بلبونس ثم اقريطش ثم قبرص كما نذكرها كلها فى اجزائها التى وقعت فيها ويخرج من هذا البحر الرومى عند آخر الجزء الثالث منه وفى الجزء الثالث من الاقليم الخامس خليج البنادقة يذهب الى ناحية الشمال ثم ينعطف عند وسط الجزء من جوفيه ويمرّ مغربا الى ان ينتهى فى الجزء الثانى من الخامس ويخرج منه ايضا فى آخر الجزء الرابع شرقا من الاقليم الخامس خليج القسطنطينية يمرّ فى الشمال متضايقا فى عرض رمية السهم الى آخر الاقليم

Digitized by Google

ثم يفضى الى الجزء الرابع من الاقليم السادس وينعطف الى
بحر نيطش (1) ذاهبا الى الشرق فى الجزء الخامس كله ونصف
السادس من الاقليم السادس كما نذكر ذلك فى اماكنه
وعند ما يخرج هذا البحر الرومى من البحر المحيط فى
خليج طنجة وينفسح الى الاقليم الثالث ويبقى فى الجنوب
عن الخليج قطعة صغيرة من هذا الجزء فيها مدينة طنجة على
مجمع البحرين وبعدها سبتة على البحر الرومى ثم تيطاوين
ثم بادس ثم يغمر البحر بقية هذا الجزء شرقا ويخرج الى
الثالث واكثر العمارة فى هذا الجزء فى شماله وشمالى
الخليج منه وهى كلها بلاد الاندلس فالغربية منها ما بين
البحر المحيط والبحر الرومى اولها طريف عند مجمع البحرين
وفى الشرق عنها على ساحل البحر الرومى الجزيرة الخضراء
ثم مالقة ثم الهنكب ثم المرية وتحت هذه من لدن البحر
المحيط غربا وعلى مقربة منه شريش ولبلة وقبالتهما فيه جزيرة
قادس وفى الشرق عن شريش ولبلة اشبيلية ثم اسجة وقرطبة
ومرتكة ثم غرناطة وجيان وابدة ثم واداش وبسطة وتحت
هذه شنتمرية وشلب على البحر المحيط غربا وفى الشرق
عنهما بطليوس وماردة ويابرة ثم غافق وترجالة ثم قلعة رباح
وتحت هذه اشبونة على البحر المحيط غربا وعلى نهر تاجة

(1) Lisez بنطش.

Digitized by Google

وفى الشرق عنها شنترين وقورية على النهر المذكور ثم
قنطرة السيف ويسامت اشبونة من جهة الشرق جبل
الشارات يبداء من الغرب هناك ويذهب مشرقا مع آخر
الجزء من شماليه فينتهى الى مدينة سالم فيما بعد النصف
منه وتحت هذا الجبل طلبيرة فى الشرق عن قورية ثم طليطلة
ثم وادى الحجارة ثم مدينة سالم وعند اول هذا الجبل فيما
بينه وبين اشبونة بلد قلمرية هذه غرب الاندلس واما شرق
الاندلس فعلى ساحل البحر الرومى منها من بعد المرية
قرطاجنة ثم لقنت ثم دانية ثم بلنسية الى طركونة آخر الجزء
فى الشرق وتحتها شمالا لورقة وشقورة (1) يتاخمان بسطة
وقلعة رباح من غرب الاندلس ثم مرسية شرقا ثم شاطبة
تحت بلنسية شرقا ثم شقر ثم طرطوشة تحت طركونة آخر
الجزء ثم تحت هذه شمالا ايضا جنجالة ووبذة متاخمتان
لشقورة وطليطلة من الغرب ثم افراغة شرقا تحت طرطوشة
وشمالا عنها ثم فى الشرق عن مدينة سالم قلعة ايوب ثم
سرقسطة ثم لاردة آخر الجزء شرقا وشمالا والجزء الثانى من
هذا الاقليم غمر الماء جميعه الّا قطعة من غربيّه فى الشمال
فيها بقيّة جبل البرتات معناه جبل الثنايا والمسالك يخرج
اليه من آخر الجزء الاول من الاقليم الخامس يبداء من

(1) Man. A. et B. شغورة.

Digitized by Google

الطرف المنتهى من البحر المحيط عند آخر ذلك الجزء
جنوبا وشرقا ويمرّ فى الجنوب بانحراف الى الشرق فيخرج
فى هذا الاقليم الرابع منحرفا عن الجزء الاول منه الى هذا
الجزء الثانى فتقع فيه قطعة منه تفضى ثناياها الى البرّ
المتّصل ويسمى ارض غشكونية وفيه مدينة جرندة وقرقشونة
وعلى ساحل البحر الرومى من هذه القطعة مدينة برشلونة
ثم اربونة وفى هذا البحر الذى غمر الجزء جزاير كثيرة
والكثير منها غير مسكون لصغرها ففى غربيه جزيرة سردانية
وفى شرقيه جزيرة صقلية متّسعة الاقطار ويقال ان فى دورها
سبعماية ميل وبها مدن كثيرة من مشاهرها سرقوسة وبلرم
وطرابنة ومازر ومسينى وهذه الجزيرة تقابل ارض افريقية
وفيما بينهما جزيرتا غودش (1) ومالطة والجزء الثالث من هذا
الجزء مغمور ايضا بالبحر الا ثالث قطع من ناحية الشمال
الغربية منها من ارض قلورية والوسطى من ارض انكبردة
والشرقية من بلاد البنادقة والجزء الرابع من هذا الاقليم مغمور
ايضا بالبحر كما مرّ وجزايره كثيرة واكثرها غير مسكون كما
فى الثالث والمعمور منها جزيرة بلبونس فى الناحية الغربية
الشمالية وجزيرة اقريطش مستطيلة من وسط الجزء الى ما
بين الجنوب والشرق منه والجزء الخامس من هذا الاقليم

(1) Man. A. et B. جزيرة تا غودش. Man. D. جزيرة غودش.

Digitized by Google

PROLÉGOMÈNES d'Ebn-Khaldoun.

غمر البحر منه مثلثة كبيرة بين الجنوب والغرب ينتهى
الضلع الغربى منها الى آخر الجزء فى الشمال وينتهى
الضلع الجنوبى منها الى نحو الثلثين من الجزء ويبقى فى
الجانب الشرقى من الجزء قطعة نحو الثلث يمرّ الشمالى
منها الى الغرب منعطفا مع البحر كما قلناه وفى النصف
الجنوبى منها اسافل الشام ويمرّ فى وسطها جبل اللكام
الى ان ينتهى الى آخر الشام فى الشمال فينعطف من
هنالك ذاهبا الى القطر الشرقى الشمالى ويسمى بعد
انعطافه جبل السلسلة ومن هنالك يخرج الى الاقليم
الخامس ويحوز عند منعطفه قطعة من بلاد الجزيرة الى جهة
الشرق وتقوم من عند منعطفه من جهة المغرب جبال متّصل
بعضها ببعض الى ان تنتهى الى طرف خارج من
البحر الرومى متاخم الى آخر الجزء من الشمالى وبين هذه
الجبال ثنايا تسمى الدروب وهى التى تفضى الى بلاد
الارمن وفى هذا الجزء قطعة منها بين هذه الجبال وبين
جبل السلسلة فاما الجهة الجنوبية التى قدمنا ان فيها
اسافل الشام وان جبل اللكام معترض فيها بين البحر
الرومى وآخر الجزء من الجنوب الى الشمال فعلى ساحل
البحر منه بلد انطرسوس فى اول الجزء من الجنوب
متاخمة لعرقة وطرابلس على ساحله من الاقليم الثالث وفى

Digitized by Google

شمال انطرسوس جبلة ثم اللادقية ثم اسكندرية ثم سلوقية
وبعدها شمالا بلاد الروم واما جبل اللكام المعترض بين البحر
وآخر الجزء فحفافيه من بلاد الشام من اعلى الجزء جنوبا
حصن الخوابى من غربيه وهو للحشيشية الاسماعيلية
ويعرفون لهذا العهد بالفداوية ويسمى الحصن مصيات وهو
قبالة انطرسوس شرقا ويقابل هذا الحصن فى شرق الجبل
بلد سلمّية فى الشمال عن حمص وفى الشمال عن مصيات
بين الجبل والبحر بلد انطاكية ويقابلها فى شرق الجبل
المعرّة وفى شرقها المراغة وفى شمال انطاكية المصيصة ثم
ادنة ثم طرسوس آخر الشام ويحاذيها من غرب الجبل
قنسرين ثم عين زربة وقبالة قنسرين فى شرق الجبل
حلب ويقابل عين زربة منبج آخر الشام واما الدروب فعن
يمينها ما بينها وبين البحر الرومى بلاد الروم التى هى
لهذا العهد للتركمان وسلطانها ابن عثمان وفى ساحل البحر
الرومى منها بلد انطاكية (1) والعلايا واما بلاد الارمن التى
بين جبل الدروب وجبل السلسلة ففيها بلد مرعش وملطية
وانقرة الى آخر الجزء شمالا ويخرج من الجزء الخامس فى
بلاد الارمن نهر جيحان ونهر سيحان فى شرقيه فيمرّ نهر
جيحان جنوبا حتى يتجاوز الدروب ثم يمرّ بطرسوس ثم

(1) Telle est la leçon des manuscrits; mais il faut lire : انطالية.

Digitized by Google

بالمصيصة ثم ينعطف هابطا الى الشمال ومغربا حتى يصبّ
فى البحر الرومى جنوب سلوقية ويمرّ نهر سيحان موازيا
لنهر جيحان فيحاذى انقرة ومرعش ويتجاوز جبال الدروب
الى ارض الشام ثم يمرّ بعين زربة ويجوز عن نهر جيحان
ثم ينعطف الى الشمال مغربا فيختلط بنهر جيحان عند
المصيصة ومن غربها وامّا بلاد الجزيرة التى يحيط بها
منعطف جبل اللكام الى جبل السلسلة ففى جنوبها بلد
الرافقة والرقّة ثم حران ثم سروج والرها ثم نصيبين ثم
شميساط وآمد تحت جبل السلسلة وآخر الجزء من شماله
وهو ايضا آخر الجزء من شرقه ويمرّ فى وسط هذه القطعة نهر
الفرات ونهر دجلة يخرجان من الاقليم الخامس ويمرّان
فى بلاد الارمن جنوبا الى ان يتجاوزا جبل السلسلة فيمرّ
نهر الفرات فى غربى شميساط وسروج ثم ينحرف الى
الشرق فيمرّ بغرب الرافقة والرقّة ويخرج الى الجزء السادس
ويمرّ دجلة فى شرق آمد وينعطف قريبا الى الشرق
فيخرج قريبا الى الجزء السادس وفى الجزء السادس من
هذا الاقليم من غربيه بلاد الجزيرة وفى الشرق عنها بلاد
العراق متّصلة بها تنتهى فى الشرق الى قرب آخر الجزء
ويعترض آخر العراق هناك جبل اصبهان هابطا من جنوب
الجزء منحرفا الى الغرب فاذا انتهى الى وسط الجزء من

Digitized by Google

آخره فى الشمال يذهب مغربا الى ان يخرج من الجزء السادس ويتّصل على سمته بجبل السلسلة فى الجزء الخامس فيقطع فى الجزء السادس بقطعتين غربية وشرقية ففى الغربية من جنوبها مخرج الفرات من الخامس فى شماليها مخرج دجلة منه امّا الفرات فاول ما يخرج الى السادس يمرّ بقرقيسيا ويخرج منه هنالك جدول الى الشمال ينساب فى ارض الجزيرة ويغوص فى نواحيها ويمرّ من قرقيسيا غير بعيد ثم ينعطف الى الجنوب فيمرّ بغرب الخابور الى غرب الرحبة ويخرج منه جدول من هنالك يمرّ جنوبا وتبقى صفّين فى غربه ثم ينعطف شرقا وينقسم بشعوب فيمرّ بعضها بالكوفة وبعض بقصر ابن هبيرة وبالجامعين ويخرج جميعها فى جنوب الجزء الى الاقليم الثالث فيغوص هنالك فى شرق الحيرة والقادسية ويمرّ الفرات من الرحبة مشرقا على سمته الى هيت من شمالها ثم الى الزاب والانبار من جنوبها ثم يصبّ فى دجلة عند بغداذ واما نهر دجلة فاذا دخل من الجزء الخامس الى هذا الجزء يمرّ مشرقا على سمته ومحاذيا لجبل السلسلة المتّصل بجبل العراق على سمته فيمرّ بجزيرة ابن عمر من شمالها ثم بالموصل كذلك وتكريت وينتهى الى الحديثة فينعطف جنوبا وتبقى الحديثة فى شرقه والزاب الكبير

Digitized by Google

والصغير كذلك ويمرّ على سمته جنوبا وفى غرب القادسية
الى ان ينتهى الى بغداذ ويختلط بالفرات ثم يمرّ جنوبا على
غرب جرجرايا الى ان يخرج من الجزء الى الاقليم الثالث
فتتكثر هنالك شعوبه وجداوله ثم تجتمع وتصبّ هنالك
فى بحر فارس عند عبادان وفيما بين نهر الدجلة والفرات
قبل مجمعهما ببغداذ هى بلاد الجزيرة ويختلط بنهر دجلة
والفرات بعد مفارقة بغداذ نهر اخر ياتى من الجهة الشرقية
الشمالية عنه وينتهى الى بلد النهروان قبالة بغداذ شرقا ثم
ينعطف جنوبا ويختلط بدجلة قبل خروجه الى الاقليم
الثالث ويبقى ما بين هذا النهر وبين جبل العراق
والاعاجم بلد جلولا وفى شرقها عند الجبل بلد حلوان
وصيمرة واما القطعة الغربية من الجزء فيعترضها جبل يبداء
من جبل الاعاجم مشرقا الى آخر الجزء ويسمى جبل شهرزور
فيقسمها بقطعتين وفى الجنوب من هذه القطعة الصغرى بلد
خونجان فى الغرب والشمال عن اصبهان وتسمى هذه
القطعة بلاد البهلوس وفى وسطها بلد نهاوند (1) وفى شمالها
بلد شهرزور غربا عند ملتقى الجبلين والدينور شرقا عند
آخر الجزء وفى القطعة الصغرى الثانيه طرف من بلاد
ارمينية قاعدتها المراغة والذى يقابلها من جبل العراق

(1) Man. A. et B. البلهوس.

Digitized by Google

يسمى جبل بارما وهو مساكن الاكراد والزاب الكبير والصغير
الذى على دجلة من ورايه فى آخر هذه القطعة من جهة
الشرق بلاد اذربايجان ومنها تبريز والبيلقان وفى الزاوية
الشرقية الشمالية من هذا الجزء قطعة من بحر نيطش وهو
بحر الخزر وفى الجزء السابع من هذا الاقليم فى غربيه
وجنوبه معظم بلاد البهلوس وفيها همدان وقزوين وبقيّتها
فى الاقليم الثالث وفيها هنالك اصبهان ويحيط بها من
الجنوب جبل يخرج من غربيها ويمرّ بالاقليم الثالث ثم
ينعطف من الجزء السادس الى الاقليم الرابع ويتّصل بجبل
العراق فى شرقيه الذى مرّ ذكره هنالك وانه محيط ببلاد
البلهوس فى القطعة الشرقية ويهبط هذا الجبل المحيط
باصبهان من الاقليم الثالث الى جهة الشمال ويخرج الى
هذا الجزء السابع فيحيط ببلاد البهلوس من شرقيها وتحته
هنالك قاشان ثم قم وينعطف فى قرب النصف من
طريقه مغربا بعض الشئ ثم يرجع مستديرا فيذهب مشرقا
ومنحرفا الى الشمال حتى يخرج الى الاقليم الخامس
ويشتمل عند منعطفه واستدارته على بلد الرى فى شرقيه
ويبداء من منعطف اخر يمرّ غربا الى آخر الجزء ومن جنوبه
هنالك قزوين ومن جانبه الشمالى وجانب جبل الرى
المتّصل معه ذاهبا الى الشرق والشمال الى وسط الجزء ثم

Digitized by Google

PROLÉGOMÈNES d'Ebn-Khaldoun.

الى الاقليم الخامس بلاد طبرستان فيما بين هذه الجبال
وبين قطعة من بحر طبرستان تدخل فى الاقليم الخامس
فى هذا الجزء فى نحو النصف من غربه الى شرقه ويعترض
عند جبل الرى وعند انعطافه الى الغرب جبل متّصل يمرّ
على سمته مشرقا وبانحراف قليل الى الجنوب حتى يدخل
فى الجزء الثامن من غربه ويبقى بين جبل الرى وهذا
الجبل من عند مبدائيهما بلاد جرجان فيما بين الجبلين
ومنها بسطام ووراء هذا الجبل قطعة من هذا الجزء فيها بقيّة
المفازة التى بين فارس وخراسان وهى شرقى قاشان وفى
آخرها عند هذا الجبل بلد استراباذ وحفافى هذا الجبل من
شرقيه الى آخر الجزء بلاد نيسابور من خراسان ففى
جنوب الجبل وشرق المفازة بلد نيسابور ثم مرو الشاهجان
آخر الجزء وفى شماله وشرق جرجان بلد مهرجان وخازرون
وطوس آخر الجزء شرقا وكل هذه تحت الجبل وفى الشمال
عنها بعيدا بلاد نسا ويحيط بها عند زاوية الجزء بين الشمال
والشرق مفاوز معطلة وفى الجزء الثامن من هذا الاقليم فى
غربيه نهر جيحون ذاهبا من الجنوب الى الشمال ففى
عدوته الغربية زم وآمل من بلاد خراسان والظاهرية والجرجانية
من بلاد خوارزم ويحيط بالزاوية الغربية الجنوبية منه جبل
استراباذ المعترض فى الجزء السابع قبله ويخرج من هذا

Digitized by Google

الجزء من غربيه ويحيط بهذه الزاوية وفيها بقيّة بلاد هراة
ويمرّ الجبل فى الاقليم الثالث بين هراة والجوزجان حتى
يتّصل بجبل البتم كما ذكرناه هنالك وفى شرق نهر
جيحون من هذا الجزء فى الجنوب منه بلاد بخارا ثم
بلاد الصغد وقاعدتها سمرقند ثم بلاد اشروسنة ومنها خجندة
آخر الجزء شرقا وفى الشمال عن سمرقند واشروسنة ارض
يلاق ثم فى الشمال عن يلاق ارض الشاش يمرّ الى آخر
الجزء شرقا وتاخذ قطعة من الجزء التاسع فى جنوب
تلك القطعة بقية ارض فرغانة ويخرج من هذه القطعة التى
فى الجزء التاسع نهر الشاش يمرّ معترضا فى الجزء الثامن
الى ان يصبّ فى نهر جيحون عند مخرجه من هذا الجزء
الثامن فى شماله الى الاقليم الخامس ويختلط معه فى
ارض يلاق نهر ياتى من الجزء التاسع من الاقليم الثالث
من تخوم بلاد التبت وتختلط معه قبل مخرجه من الجزء
التاسع نهر فرغانة وعلى سمت نهر الشاش جبل جبراغون
يبداء من الاقليم الخامس وينعطف مشرقا ومنحرفا الى
الجنوب حتى يخرج الى الجزء التاسع محيطا بارض الشاش
ثم ينعطف فى الجزء فيحيط بالشاش وفرغانة هنالك الى
جنوبه فيدخل فى الاقليم الثالث وبين نهر الشاش وطرف
هذا الجبل فى وسط الجزء بلاد فاراب وبينه وبين ارض

Digitized by Google

PROLÉGOMÈNES d'Ebn-Khaldoun.

بخارا وخوارزم مفاوز معطلة وفى زاوية هذا الجزء بين الشمال والشرق ارض جغندة وفيها بلاد اسبيجاب وطراز(1) وفى الجزء التاسع من هذا الاقليم فى غربيه بعد فرغانة والشاش ارض الخرلخية فى الجنوب وارض الخلخلية فى (2) الشمال وفى شرق الجزء كله الى آخره ارض الكيماكية وتتّصل فى الجزء العاشر كله الى جبل قوفايا آخر الجزء شرقا وعلى قطعة من البحر المحيط هناك وهو جبل ياجوج وماجوج وهذه الامم كلها شعوب الترك

الاقليم الخامس

الجزء الاول منه اكثره مغمور بالماء الّا قليلا من جنوبه وشرقه لانّ البحر المحيط من هذه الجهة الغربية دخل فى الاقليم الخامس والسادس والسابع عن الدايرة المحيطة بالاقليم فاما المنكشف من جنوبه قطعة على شكل المثلث متّصلة من هنالك بالاندلس وعليها بقيّتها ويحيط بها البحر من جهتين كانّهما ضلعان محيطان بزاوية المثلث ففيها من بقيّة ارض الاندلس منت ميور(3) على البحر عند اول الجزء من الجنوب والغرب وشلمنكة شرقا عنها وفى جوفيها سمورة وفى الشرق عن شلمنكة ابلة آخر الجنوب وارض

(1) Les man. A. B. C. طرار.

(2) Man. C. et D. الخلخية

(3) Man. A. مينة منور. B. منت منور.

Digitized by Google

قشتالة شرقا عنها وفيها مدينة شقوبية وفى شمالها ارض
ليون وبرغشت (1) ثم وراها فى الشمال ارض جليقية الى
زاوية القطعة وفيها على البحر المحيط فى آخر الضلع
الغربى بلد شنتياقوب ومعناه يعقوب وفيها من بلاد شرق
الاندلس مدينة تطيلة (2) عند آخر الجزء فى الجنوب وشرقا
عن قشتالة وفى شمالها وشرقها وشقة ثم بنبلونة على سمتها
شرقا وشمالا وفى غرب بنبلونة قسطالة ثم تاجرة فيما بينها
وبين برغشت ويعترض وسط هذه القطعة جبل عظيم محاذيا
للبحر وللضلع الشمالى الشرقى منه وعلى قرب ويتّصل به
وبطرف البحر من عند بنبلونة فى جهة الشرق الذى ذكرنا
من قبل انه يتّصل فى الجنوب بالبحر الرومى فى الاقليم
الرابع ويصير حجرا على الاندلس من جهة الشرق وثناياه
ابواب لها تفضى الى بلاد غشكونية من امم الفرنج فمنها
فى الاقليم الرابع برشلونة واربونة على ساحل البحر الرومى
وجرندة وقرقشونة وراهما فى الشمال ومنها فى الاقليم
الخامس طلوشة شمالا عن جرندة واما المنكشف فى هذا
الجزء من جهة الشرق فقطعة على شكل مثلث مستطيل
زاويته الحادّة وراء البُرتات شرقا وفيها على البحر المحيط

(1) Man. A. برغتت. B. برغتست. C. رغشت.

(2) Man. A. et B. تطلية.

Digitized by Google

على راس القطعة التى يتّصل بها جبل البرتات بلد بيونة
وفى آخر هذه القطعة فى الناحية الشرقية الشمالية من الجزء
ارض بيطو من الفرنج الى آخر الجزء وفى الجزء الثانى فى
الناحية الغربية منه ارض غشكونية وفى شمالها ارض بيطو
وبرغش وقد ذكرناهما وفى شرق بلاد غشكونية قطعة من
البحر الرومى دخلت فى هذا الجزء كالضرس مايلة الى
الشرق قليلا وصارت بلاد غشكونية فى غربها داخلة فى
جون من البحر وعلى راس هذه القطعة شمالا بلاد جنوة وعلى
سمتها فى الشمال جبل منت جون وفى شماله وعلى سمته
ارض برغونة وفى الشرق عن طرف جنوة للخارج من البحر
الرومى طرف اخر خارج منه يبقى بينهما جون داخل من
البرّ فى البحر فى غربيه بيش وفى شرقيه مدينة رومة العظيمة
كرسى ملك الافرنجة ومسكن البابة بتركهم الاعظم وفيها من
المبانى الضخمة والهياكل المهولة والكنايس العادية ما هو
معروف الاخبار ومن عجايبها النهر الجارى فى وسطها من
المشرق الى المغرب مفروش قاعه ببلاط النحاس وفيها
كنيسة بطرس وبولس من الحواريّين وهما مدفونان بها وفى
الشمال عن بلاد رومة بلاد انبرضية الى آخر الجزء وعلى هذا
الطرف من البحر الذى فى جونه (1) رومة بلد نابل فى

(1) Man. B. جوفه.

Digitized by Google

الجانب الشرقى منه متّصلة ببلاد قلورية من بلاد الفرنج
وفى شمالها طرف من خليج البنادقة دخل فى هذا الجزء
من الجزء الثالث مغربا ومحاذيا للشمال من هذا الجزء
وانتهى فى نحو الثلث منه وعليه كثير من بلاد البنادقة
من جنوبه فيما بينه وبين البحر المحيط ومن شماله بلاد
انكلاية فى الاقليم السادس وفى الجزء الثالث من هذا
الاقليم فى غربه بلاد قلورية بين خليج البنادقة والبحر
الرومى يدخل جانب من برّها فى الاقليم الرابع فى البحر
الرومى فى جون بين طرفين خرجا من البحر على سمت
الشمال الى هذا الجزء وفى شرق بلاد قلورية بلاد انكبردة
فى جون بين خليج البنادقة والبحر الرومى ويدخل طرف
هذا الجون فى الاقليم الرابع وفى البحر الرومى ويحيط به
من شرقيه خليج البنادقة من البحر الرومى ذاهبا الى سمت
الشمال ثم ينعطف الى المغرب محاذيا لآخر الجزء الشمالى
ويخرج على سمته من الاقليم الرابع جبل عظيم يوازيه ويذهب
معه فى الشمال ثم يغرب معه فى الاقليم السادس الى ان
ينتهى قبالة الخليج فى شماله فى بلاد انكلاية من امم
اللمانيين كما نذكر وعلى هذا الخليج وبينه وبين هذا
الجبل ما داما ذاهبين الى الشمال بلاد البنادقة فاذا ذهبا الى
المغرب فبينهما بلاد جرواسيا ثم بلاد اللمانيين عند طرف

Digitized by Google

الخليج وفى الجزء الرابع من هذا الاقليم قطعة فى البحر الرومى خرجت اليه من الاقليم الرابع مضرسة كلها بقطع من البحر تخرج منها الى الشمال وبين كل ضرسين منهما طرف فى البرّ فى الجون بينهما وفى آخر الجزء شرقا خليج القسطنطينية يخرج من هذا الطرف الجنوبى ويذهب على سمت الشمال الى ان يدخل فى الاقليم السادس وينعطف من هنالك عن قرب مشرقا الى بحر نيطش فى الجزء الخامس وبعض الرابع قبله والسادس بعده من الاقليم السادس كما نذكر وبلد القسطنطينية فى شرقى هذا الخليج عند آخر الجزء من الشمال وهى المدينة العظيمة التى كانت كرسى القياصرة وبها من آثار البناء والضخامة ما كثرت عنه الاحاديث والقطعة التى بين البحر الرومى وخليج القسطنطينية من هذا الجزء فيها بلاد مقدونية التى كانت لليونانيين (1) ومنها ابتداء ملكهم وفى شرقى هذا الخليج الى آخر الجزء قطعة من ارض باطوس واظنّها لهذا العهد مجالات للتركمان وبها ملك ابن عثمان وقاعدته برصا (2) وكانت من قبلهم للروم وغلبتهم عليها الامم الى ان صارت للتركمان وفى الجزء الخامس من هذا الاقليم من غربيه وجنوبه ارض باطوس وفى الشمال عنها الى آخر الجزء بلاد

(1) Man. A. et B. للونانيين. C. لليونان. (2) Man. A. et B. برصة.

Digitized by Google

عمورية وفى شرق عمورية نهر قباقب الذى يمدّ الفرات
يخرج من جبل هنالك ويذهب فى الجنوب حتى
يخالط الفرات قبل فصوله من هذا الجزء الى ممرّه فى
الاقليم الرابع وهناك فى غربيه آخر الجزء مبداء نهر
سيحان ثم نهر جيحان غربيه الذاهبين على سمته وقد مرّ
ذكرهما وفى شرقيه هنالك مبداء نهر دجلة الذاهب على
سمته وفى موازاته حتى يخالطه عند بغداذ وفى الزاوية
التى بين الجنوب والشرق عن هذا الجزء وراء الجبل
الذى يبداء منه نهر دجلة بلد ميافارقين ونهر قباقب الذى
ذكرناه يقسم هذا الجزء بقطعتين احداهما غربيّة جنوبيّة وفيها
ارض باطوس كما قلناه واسفلها الى آخر الجزء شمالا ووراء
الجبل الذى يبداء منه نهر قباقب ارض عمورية كما قلناه
والقطعة الثانية شمالية شرقية جنوبية على الثلث ففى الجنوب
منها مبداء الدجلة والفرات وفى الشمال بلاد البيلقان متّصلة
بارض عمورية من وراء جبل قباقب وهى عريضة وفى آخرها
عند مبداء الفرات بلد حرشنة (1) وفى الزاوية الشرقية
الشمالية قطعة من بحر نيطش الذى يمدّه خليج القسطنطينية
وفى الجزء السادس من هذا الاقليم فى جنوبه وغربه بلاد
ارمينية متّصلة الى ان يتجاوز وسط الجزء الى جانب الشرق

(1) Man. A. حرشنة. B. حرسنة.

Digitized by Google

وفيها بلد ارزن فى الجنوب والمغرب وفى شمالها تفليس
ودبيل وفى شرقى ارزن مدينة خلاط ثم برذعة وفى جنوبها
بانحراف الى الشرق مدينة ارمينية ومن هنالك يخرج بلاد
ارمينية الى الاقليم الرابع وفيها هنالك بلد الهراغة فى شرقى
جبل(1) الاكراد المسمى بارما وقد مرّ ذكره فى الجزء السادس
منه ويتاخم بلاد ارمينية فى هذا الجزء وفى الاقليم الرابع قبله
من جهة المشرق فيها بلاد اذربيجان وآخرها فى هذا الجزء
شرقا بلد اردبيل على قطعة من بحر طبرستان دخلت فى
الناحية الشرقية من هذا الجزء من الجزء السابع ويسمى بحر
طبرستان وعليه من شماله فى هذا الجزء قطعة من بلاد الخزر
وهم التركمان ويبداء من عند هذه القطيعة البحرية فى
الشمال جبال يتّصل بعضها ببعض على سمت الغرب الى
الجزء الخامس وتمرّ فيه منعطفة ومحيطة ببلاد ميافارقين
ويخرج الى الاقليم الرابع عند آمد ويتّصل بجبل السلسلة
فى اسافل الشام ومن هنالك يتّصل بجبل اللكام كما مرّ
وبين هذه الجبال الشمالية فى هذا الجزء ثنايا كالابواب
تفضى من الجانبين ففى جنوبها بلاد الابواب متّصلة فى
الشرق الى بحر طبرستان وعليه من هذه البلاد مدينة باب
الابواب وتتّصل بلاد الابواب فى الغرب من ناحية جنوبها

(1) Man. A. et B. جبلها.

Digitized by Google

ببلاد ارمينية وبينها فى الشرق وبين بلاد اذربيجان
الجنوبية بلاد الران متّصلة الى بحر طبرستان وفى شمال
هذه الجبال قطعة من هذا الجزء فى غربها مملكة السرير
وفى الزاوية الغربية الشمالية منها وهى زاوية الجزء كله قطيعة
ايضا من بحر نيطش الذى يمدّه خليج القسطنطينية وقد
مرّ ذكره وتحقّق بهذه القطعة من نيطش بلاد السرير وعليها
منها بلاد طرابزندة وتتّصل بلاد السرير بين جبال الابواب
والجهة الشمالية من الجزء الى ان تنتهى شرقا الى جبل
حاجز بينها وبين ارض الخزر وعند آخرها مدينة صول ووراء
هذا الحاجز قطعة من ارض الخزر تنتهى الى الزاوية
الشرقية الشمالية من هذا الجزء بين بحر طبرستان وآخر
الجزء شمالا والجزء السابع من هذا الاقليم غربيه كله مغمور
ببحر طبرستان وخرج من جنوبه فى الاقليم الرابع القطعة
التى ذكرنا هنالك ان عليها بلاد طبرستان وجبل الديلم
الى قزوين وفى غربى تلك القطعة متّصلة بها القطيعة
التى فى الجزء السادس من الاقليم الرابع وتتّصل بها من
شمالها القطعة التى فى الجزء السادس من شرقه انفا
وتنكشف من هذا الجزء قطعة عند زاويته الشمالية الغربية
يصبّ فيها نهر اتل فى هذا البحر وتبقى من هذا الجزء
فى ناحية الشرق قطعة منكشفة من البحر هى مجالات

Digitized by Google

PROLÉGOMÈNES d'Ebn-Khaldoun.

للغزّ من امم الترك ويقال لهم الخزر كانه عرب وصارت
خاوه غينا وشدّدت الزاى ويحيط بهذه القطعة جبل من
جهة الجنوب داخل فى الجزء الثامن ويذهب فى الغرب
الى ما دون وسطه فينعطف الى الشمال الى ان يلاقى بحر
طبرستان فيحتقّ به ذاهبا معه الى بقيّته فى الاقليم السادس
ثم ينعطف مع طرفه ويفارقه ويسمى هنالك جبل شياه
ويذهب مغربا الى الجزء السادس من الاقليم السادس ثم
يرجع جنوبا الى الجزء السادس من الاقليم الخامس وهذا
الطرف منه هو الذى اعترض فى هذا الجزء بين ارض
السرير وارض الخزر واتّصلت ارض الخزر فى الجزء
السادس والسابع حفافى هذا الجبل المسمى جبل شياه
كما ياتى والجزء الثامن من هذا الاقليم الخامس كله
مجالات للغزّ من امم الترك وفى الجهة الجنوبية الغربية
منه بحيرة خوارزم التى يصبّ فيها نهر جيحون دورها
ثلثماية ميل ويصبّ فيها انهار كثيرة من ارض هذه
المجالات وفى الجهة الشمالية الشرقية منه بحيرة غرغون
دورها اربعماية ميل وماؤها حلو وفى الناحية الشمالية من هذا
الجزء جبل مرغار (1) ومعناه جبل الثلج لانه لا يذوب فيه
وهو متّصل بآخر الجزء وفى الجنوب عن بحيرة غرغون

(1) Man. B. مرغان.

Digitized by Google

جبل من الحجر الصلد لا ينبت شيا يسمى غرغون وبه
سميت البحيرة وتتجلب منه ومن جبل مرغار شمال
البحيرة انهار لا ينحصر عددها فتصبّ فيها من الجانبين
وفى الجزء التاسع من هذا الاقليم بلاد اذكش من امم
الترك فى غرب بلاد الغزّ وشرق بلاد الكيماكية ويحفّه من
جهة الشرق آخر الجزء جبل قوفايا المحيط بياجوج وماجوج
يعترض هنالك من الجنوب الى الشمال حين
ينعطف اول دخوله من الجزء العاشر وقد كان دخل اليه من
آخر الجزء العاشر من الاقليم الرابع قبله احتقّ هنالك
بالبحر المحيط الى آخر الجزء فى الشمال ثم انعطف مغربا
فى الجزء العاشر من الاقليم الرابع الى ما دون نصفه واحاط
من اوله الى هنا ببلاد الكيماكية ثم خرج الى الجزء العاشر
من الاقليم الخامس فذهب فيه مغربا الى آخره وبقيت فى
جنوبه قطعة من هذا الجزء مستطيلة الى الغرب فيها آخر
بلاد الكيماكية ثم خرج الى الجزء التاسع فى شرقيه وفى
الاعلى منه وانعطف قريبا الى الشمال وذهب الى سمته الى
الجزء التاسع من الاقليم السادس وفيه السدّ هنالك كما
نذكر وبقيت منه القطعة التى احاط بها جبل قوفايا عند
الزاوية الشرقية الشمالية من هذا الجزء مستطيلة الى الجنوب
وهى من بلاد ياجوج وماجوج وفى الجزء العاشر من هذا

Digitized by Google

الاقليم ارض ياجوج متّصلة فيه كله الا قطعة من البحر المحيط غمرت طرفا فى شرقيه من جنوبه الى شماله والا القطعة التى يفصلها الى جهة الجنوب والغرب جبل قوفايا حين مرّ فيه وما سوى ذلك فكله ارض ياجوج وماجوج

الاقليم السادس

فالجزء الاول منه غمر البحر اكثر من نصفه واستدار مشرقا مع الناحية الشمالية ثم ذهب مع الناحية الشرقية الى الجنوب وانتهى قريبا من الناحية الجنوبية فانكشفت قطعة من الارض فى هذا الجزء داخلة بين طرفين من البحر المحيط كالجون فيه وتنفسح طولا وعرضا وهى كلها ارض برطانية وفى بابها بين الطرفين وفى الزاوية الجنوبية الشرقية من الجزء بلاد صابس (1) متّصلة بارض بيطو التى مرّ ذكرها فى الجزء الاول والثانى من الاقليم الخامس وشماله والجزء الثانى من هذا الاقليم دخل البحر المحيط من غربه فمن غربه فى قطعة مستطيلة اكثر من النصف الشمالى من شرق ارض برطانية فى الجزء الاول واتّصلت بها القطعة الاخرى فى الشمال من غربه الى شرقه وانفسحت فى النصف الغربى منه بعض الشئ وفيه هنالك قطعة من جزيرة

(1) Man. A. et B. صاليس.

Digitized by Google

انكلطرة وهى جزيرة عظيمة متّسعة مشتملة على مدن وبها
ملك ضخم وبقيتها فى الاقليم السابع وفى جنوب هذه
القطعة وجزيرتها فى النصف الغربى من هذا الجزء بلاد
برمندية وبلاد افلادنش متّصلين بها ثم بلاد افرنسية جنوبا
وغربا من هذا الجزء وبلاد برغونية شرقا عنها وكلها لامم
الافرنجة وبلاد اللمانيين فى النصف الشرقى من هذا الجزء
فجنوبه بلاد انكلاية ثم بلاد برغونية شمالا ثم ارض لهرنكة
وشصونية وعلى قطعة البحر المحيط فى الزاوية الشمالية
الشرقية ارض افرندة وكلها لامم اللمانيين وفى الجزء الثالث
من هذا الاقليم فى الناحية الغربية بلاد يوانية (1) فى الجنوب
وبلاد شصونية فى الشمال وفى الناحية الشرقية بلاد انكرية
فى الجنوب وبلاد بلونية فى الشمال يعترض بينهما جبل
بلواط داخلا فى الجزء الرابع ويمرّ مغربا بانحراف الى الشمال
الى ان يقف فى بلاد شصونية آخر النصف الغربى وفى
الجزء الرابع فى ناحية الجنوب ارض جثولية وتحتها فى
الشمال بلاد الروسية ويفصل بينهما جبل بلواط من اول الجزء
غربا الى ان يقف فى النصف الشرقى وفى شرق ارض
جثولية بلاد جرمانية وفى الزاوية الجنوبية الشرقية ارض
القسطنطينية ومدينتها عند آخر الخليج الخارج من البحر

(1) Man. C. نوابية.

Digitized by Google

الرومى وعند مدفعه فى بحر نيطش فيقع قطعة من بحر
نيطش فى اعالى الناحية الشرقية من هذا الجزء يمدّها الخليج
وبينهما فى الزاوية بلد مسناة وفى الجزء الخامس من
الاقليم السادس ثم فى الناحية الجنوبية منه بحر نيطش يتّصل من
الخليج آخر الجزء الرابع ويخرج على سمته شرقا فيمرّ فى
هذا الجزء كله وفى بعض السادس على طول الف وثلثماية
ميل من مبدائه فى عرض ستماية ميل ويبقى وراء هذا
البحر فى الناحية الجنوبية من هذا الجزء من غربها الى
شرقها بر مستطيل فى غربه هرقلية على ساحل نيطش
متّصلة بارض البيلقان من الاقليم الخامس وفى شرقه بلاد
اللانية (1) وقاعدتها سنوبلى (2) على بحر نيطش وفى شمالى
بحر نيطش فى هذا الجزء غربا ارض برجان وشرقا بلاد
الروسية وكلها على ساحل هذا البحر وبلاد الروسية محيطة
ببلاد برجان من شرقها فى هذا الجزء ومن شمالها فى
الجزء الخامس من الاقليم السابع ومن غربها فى الجزء
الرابع من هذا الاقليم وفى الجزء السادس من غربه بقية
بحر نيطش وينحرف قليلا الى الشمال ويبقى بينه هنالك
وبين آخر الجزء شمالا بلاد قمانية وفى جنوبه ومنفسحا الى
الشمال بما انحرف هو كذلك بقية اللانية التى كانت آخر

(1) Man. A. et B. الانية.
(2) Man. C. سويلى.

Digitized by Google

جنوبه فى الجزء الخامس وفى الناحية الشرقية من هذا الجزء
متّصل ارض الخزر وفى شرقها ارض برطاس وفى الزاوية
الشرقية الشمالية ارض بلغار وفى الزاوية الجنوبية ارض
بلنجر يحوزها هنالك قطعة من جبل شياه كوية (1)
المنعطف مع بحر الخزر فى الجزء السابع بعده ويذهب
بعد مفارقته مغربا فيحوز (2) هذه القطعة ويدخل الى الجزء
السادس من الاقليم الخامس فيتّصل هنالك بجبال الابواب
وعليه من ناحيتيه بلاد الخزر وفى الجزء السابع من هذا
الاقليم فى الناحية الجنوبية ما حازه جبل شياه بعد مفارقته
بحر طبرستان وهو قطعة من ارض الخزر الى آخر الجزء
غربا وفى شرقها القطعة من بحر طبرستان التى يحوزها
هذا الجبل من شرقها وشمالها ووراء جبل شياه فى الناحية
الغربية الشمالية ارض برطاس وفى الناحية الشرقية من
الجزء ارض بسجرت (3) وبجناك من امم الترك وفى الجزء
الثامن والناحية الجنوبية منه كلها ارض الخولخ (4) من
الترك وفى الناحية الشمالية غربا الارض المنتنة وشرقا الارض
التى يقال ان ياجوج وماجوج خربوها قبل بناء السدّ وفى هذه
الارض المنتنة مبداء نهر اتل من اعظم انهار العالم وممرّه

(1) Man. A. شياكوبة.

(2) Man. A. B. et D. يجوز.

(3) Man. A. et B. سجرق.

(4) Lisez الخولخ.

Digitized by Google

فى بلاد الترك ومصّبه فى بحر طبرستان فى الاقليم الخامس
وفى الجزء السابع منه وهو كثير الانعطاف يخرج من
جبل فى الارض المنتنه من ثلاثة ينابيع تجمع فى نهر
واحد ويمرّ على سمت المغرب الى آخر السابع من هذا
الاقليم فينعطف شمالا الى الجزء السابع من الاقليم السابع
فيمرّ على طرفه بين الجنوب والغرب فيخرج فى الجزء
السادس من السابع ويذهب مغربا غير بعيد ثم ينعطف
ثانية الى الجنوب ويرجع الى الجزء السادس من السادس
ويخرج منه جداول تذهب مغربا وتنصبّ فى بحر نيطش
فى ذلك الجزء ويمرّ هو فى قطعة بين الشمال والشرق فى
بلاد بلغار (1) فيخرج فى الجزء السابع من الاقليم السادس
ثم ينعطف ثالثة الى الجنوب وينفذ فى جبل شياه ويمرّ
فى بلاد الخزر ويخرج الى الاقليم الخامس فى الجزء السابع
منه فيصبّ هنالك فى بحر طبرستان فى القطعة التى
انكشفت من الجزء عند الزاوية الغربية الجنوبية وفى
الجزء التاسع من هذا الاقليم فى الجانب الغربى منه بلاد
خفشاخ من الترك وهم قفجق وبلاد التركش (2) منهم ايضا
جبل قوفايا وفى الشرق منه بلاد ماجوج يفصل بينهما جبل
قوفايا المحيط وقد مرّ ذكره يبداء من البحر المحيط فى

(1) Man. A. et B. برغار.

(2) Man. B. et C. التركس.

Digitized by Google

شرق الاقليم الرابع ويذهب معه الى آخر الاقليم فى الشمال ويفارقه مغربا وبانحراف الى الشمال حتى يدخل فى الجزء التاسع من الاقليم الخامس فيرجع الى سمته الاول فى الشمال حتى يدخل فى هذا الجزء التاسع من جنوبه الى شمال وبانحراف الى المغرب وفى وسطه ههنا السدّ الذى بناه الاسكندر ثم يخرج على سمته فى الاقليم السابع وفى الجزء التاسع منه فيمرّ فيه من الجنوب الى ان يلقى البحر المحيط فى شماله ثم ينعطف معه من هنالك مغربا فى الاقليم السابع الى الجزء الخامس منه فيتّصل هنالك بقطعة من البحر المحيط فى غربيه وفى وسط هذا الجزء التاسع هو السدّ الذى بناه الاسكندر كما قلناه والصحيح من خبره فى القران وقد ذكر عبد الله بن خرداذبه فى كتابه فى الجغرافيا ان الواثق راى فى منامه كان السد انفتح فانتبه فزعا وبعث سلامة الترجمان فوقف عليه وجاء بخبره ووصفه فى حكاية طويلة ليست من مقاصد كتابنا وفى الجزء العاشر من هذا الاقليم بلاد ماجوج متّصلة فيه الى آخره على قطعة هنالك من البحر المحيط احاطت به من شرقه وشماله مستطيلة فى الشمال وعريضة بعض الشئ فى الشرق انتهى

Digitized by Google

الاقليم السابع

والبحر المحيط قد غمر عامّته من جهة الشمال الى وسط الجزء الخامس حيث يتّصل بجبل قوفايا المحيط بياجوج وماجوج فالجزء الاول والثانى مغموران بالماء الا ما انكشف من جزيرة انكلطرة التى معظمها فى الثانى وفى الاول منها طرف انعطف بانحراف الى الشمال وبقيتها مع قطعة من البحر مستديرة عليه فى الجزء الثانى من الاقليم السادس وهى مذكورة هنالك والمجاز منها الى البرّ فى هذه القطعة سعة اثنى عشر ميلا ووراء هذا الجزيرة فى شمال الجزء الثانى جزيرة رسلاندة مستطيلة من الغرب الى الشرق والجزء الثالث من هذا الاقليم مغمور اكثره بالبحر الا قطعة مستطيلة فى جنوبه وتتّسع فى شرقها وفيها هنالك متّصل ارض فلونية التى مرّ ذكرها فى الثالث من الاقليم السادس وانها فى شماله وفى القطعة من البحر التى تغمر هذا الجزء ثم فى الجانب الغربى منها مستديرة فسيحة ويتّصل فى البرّ من باب فى جنوبها يفضى الى بلاد فلونية (1) وفى شمالها جزيرة برقاغة مستطيلة مع الشمال من الغرب الى المشرق والجزء الرابع من هذا الاقليم شماله كله مغمور بالبحر المحيط

(1) Man. A. قلوانية. B. قلونية.

Digitized by Google

من الغرب الى الشرق وجنوبه منكشف ففى غربه ارض
فيمازك من الترك وفى شرقها بلاد طبست ثم ارض
رسلاندة الى آخر الجزء شرقا وهى دايمة الثلوج وعمرانها
قليل وتتّصل ببلاد روسية فى الاقليم السادس وفى الجزء
الرابع والخامس منه وفى الجزء الخامس من هذا الاقليم
فى الناحية الغربيه بلاد الروسية وتنتهى فى الشمال الى
قطعة البحر المحيط التى يتّصل بها جبل قوفايا كما ذكرناه
من قبل وفى الناحية الشرقية منه يتّصل ارض القمانية على
قطعة بحر نيطش فى الجزء السادس من الاقليم السادس
وينتهى الى بحيرة طرمى (1) من هذا الجزء وهى عذبة ويتجلب
اليها انهار كثيرة من الجبال عن الجنوب والشمال وفى
شمالى الناحية الشرقية من هذا الجزء ارض البناريه من
الترك الى آخره وفى الجزء السادس فى الناحية الغربية
الجنوبية متّصل بلاد القمانية وفى وسط الناحية بحيرة
عيون (2) عذبة يتجلب اليها انهار من الجبال فى النواحى
الشرقية وهى جامدة دايما لشدّة البرد الّا قليلا فى زمن
المصيف وفى شرقى بلاد القمانية بلاد الروسية التى كان
مبداءها فى الاقليم السادس فى الناحية الشرقية الشمالية من
الجزء الخامس منه وفى الزوايا الجنوبية الشرقية من هذا

(1) Man. B. طرفى D. طوى.

(2) Man. C. عتون.

Digitized by Google

الجزء بقية ارض بلغار التى كان مبداءها فى الاقليم السادس
وفى الناحية الشرقية الشمالية من الجزء السادس منه وفى
وسط هذه القطعة من ارض بلغار منعطف نهر اتل العطفة
الاولى الى الجنوب كما مرّ وفى آخر هذا الجزء السادس
من شماله جبل قوفايا متّصل من غربه الى شرقه وفى
الجزء السابع من هذا الاقليم فى غربه بقية ارض بجناك
من امم الترك وكان مبداءها فى الناحية الشرقية من
الجزء السادس قبله وفى الناحية الجنوبية الغربية من هذا
الجزء ويخرج الى الاقليم السادس فوقه وفى الناحية الشرقية
بقية ارض بسحرت (1) ثم بقية الارض المنتنة الى آخر
الجزء مشرقا وفى آخر الجزء من جهة الشمال جبل قوفايا المحيط
متّصلا من غربه الى شرقه وفى الجزء الثامن من هذا
الاقليم فى الجنوبية الغربية منه متّصل الارض المنتنة فى
شرقها الارض المحفورة وهى من العجايب خرق عظيم فى
الارض فسيح الاقطار بعيد المهوى ممتنع الوصول الى قعره
يستدل على عمرانه بالدخان فى النهار والنيران فى الليل
تضئ وتخفى وربّما رئ فيها نهر يشقّها من الجنوب الى
الشمال وفى الناحية الشرقية من هذا الجزء البلاد الخراب
المتاخمة للسدّ وفى آخر الشمال منه جبل قوفايا متّصل من

(1) Man. A. سخرت. B. سحرت. D. سحرى. Lisez بسجرت.

Digitized by Google

الغرب الى الشرق وفى الجزء التاسع من هذا الاقليم فى الجانب الغربى منه بلاد خفشاخ وهم قفجق يحوزها جبل قوفايا حين ينعطف من شماله عند البحر المحيط ويذهب فى وسطه الى الجنوب بانحراف الى الشرق فيخرج فى الجزء التاسع من الاقليم السادس ويمرّ معترضا فيه وفى وسطه هنالك سدّ ياجوج وماجوج وقد ذكرناه وفى الناحية الشرقية من هذا الجزء ارض ماجوج ورآء جبل قوفايا على البحر قليلة العرض مستطيلة احاطت به من شرقه وشماله والجزء العاشر غمرة البحر جميعه هذا آخر الكلام على الجغرافيا واقاليمها السبعة وفى خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار آيات للعالمين

المقدّمة الثالثة فى المعتدل من الاقليم والمنحرف وتاثير الهواء فى الوان البشر والكثير من احوالهم

قد بيّنا ان المعمور من هذا المنكشف من الارض انّما هو وسطه الى الجانب الشمالى لافراط الحرّ فى الجنوب منه والبرد فى الشمال ولما كان الجانبان من الجنوب والشمال متضادّين فى البرد والحرّ وجب ان تتدرج الكيفيّة من كليهما الى الوسط فيكون معتدلا فالاقليم الرابع اعدل العمران

Digitized by Google

والذى حفافيه من الثالث والخامس اقرب الى الاعتدال والذى يليهما السادس والثانى بعيدان من الاعتدال والاول والسابع ابعد بكثير فلهذا كانت العلوم والصنايع والمبانى والملابس والاقوات والفواكه والحيوانات وجميع ما يتكوّن فى هذه الاقاليم الثلاثة المتوسّطه مخصوصة بالاعتدال وسكّانها من البشر اعدل اجساما والوانا واخلاقا واحوالا فتجدهم على غاية من التوسّط فى مساكنهم وملابسهم واقواتهم وصنايعهم يتّخذون البيوت المنجدة بالحجارة (1) المنمّقة بالصناعة ويتناغون فى استجادة الآلات والمواعين يذهبون فى ذلك الى الغاية وتوجد لديهم المعادن الطبيعيّة من الذهب والفضّة والحديد والنحاس والرصاص والقصدير ويتصرفون فى معاملاتهم بالنقدين العزيزين ويبعدون عن الانحراف فى عامّة احوالهم وهولاء اهل المغرب والشام والعراقين والسند والصين وكذلك الاندلس ومن قرب منها من الافرنجة والجلالقة ومن كان مع هولاء او قريبا منهم فى هذه الاقاليم المعتدلة ولهذا كان العراق والشام اعدل هذه كلها لانها وسط من جميع الجهات واما الاقاليم البعيدة من الاعتدال مثل الاول والثانى والسادس والسابع فاهلها ابعد من الاعتدال فى جميع احوالهم فبناؤهم بالطين والقصب واقواتهم من الذرّة والعشب

(1) Man. D. المتخذة من الحجارة.

Digitized by Google

وملابسهم من او راق الشجر يخصفونها عليهم او الجلود واكثرهم
عرايا من اللباس وفواكه بلادهم وادمها غريبة التكوين مايلة
الى الانحراق ومعاملاتهم بغير النقدين الشريفين من نحاس
او حديد او جلود يقدّرونها للمعاملات واخلاقهم مع ذلك
قريبة من خلق الحيوانات العجم حتى ينقل عن كثير من
السودان اهل الاقليم الاول انهم يسكنون فى الكهوف والغياض
وياكلون العشب وانّهم متوحّشون غير مستانسين وانهم
ياكلون بعضهم بعضا وكذلك الصقالبة والسبب فى ذلك
انهم لبعدهم عن الاعتدال يقرب عرض امزجتهم واخلاقهم (1)
من عرض الحيوانات العجم ويبعدون عن الانسانية بمقدار
ذلك وكذا احوالهم فى الديانة ايضا فلا يعرفون نبوة
ولا يدينون بشريعة الا من قرب منهم من جوانب الاعتدال
وهو فى الاقلّ النادر مثل الحبشة المجاورين لليمن الداينين
بالنصرانية فيما قبل الاسلام وما بعده لهذا العهد ومثل اهل
مالى وكوكو والتكرور المجاورين لارض المغرب الداينين
بالاسلام لهذا العهد يقال انهم دانوا به بالماية السابعة ومثل
من دان بالنصرانية من امم الصقالبة والافرنجة والترك فى
الشمال ومن سوى هولاء من اهل تلك الاقليم المنحرفة
جنوبا وشمالا فالدين مجهول عندهم والعلم مفقود بينهم

(1) Man. C. احوالهم.

Digitized by Google

وجميع احوالهم بعيدة من احوال الاناسى قريبة من احوال البهايم ويخلق ما لا تعلمون ولا يعترض على هذا القول بوجود اليمن وحضرموت والاحقاف وبلاد الحجاز واليمامة وما اليها من جزيرة العرب فى الاقليم الاول والثانى فان جزيرة العرب كلها احاطت بها البحار من الجهات الثلاث كما ذكرناه فكان لرطوبتها اثر فى رطوبة هوائيها فنقص ذلك من اليبس والانحراف الذى يقتضيه الحرّ وصار فيها بعض اعتدال برطوبة البحر وقد توهّم بعض النسّابين ممن لا علم لديه بطبايع الكاينات ان السودان هم ولد حام بن نوح اختصّوا بلون السواد لدعوة كانت من ابيه ظهر اثرها فى لونه وفيما جعل الله من الرقّ فى عقبه ودعاء نوح على ولده حام قد وقع فى التورية وليس فيه ذكر السواد وانّما دعا عليه بان يكون ولده عبيد لولد اخوته لا غير وفى القول بنسبة السواد الى حام غفلة عن طبيعة الحرّ والبرد واثرهما فى الهواء وفيما يتكون فيه من الحيوانات وذلك ان هذا اللون شمل اهل الاقليم الاول والثانى من مزاج هوائيهم للحرارة المتضاعفة بالجنوب فان الشمس تسامت رؤسهم مرّتين فى كل سنة قريبة احداهما من الاخرى فتطول المسامتة عامّة الفصول ويكثر الضوء لاجلها ويلج القيظ الشديد عليهم فتسودّ جلودهم لافراط الحرّ ونظير هذين الاقليمين فيما يقابلهما من الشمال الاقليم

Digitized by Google

السابع والسادس شمل سكّانهما ايضا البياض من مزاج
هوائهم للبرد المفرط بالشمال اذ الشمس لا تزال بافقهم فى
دايرة مرائى العين او ما قرب منها ولا ترتفع الى المسامتة
ولا ما قرب منها فيضعف الحرّ فيها ويشتدّ البرد عامّة
الفصول فتبيض الوان اهلها وتنتهى الى الزعورة ويتبع
ذلك ما يقتضيه مزاج البرد المفرط من زرقة العيون وبرش
الجلود وصهوبة الشعور وتوسّط بينهما الاقاليم الثلاثة الخامس
والرابع والثالث فكان لها فى الاعتدال الذى هو مزاج
المتوسّط حظّ وافر والرابع ابلغها فى الاعتدال غاية للنهاية
فى التوسّط كما قدّمناه فكان لاهله من الاعتدال فى خلقهم
وخُلقهم ما اقتضاه مزاج اهويتهم وتبعه من جانبيه الخامس
والثالث وان لم يبلغا نهاية التوسّط لميل هذا قليلا الى
الجنوب الحارّ وهذا قليلا الى الشمال البارد الا انهما لم
ينتهيا الى الانحراف وكانت الاقاليم الاربعة منحرفة واهلها
كذلك فى خَلقهم وخُلقهم فالاول والثانى للحرّ والسواد
والسادس والسابع للبرد والبياض وسمى سكّان الجنوب من
الاقاليم الاول والثانى باسم الحبشة والزنج والسودان اسماء
مترادفة على الامّة المتغيّرة بالسواد وان كان اسم الحبشة مختصّا
منهم بمن تجاه مكة واليمن والزنج بمن تجاه بحر الهند
وليست هذه الاسماء لهم من جهة انتسابهم الى ادمى اسود

Digitized by Google

لا حام ولا غيره وقد نجد من السودان اهل الجنوب من يسكن الرابع المعتدل والسابع المنحرف الى البياض فتبيض الوان اعقابهم على التدريج مع الايام وبالعكس فيمن يسكن من اهل الشمال او الرابع بالجنوب فتسودّ الوان اعقابهم وفى ذلك دليل على ان اللون تابع لمزاج الهواء قال ابن سينا فى ارجوزته فى الطبّ

بالزنج حرّ غيّر الاحسادا حتّى كسى جلودها سوادا
والصقلب (1) اكتست البياضا حتّى غدت جلودها بضاضا

واما اهل الشمال فلم يسموا باعتبار الوانهم لان البياض كان لونا لاهل تلك اللغة الواضعة للاسماء فلم تكن فيه غرابة تحمل على اعتباره فى التسمية لموافقته واعتياده ووجدنا سكّانه من الترك والصقالبة والطغرغر والخزر واللان والكثير من الافرنجة ويأجوج ومأجوج امما متفرقة واجيالا متعددة مسمين باسماء متنوّعة واما اهل الاقاليم المتوسّطة من اهل الاعتدال فى خَلقهم وخُلقهم وسيرهم وكافة الاحوال الطبيعية للاعتماد (2) لديهم من المعاش والمساكن والصنايع والعلوم والرياسات والملك فكانت فيهم النبوات والملل (3) والدول

(1) Man. C. et D. اكتست. Man. D. ابيضاصا.

(2) Man. C. et D. للاعتهار.

(3) Man. A. et B. الملك.!

Digitized by Google

والشرايع والعلوم والبلدان والامصار والمبانى والغراسة والصنايع الفايقة وساير الاحوال المعتدلة واهل هذه الاقاليم الذين وقفنا على اخبارهم مثل العرب والروم وفارس وبنى اسرائيل واليونانيين واهل السند والصين ولما راى النسّابون اختلاف هذه الامم بسماتها وشعايرها حسبوا ذلك لاجل الانساب فجعلوا اهل الجنوب كلهم السودان من ولد حام وارتابوا فى الوانهم فتكلّفوا نقل تلك الحكاية الواهية وجعلوا اهل الشمال كلهم او اكثرهم من ولد يافث واكثر الامم المعتدلة وهم اهل الوسط (1) المنتحلون للعلوم والصنايع والملل والشرايع والسياسة والملك من ولد سام وهذا الزعم وان صادف الحقّ فى انتساب هولاء فليس ذلك بقياس مطّرد انّما هو إخبار عن الواقع لا انّ تسمية اهل الجنوب بالسودان والحبشان من اجل انتسابهم الى حام الاسود وما ادّاهم الى هذا الغلط الّا اعتقادهم ان التمييز بين الامم انّما يقع بالانساب (2) فقط وليس كذلك فان التمييز للجيل او للامّة يكون بالنسب فى بعضهم كما للعرب وبنى اسرائيل والفرس ويكون بالجهة والسِمَة كما للزنج والحبشان والصقالبة والسودان ويكون بالعوايد والشعاير مع النسب كما للعرب ويكون بغير ذلك من احوال الامم وخواصّهم ومميّزاتهم

(1) Man. A. واسط.

(2) Man. A. et B. بالانساب.

Digitized by Google

فتعميم القول فى اهل جهة معينة من جنوب او شمال بانّهم من ولد فلان المعروف لما شملهم من لون او نحلة او سِمَة وجدت لذلك الاب انما هو من الاغاليط التى اوقع فيها الغفلة عن طبايع الاكوان والجهات وان هذه كلها تتبدّل فى الاعقاب ولا يجب استمرارها سنّة الله فى الاعقاب ولا يجب استمرارها سنّة الله فى عباده ولن تجد لسنّة الله تبديلا

المقدّمة الرابعة فى اثر الهواء فى اخلاق البشر

قد راينا من خُلق السودان على العموم الخفّة والطيش وكثرة الطرب فتجدهم مولعين بالرقص على كل توقيع موصوفين بالحمق فى كل قطر والسبب الصحيح فى ذلك انه تقرّر فى موضعه من الحكمة ان طبيعة الفرح والسرور هى انتشار الروح الحيوانى وتفشّيه وطبيعية الحزن بالعكس وهى انقباضه وتكاثفه وتقرّر ان الحرارة مفشّية للهواء والبخار مخلخلة له زايدة فى كمّيته ولهذا يجد المنتشى من الفرح والسرور ما لا يعبر عنه وذلك بما يداخل بخار الروح فى القلب من الحرارة الغريزية من التى تبعثها سورة الخمر فى الروح من مزاجه فيتفشّى الروح وتجئ طبيعة الفرح وكذلك نجد المتنعمين بالحمامات اذا تنفّسوا فى هوائها واتّصلت حرارة

Digitized by Google

الهواء بارواحهم فتسخّنت لذلك حدث لهم فرح وربّما انبعث الكثير منهم بالغناء الناشئ عن السرور ولما كان السودان ساكنين فى الاقليم الحار واستولى الحرّ على امزجتهم وفى اصل تكوينهم كان فى ارواحهم من الحرارة على نسبة ابدانهم واقليمهم فتكون ارواحهم بالقياس الى ارواح اهل الاقليم الرابع اشدّ حرارة (1) فتكون اكثر تفشّيا فتكون اسرع فرحا وسرورا واكثر انبساطا ويجئ الطيش على اثر هذه وكذلك يلحق بهم قليلا اهل البلاد البحرية (2) لما كان هواءها متضاعف الحرارة بما ينعكس عليه من اضواء بسيط البحر واشعّته كانت حصّتهم من توابع الحرارة فى الفرح والخفّة موجودة اكثر من بلاد التلول والجبال الباردة وقد نجد يسيرا من ذلك فى اهل البلاد الجريدية من الاقليم الثالث لتوفّر الحرارة فيها وفى هوائيها لانها عريقة فى الجنوب من الارياف والتلول واعتبر ذلك باهل مصر فانها فى مثل عرض البلاد الجريدية وقريبا منها كيف غلب الفرح عليهم والخفّة والغفلة عن العواقب حتى انهم لا يذخرون اقوات سنتهم ولا شهرهم وعامّة مأكلهم من اسواقهم ولما كانت فاس من بلاد المغرب بالعكس منها فى التوغّل فى التلول الباردة كيف ترى اهلها مطرقين اطراق

(1) Man. C. et D. حرّا.

(2) Man. A. et B. المنحرفة.

Digitized by Google

الحزن وكيف افرطوا فى نظر العواقب حتى ان الرجل منهم ليذخر اقوات سنين من حبوب الحنطة ويباكر الاسواق لشراء قوته ليومه مخافة ان يرزاء شياء من مدخره وتتبع ذلك فى الاقاليم والبلدان تجد فى الاخلاق اثرا من كيفيات الهواء والله الخلّاق العليم وقد تعرّض المسعودى للبحث عن السبب فى خفّة السودان وطيشهم وكثرة الطرب فيهم وحاول تعليله فلم يأت فيه بشئ اكثر من انه نقل عن جالينوس ويعقوب بن اسحق الكندى ان ذلك لضعف ادمغتهم وما نشاء عنه من ضعف عقولهم وهذا الكلام لا محصل له ولا برهان فيه والله يهدى من يشاء

المقدّمة الخامسة فى اختلاف احوال العمران فى الخصب والجوع وما ينشاء عن ذلك من الآثار فى ابدان البشر واخلاقهم

اعلم ان هذه الاقاليم المعتدلة ليس كلها يوجد له الخصب ولا كل سكّانها (1) فى رغد من العيش بل فيها ما يوجد لاهله خصب العيش من الحبوب والادم والحنطة والفواكه لزكاء المنابت واعتدال الطينة ووفور العمران وفيها الارض

(1) Man. A. et B. ساكنها.

Digitized by Google

الحرّة التى لا تنبت زرعا ولا عشبا بالجملة فسكّانها فى
شظف من العيش مثل اهل الحجاز واليمن ومثل
الملثمين من صنهاجة الساكنين بصحراء المغرب واطراف
الرمال فيما بين البربر والسودان فان هولاء يفقدون الحبوب
والادم جملة وانما اغذيتهم واقواتهم الالبان واللحوم ومثل
العرب الجايلين فى القفار فانهم وان كانوا ياخذون الحبوب
والادم من التلول الا ان ذلك فى الاحايين وتحت رقبة
من حاميتها وعلى الاقلال لقلّة وجدهم فلا يتوصّلون منه الا
الى سدّ الخلّة ودونها فضلا عن الرغد والخصب وتجدهم
يقتصرون فى غالب احوالهم على الالبان وتعوّضهم عن
الحنطة احسن معاض ونجد مع ذلك هولاء الفاقدين
للحبوب والادم من اهل القفار احسن حالا فى جسومهم
واخلاقهم من اهل التلول المنغمسين فى العيش فالوانهم
اصفى وابدانهم انقى واشكالهم اتمّ واحسن واخلاقهم ابعد
من الانحراف واذهانهم اثقب فى المعارف والادراكات هذا
امر تشهد له التجربة فى كل جيل منهم فكثير ما بين
العرب والبربر فيما وصفناه وبين الملثمين واهل التلول
يعرف ذلك من خبره والسبب فى ذلك والله اعلم ان
كثرة الاغذية ورطوباتها تولد فى الجسم فضلات ردئة ينشاء
عنها بعد اقطاره فى غير نسبة وكثرة الاخلاط الفاسدة العفنة

Digitized by Google

ويتبع ذلك انكساف الالوان وقبح الاشكال من كثرة
اللحم كما قلناه وتغطى الرطوبات على الاذهان والافكار
بما يصعد الى الدماغ من ابخرتها الرديّة فتجئ البلادة
والغفلة والانحراف عن الاعتدال بالجملة واعتبر ذلك فى
حيوان القفر ومواطن الجدب من الغزال والمهى والنعام
والزرافة والحمر الوحشية والبقر مع امثالها من حيوان التلول
والارياف والمراعى الخصبة كيف تجد بينها بونا بعيدا فى
صفاء اديمها وحسن رونقها واشكالها وتناسب اعضايها
وحدّة مداركها فالغزال اخو المعز والزرافة اخو البعير والحمار
والبقر هو الحمار والبقر والبون بينهما ما رايت وما ذلك
الا لاجل ان الخصب فى التلول فعل فى ابدان هذه من
الفضلات الرديّة والاخلاط الفاسدة ما ظهر عليها اثره والجوع
لحيوان القفر حسن فى خَلقها واشكالها ما شاء واعتبر ذلك
فى الادميين ايضا فانّا نجد اهل الاقاليم المخصبة العيش
الكثيرة الزرع والضرع والادم والفواكه يتّصف اهلها غالبا بالبلادة
فى اذهانهم والخشونة فى اجسامهم وهذا شاءن البربر
المنغمسين فى الادم والحنطة مع المتقشفين فى عيشهم
المقتصرين على الشعير او الذرّة مثل المصامدة منهم واهل
السوس وغمارة فتجد هولاء احسن حالا فى عقولهم وجسومهم
وكذلك اهل بلاد المغرب على الجملة المنغمسين فى

Digitized by Google

الادم والبرّ مع الاندلس المفقود بارضهم السمن جملة وغالب عيشهم الذرّة فتجد لاهل الاندلس من ذكاء العقل وخفّة الاجسام وقبول التعليم ما لا يوجد لهم وكذا اهل الضواحى من المغرب بالجملة مع اهل الحضر والامصار فان اهل الامصار وان كانوا مكثرين مثلهم من الادم ومخصبين فى العيش الا ان استعمالهم اياها بعد العلاج بالطبخ والتلطيف (1) بما يخلطون معها فيذهب لذلك غلظها ويرقّ قوامها وعامّة مآكلهم لحمان الضاءن والدجاج ولا يغبطون السمن من بين الادم لتفاهته فتقلّ الرطوبات لذلك فى اغذيتهم ويخفّ ما تودّيه لاجسامهم من الفضلات الرديئة فلذلك تجد جسوم اهل الامصار الطف من جسوم اهل البادية المخشنين فى العيش وكذلك نجد المتعوّدين للجوع من اهل البادية فانهم لا فضلات فى جسومهم غليظة ولا لطيفة واعلم ان اثر هذا الخصب ليظهر حتى فى حال الدين والعبادة فتجد المتقشفين من اهل البادية والحاضرة ممن ياخذ نفسه بالجوع والتجافى عن الملاذّ احسن دينا واقبالا على العبادة من اهل الترف والخصب بل نجد اهل الدين قليلين فى المدن والامصار لما يعمّها من القساوة والغفلة المتّصلة بالاكثار من اللحمان والادم ولباب البرّ ويختصّ وجود

(1) Man. C. التلطّف.

Digitized by Google

PROLÉGOMÈNES d'Ebn-Khaldoun.

العبّاد والزهّاد لذلك بالمتشفين فى غذائهم من اهل البوادى وكذلك نجد حال المدينة الواحدة فى ذلك يختلف باختلاف حالها فى الترف والخصب وكذلك نجد هولاء المخصبين العيش المنغمسين فى طيّباته لا من اهل البادية ولا من اهل الحاضرة والامصار اذا نزلت بهم السنون واخذتهم المجاعات يسرع اليهم الهلاك اكثر من غيرهم مثل برابرة المغرب واهل مدينة فاس ومصر فيما يبلغنا لا مثل العرب اهل القفر والصحراء ولا مثل اهل بلاد النخل الذين غالب عيشهم التمر ولا مثل اهل افريقية لهذا العهد الذين غالب عيشهم الشعير والزيت واهل الاندلس الذين غالب عيشهم الذرّة والزيت فان هولاء وان اخذتهم السنون والمجاعات فلا تنال منهم ما تنال من اولئك ولا يكثر فيهم الهلاك بالجوع بل ولا يندر والسبب فى ذلك والله اعلم ان المنغمسين فى الخصب المتعوّدين للادم والسمن خصوصا تكتسب معاهم رطوبة فوق رطوبتها الاصلية المزاجيّة حتى تجاوز حدّها فاذا خولف بها العادة بقلّة الاقوات وفقدان الادم واستعمال الخشن غير المألوف من الغذاء اسرع الى المعاء اليبس والانكماش وهو عضو ضعيف فى الغاية ولهذا عُدّ فى المقاتل فيسرع اليه المرض ويهلك صاحبه بسرعة فالهالكون فى المجاعات انّما قتلهم

Digitized by Google

الشبع المعتاد السابق لا الجوع اللاحق واما المتعوّدون للعيمة
وترك الادم والسمن فلا تزال رطوبتهم الاصلية واقفة عند
حدّها من غير زيادة وهى صالحة على جميع الاغذية الطبيعية
فلا يقع فى معاهم بتبدّل الاغذية يبس ولا انحراف فيسلمون
فى الغالب من الهلاك الذى يعرض لغيرهم بالخصب
وكثرة الادم فى المآكل واصل هذا كله ان تعلم ان الاغذية وايلافها
او تركها انما هو بالعادة فمن عوّد نفسه غذاء ولايه تناوله كان
له مألوفا وصار الخروج عنه والتبدّل به داء ما لم يخرج عن
عرض الغذاء بالجملة كالسموم والينوع وما افرط فى الانحراف
فاما ما وجد فيه التغذّى والملايمة فيصير غذاء مألوفا
بالعادة فاذا اخذ الانسان نفسه باستعمال اللبن والبقل عوضا
عن الحنطة والحبوب حتى صار له ديدنا فقد حصل له
ذلك غذاء واستغنى به عن الحنطة والحبوب من غير شكّ
وكذا من عوّد نفسه الصبر على الجوع والاستغناء عن الطعام
كما ينقل عن اهل الرياضات فانّا نسمع عنهم فى ذلك
اخبارا غريبة يكاد ينكرها من لا يعرفها والسبب فى ذلك
العادة فان النفس اذا الفت شيئا صار من خلقها وجبلّتها
وطبيعتها لانها كثيرة التلوّن فاذا حصل لها اعتياد الجوع
بالتدريج والرياضة فقد حصل ذلك عادة وطبيعة لها وما
يتوهّمه الاطبّاء من ان الجوع مهلك فليس على ما يتوهّمونه

Digitized by Google

PROLÉGOMÈNES d'Ebn-Khaldoun.

الا اذا حملت النفس عليه دفعة وقطع عنها الغذاء بالكلية
فحينئذ ينحسم (1) المعا ويناله المرض الذى يخشى معه الهلاك
واما اذا كان ذلك تدريجا ورياضة باقلال الغذاء شيًا فشيًا
كما يفعله المتصوّفة فهو بمعزل عن الهلاك وهذا التدريج
ضرورى حتى فى الرجوع عن هذه الرياضة فانه اذا رجع الى
الغذاء الاول دفعة خيف عليه الهلاك وانما يرجع به كما
بدئ فى الرياضة بالتدريج ولقد شاهدنا من يصبر على
الجوع اربعين يوما وصالا واكثر وحضر اشياخنا فى دولة
السلطان ابى الحسن وقد رفع اليه امراءتان من اهل
الجزيرة الخضراء ورندة حسبتا انفسهما عن الاكل جملة
من سنين (2) وشاع امرهما ووقع اختبارهما فصحّ شأنهما
واتّصل على ذلك حالهما الى ان ماتتا ورأينا كثيرا من
اصحابنا ايضا من يقتصر على حليب شاة من المعز يلتقم
ثديها فى بعض النهار او عند الافطار ويكون ذلك غذاؤه
واستدام على ذلك خمس عشرة سنة وغيرهم كثير
ولاتستنكرن ذلك واعلم ان الجوع اصلح للبدن من اكثار
الاغذية بكل وجه لمن قدر عليه او على الاقلال منها وان له
اثرا فى الاجسام والعقول فى صفايها (3) وصلاحها كما قلنا واعتبر
ذلك بآثار الاغذية التى تحصل عنها فى الجسوم فقد

(1) Man. C. et D. يتحسم. (2) Man. A. et B. سنتين. (3) Man. A. et B. صقاها.

Digitized by Google

راينا المغتذين بلحوم الحيوانات الفاخرة العظيمة الجثمان تنشاء اجيالهم كذلك وهذا مشاهد فى اهل البادية مع اهل الحاضرة وكذا المغتذون بالبان الابل ولحومها ايضا مع ما يؤثر فى اخلاقهم من الصبر والاحتمال والقدرة على حمل الاثقال كما هو للابل وتنشأ معاهم ايضا على نسبة معا الابل فى الصحّة والغلظ فلا يطرقها الوهن ولا الضعف ولا ينالها من مضارّ الاغذية ما ينال غيرهم فيشربون اليتوعات لاستطلاق بطونهم غير محجوبة كالحنظل قبل نضجه والدرياس والفربيون ولا ينال معاهم منها ضرر وهى لو تناولها اهل الحضر الرقيقة معاهم بما نشأت عليه من لطيف (1) الاغذية لكان الهلاك اسرع اليهم من طرفة العين لما فيها من السمّيّة ومن تأثير الاغذية فى الابدان ما ذكره اهل الفلاحة وشاهده اهل التجربة ان الدجاج اذا غذيت بالحبوب الهطبوخة فى بعر الابل واتّخذ بيضها ثم حضّنت عليه جاء الدجاج منها اعظم ما يكون وقد يستغنون عن تغذيتها وطبخ الحبوب بطرح ذلك البعر (2) مع البيض المحضن فتجىء دجاجها فى غاية العظم وامثال ذلك كثيرة فاذا راينا هذه الآثار من الاغذية فى الابدان فلا شك ان للجوع ايضا آثار فى الابدان لان الضدّين على نسبة واحدة فى التأثير وعدمه

(1) Man. A. et B. لطف.

(2) Man. A. et B. البعض.

Digitized by Google

فيكون تأثير الجوع فى نقاء الابدان من الزيادات الفاسدة والرطوبات المختلطة بالجسم والعقل كما كان الغذاء مؤثرا فى وجود ذلك الجسم والله محيط بعلمه

المقدّمة السادسة فى اصناف المدركين للغيب من البشر بالفطرة او بالرياضة ويتقدّمه الكلام فى الوحى والرويا

اعلم ان الله سبحانه اصطفى من البشر اشخاصا فضّلهم بخطابه وفطرهم على معرفته وجعلهم وسايل بينه وبين عباده يعرفونهم بمصالحهم ويحرصون على هدايتهم وياخذون بحجزاتهم عن النار ويدلّونهم على طريق النجاة وكان فيما يلقيه اليهم من المعارف ويظهره على السنتهم من الخوارق الاخبار بوقوع الكاينات المغيبة عن البشر التى لا سبيل الى معرفتها الا من الله بوساطتهم ولا يعلمونها الا بتعليم الله اياهم قال صلى الله عليه وسلم الا وانى لا اعلم الا ما علّمنى الله واعلم ان خبرهم فى ذلك من خاصّته وضرورية الصدق لما يتبيّن لك عند بيان حقيقة النبوة وعلامة هذا الصنف من البشر ان يوجد لهم فى حال الوحى غيبة عن الحاضرين مع غطيط كانّها غشى او اغماء فى رائى العين وليست منهما فى شئ انما هى بالحقيقة استغراق فى لقاء الملك الروحانىّ بادراكهم المناسب لهم الخارج عن مدارك البشر بالكلّيّة ثم

Digitized by Google

يتنزّل الى المدارك البشريّة امّا بسماع دوى من الكلام
فيتفهّمه او يتمثّل له صورة شخص يخاطبه بما جاء به من
عند الله ثم تنجلى عنه تلك الحال وقد وعى ما القى
عليه قال صلى الله عليه وسلم قد سُئل عن الوحى احيانا
ياتينى مثل صلصلة الجرس وهو اشدّ علىّ فيفصم عنّى وقد
وعيت ما قال واحيانا يتمثّل لى الملك رجلا فيكلمنى فاعى
ما يقول ويدركه اثناء ذلك من الشدّة والغطّ ما لا يعبر عنه
ففى الحديث كان مما يعالج من التنزيل شدة وقالت
عايشة كان ينزل عليه الوحى فى اليوم الشديد البرد فيفصم
عنه وان جبينه ليتفصّد عرقا وقال تعالى انّا سنلقى عليك
قولا ثقيلا ولاجل هذه الحالة فى تنزّل الوحى كان المشركون
يرمون الانبياء بالجنون ويقولون له رائ او تابع من الجنّ
وانما لبس عليهم بما شاهدوه من ظاهر تلك الحال ومن
يضلل الله فما له من هاد ومن علاماتهم ايضا انه يوجد لهم
قبل الوحى خلق الخير والذكاء ومجانبة المذمومات والرجس
اجمع وهذا هو معنى العصمة وكانّه مفطور على التنزّه عن
المذمومات والمنافرة لها وكانّها منافية لجبلّته وفى الصحيح
انه حمل الحجارة وهو غلام مع عمّه العباس لبناء الكعبة فجعلها
فى ازاره فانكشف فسقط مغشيا عليه حتى استتر بازاره
ودعى الى مجمع لوليمة وفيها عرس ولعب فاصابه غشى النوم

Digitized by Google

الى ان طلعت الشمس ولم يحضر مشيًا من شأنهم بل نزّهه
الله تعالى عن ذلك بجبلّته حتى انه ليتنزّه عن المطعومات
المستكرهة فقد كان صلى الله عليه وسلم لا يقرب البصل
ولا الثوم فقيل له فى ذلك فقال انّى اناجى من
لا تناجون وانظر لما اخبر النبئ صلى الله عليه وسلم
خديجة بحال الوحى اول ما فجيئه وارادت اختباره فقالت
له اجعلنى بينك وبين ثوبك فلما فعل ذلك ذهب
عنه فقالت انه ملك وليس بشيطان ومعناه انه لا يقرب
النساء وكذا سألته عن احبّ الثياب اليه ان ياتيه فيها فقال
البياض والخضرة فقالت انه الملك بمعنى ان الخضرة
والبياض من الوان الخير والملائكة والسواد من الوان الشرّ
والشياطين وامثال ذلك (ومن) علاماتهم ايضا دعاؤهم الى
الدين والعبادة من الصلاة والصدقة والعفاف وقد استدلّت
خديجة على صدقه صلى الله عليه وسلم بذلك وكذلك
ابو بكر ولم يحتاجا فى امره الى دليل خارج عن حاله
وخلقه وفى الصحيح ان هرقل حين جاءه كتاب النبئ
صلى الله عليه وسلم يدعوه الى الاسلام احضر من وجد
ببلده من قريش وفيهم ابو سفيان ليسألهم عن حاله فكان
فيما سأل ان قال بِم يامركم فقال ابو سفيان بالصلاة والزكاة
والصلة والعفاف الى آخر ما سأل واجابه فقال ان يكن ما

Digitized by Google

يقول حقّا انه نبئ وسيملك ما تحت قدمىّ هاتين
والعفاف الذى اشار اليه هرقل هو العصمة فانظر كيف اخذ
من العصمة والدعاء الى الدين والعبادة دليلا على صحّة النبوة
ولم يحتج الى معجزة فدلّ على ان ذلك من علامات
النبوة (ومن) علاماتهم ايضا ان يكونوا ذوى حسب فى قومهم
وفى الصحيح ما بعث الله نبيا الا فى منعة من قومه وفى
رواية اخرى فى ثروة من قومه استدركه الحاكم على الصحيحين
وفى مسائلة هرقل لابى سفيان كما هو فى الصحيح قال
كيف هو فيكم فقال ابو سفيان هو فينا ذو حسب فقال هرقل
والرسل تبعث فى احساب قومهم ومعناه ان تكون له
عصبية (1) وشوكة تمنعه من اذى الكفّار حتى يبلغ رسالات
ربّه ويتمّ مراد الله من اكمال دينه وملته (ومن) علاماتهم ايضا
وقوع الخوارق لهم شاهدة بصدقهم وهى افعال تعجز البشر
عن مثلها فسميت معجزة وليست من جنس مقدور العباد
وانّما تقع فى غير محلّ قدرتهم وللناس فى كيفية وقوعها
ودلالتها على تصديق الانبياء خلاف فالمتكلّمون بناء على
القول بالفاعل المختار قايلون بانّها واقعة بقدرة الله تعالى
لا بفعل النبئ وان كانت افعال العباد عند المعتزلة صادرة عنهم
الّا ان المعجزة لا تكون من جنس افعالهم وليس للنبئ فيها

(1) Man. D. عصبة.

Digitized by Google

PROLÉGOMÈNES d'Ebn-Khaldoun.

عند الجميع الّا التحدّى بها باذن الله تعالى وهو ان يستدلّ
بها النبئ قبل وقوعها على صدقه فى مدّعاه فتنزل منزلة
القول الصريح من الله بانّه صادق وتكون دلالتها على
الصدق قطعيّة فالمعجزة الدالّة مجموع الخارق والتحدّى
ولذلك كان التحدّى جزءا منها وعبارة المتكلمين صفة
نفسها وهو واحد. لانه معنى الذاتّى عندهم والتحدّى هو
الفارق بينها وبين الكرامة والسحر إذ لا حاجة فيهما الى
التصديق فلا وجود للتحدّى الا وجد اتّفاقا وان وقع التحدّى
فى الكرامة عند من يجيزها وكانت لها دلالة فانّما هى على
الولاية وهى غير النبوة ومن هنا منع الاستاذ ابو اسحق وغيره
وقوع الخوارق كرامة فرارا من الالتباس بالنبوة عند التحدّى
بالولاية وقد ارينك المغايرة بينهما وانّه يتحدّى لغير ما
يتحدّى به النبئ فلا لبس على ان النقل عن الاستاذ ليس
صريحا وربّما حمل على انكار ان يقع خوارق الانبياء لهم
بناء على اختصاص كلّ من الفريقين بخوارقه وامّا المعتزلة
فالمانع من وقوع الكرامة عندهم ان الخوارق ليست من
افعال العباد وافعالهم معتادة فلا خارق واما وقوعها على يد
الكاذب تلبيسا فهو محال امّا عند الاشعريّة فلانّ صفة
نفس المعجزة التصديق والهداية فلو وقعت بخلاف ذلك
انقلب الدليل شبهة والهداية ضلالة واقول والتصديق كذبا

Digitized by Google

واستحالت الحقايق وانقلبت صفات النفس وما يلزم من
فرض وقوعه المحال لا يكون ممكنا وامّا عند المعتزلة فلانّ
وقوع الدليل شبهة والهداية ضلالة قبيح فلا يقع من الله وامّا
الحكماء فالخارق عندهم من فعل النبئ ولو كان فى غير
محلّ القدرة بناء على مذهبهم فى الايجاب الذاتىّ ووقوع
الحوادث بعضها عن بعض متوقّف على الشروط والاسباب
الحادثة مستندة اخيرا الى الواجب بالذات الفاعل بالذات
لا بالاختيار وان النفس النبويّة عندهم لها خواصّ ذاتيّة منها
صدور هذه الخوارق بقدرته وطاعة العناصر له فى التكوين
والنبئ عندهم مجبول على التصريف فى الاكوان متى توجّه
اليها واستجمع لها بما جعل الله له من ذلك والخارق
عندهم يقع للنبئ كان التحدّى او لم يكن وهو شاهد بصدقه
من حيث دلالته على تصرّف النبئ فى الاكوان الذى
هو من خواصّ النفس النبويّة عندهم لا بانّه يتنزّل منزلة القول
الصريح بالتصديق فلذلك لا تكون دلالتها قطعيّة كما هى
عند المتكلمين ولا يكون التحدّى جزءا من المعجزة ولم يصح
فارقا لها عن السحر والكرامة وفارقها عندهم عن السحر ان
النبئ مجبول على افعال الخير مصروف عن افعال الشرّ
فلا يُتمّ الشرّ بخوارقه والساحر على الضدّ فافعاله كلّها شرّ وفى
مقاصد الشرّ وفارقها عن الكرامة ان خوارق النبئ مخصوصة

Digitized by Google

كصعود السماء والنفوذ فى الاجسام الكثيفة واحياء الموتى وتكليم الملائكة والطيران فى الهواء وخوارق الولىّ دون ذلك كتكثير القليل والتحديث عن بعض المستقبل وامثاله مما هو قاصر عن تصريف الانبياء وياتى النبىء بمثل خوارقه ولا يقدر هو على مثل خوارق الانبياء وقد قرّر ذلك المتصوّفة فيما كتبوه فى طريقتهم ونقلوه عن مواجدهم (1) واذا تقرّر ذلك فاعلم ان اعظم المعجزات واشرفها واوضحها دلالة القران الكريم المنزل على نبيّنا صلوات الله وسلامه عليه لانّ الخوارق فى الغالب تقع مغايرة للوحى الذى يتلقّاه النبىء وتاتى المعجزة شاهدة به وهذا ظاهر والقران هو بنفسه الوحى المدّعا (2) وهو الخارق المعجز ودلالته فى عينه ولا يفتقر الى دليل اجنبىّ عنه كساير الخوارق مع الوحى فهو اوضح دلالة لاتّحاد الدليل والمدلول فيه وهذا معنى قوله صلى الله عليه وسلم ما من نبىء من الانبياء الّا واوتى من الآيات ما مثله امن عليه البشر وانّما كان الذى اوتيته وحيا اوحى الىّ فانا ارجو ان اكون اكثرهم تابعا يوم القيمة يشير الى ان المعجزة متى كانت بهذه المثابة فى الوضوح وقوّة الدلالة وهو كونها نفس الوحى كان المصدق لها اكثر لوضوحها فكثر المصدق والمؤمن وهم التابع والامّة والله سبحانه اعلم ويدلك هذا

(1) Man. D. لقوة عمّن اخبرهم.

(2) Man. D. المدعى.

Digitized by Google

كله على انّ القران من بين الكتب الالهيّة انّما تلقّاه نبيّنا
صلوات الله وسلامه عليه متلوا كما هو بكلماته وتراكيبه
بخلاف التوراة والانجيل وغيرهما من الكتب السماويّة فانّ
الانبياء يتلقّونها فى حال الوحى معانى ويعبرون عنها بعد
رجوعهم الى الحالة البشريّة بكلامهم المعتاد لهم ولذلك
لم يكن فيها اعجاز فاختصّ الاعجاز بالقران وتلقّيهم لكتبهم
مثلها يتلقّى نبيّنا المعانى التى يسندها الى الله تعالى كما
يقع فى كثير من رواية الاحاديث قال صلى الله عليه
وسلم فيما يحكى عن ربّه ويشهد لتلقّيه القران متلوا قوله
لاتحرك به لسانك لتعجل به ان علينا جمعه وقرانه
وسبب نزولها ما كان يقع له من بداره الى تدارس الآية
خشية من النسيان وحرصا الى حفظ ذلك المتلو المنزّل
فتكفّل الله له بحفظه بقوله انّا نحن نزلنا الذكر وانّا له
لحافظون هذا هو معنى الحفظ الذى اختصّ به القران لا ما
ذهب اليه العامّة فانّه بمعزل عن المراد وكثير من الآى يشهد
لك بانه نزّل قرانا متلوا معجزا بسورة منه ولم يقع لنبينا
صلوات الله عليه من المعجزات اعظم منه ومن ايلاف العرب
على دعوته لو انفقت ما فى الارض جميعا ما الفت بين
قلوبهم ولكن الله الف بينهم فاعلم هذا وتذكره تجده صحيحا
كما قررت لك وتامّل ما يشهد لك به من ارتفاع

Digitized by Google

PROLÉGOMÈNES d'Ebn-Khaldoun.

رتبته على الانبياء وعلو مقامه صلى الله عليه وسلم
(ولنذكر الآن تفسير حقيقة النبوة) على ما شرحه كثير من
المحقّقين ثم نذكر حقيقة الكهانة ثم الرويا ثم شأن العرّافين وغير
ذلك من مدارك الغيب فنقول اعلم ارشدنا الله واياك انّا
نشاهد هذا العالم بما فيه من المخلوقات كلها على هيئة من
الترتيب والاحكام وربط الاسباب بالمسبّبات واتّصال الاكوان
بالاكوان واستحالة بعض الموجودات الى بعض لا تنقضى
عجايبه فى ذلك ولا تنتهى غاياته وابدأ من ذلك
بالعالم المحسوس الجسمانى واولا عالم العناصر المشاهد كيف
تدرّج صاعدا من الارض الى الماء ثم الى الهواء ثم الى النار
متّصلا بعضها ببعض وكل واحد منها مستعدّ ان يستحيل
الى ما يليه صاعدا وهابطا ويستحيل بعض الاوقات والصاعد
منها الطف مما قبله الى ان ينتهى الى عالم الافلاك وهى
الطف من الكل وعلى طبقات اتّصل بعضها ببعض على
هيئة لا يدرك الحسن منها الا الحركات فقط وبها يهتدى
بعضهم الى معرفة مقاديرها واوضاعها وما بعد ذلك من
وجود الذوات التى لها هذه الآثار فيها ثم انظر الى عالم
التكوين كيف ابتدأ من المعادن ثم النبات ثم الحيوان على
هيئة بديعة من التدريج آخر افق المعادن متّصل باول افق
النبات مثل الحشايش وما لا بزر له وآخر افق النبات مثل

Digitized by Google

النخل والكرم متّصل باول افق الحيوان كالحلزون والصدف
لم توجد لهما الا قوة اللمس فقط ومعنى الاتّصال فى هذه
المكونات ان آخر افق منها مستعدّ بالاستعداد القريب لان
يصير اول افق من الذى بعده واتّسع عالم الحيوان وتعددت
انواعه انتهى فى تدريج (1) التكوين الى الانسان صاحب
الفكر والروية يرتفع اليه من عالم القردة الذى استجمع فيه
الكيس والادراك ولم ينته الى الروية والفكر بالفعل وكان
ذلك فى اول افق من الانسان بعده وهذا غاية شهودنا ثم
انّا نجد فى العوالم على اختلافها آثارا متنوّعة ففى عالم
الحسّ آثار من حركة الافلاك والعناصر وفى عالم التكوين آثار
من حركات النمو والادراك تشهد كلها بان لها مؤثرا مباينا
للاجسام فهو روحانىّ ومتّصل بالمكونات لوجود اتّصال هذه
العوالم فى وجودها وذلك هو النفس المدركة المحرّكة ولا بدّ
فوقها من موجود اخر يعطيها قوى الادراك والحركة ويتّصل
بها ايضا وتكون ذواته ادراكا صرفا وتعقّلا محضا وهو عالم
الملائكة فوجب من ذلك ان يكون النفس استعداد
للانسلاخ من البشرية الى الملكية لتصير بالفعل من جنس
الملائكة وقتا من الاوقات وفى لمحة من اللمحات وذلك
بعد ان تكمل ذاتها الروحانيّة بالفعل كما نذكره بعد ويكون

(1) Man. A. et B. تدرّج.

Digitized by Google

PROLÉGOMÈNES d'Ebn-Khaldoun.

لها اتّصال بالافق الذى بعدها شأن الموجودات المترتّبة كما قدّمناه فلها فى الاتّصال جهتا العلوّ والسفل هى متّصلة بالبدن من اسفل (1) منها ومكتسبة به المدارك الحسّيّة التى تستعدّ بها للحصول على التعقّل بالفعل ومتّصلة من جهة الاعلا منها بافق الملائكة ومكتسبة منه المدارك العلميّة والغيبيّة فان علم الحوادث موجود فى ذواتهم من غير زمان وهذا على ما قدّمناه من الترتيب المحكم فى الوجود باتّصال ذواته وقوة بعضها ببعض ثم ان هذه النفس الانسانية غايبة عن العيان وآثارها ظاهرة فى البدن وكانّه وجميع اجزايه مجتمعة ومتفرّقة آلات للنفس ولقواها اما الفاعلة فالبطش باليد والمشى بالرجل والكلام باللسان والحركة الكلّيّة بالبدن متدافعا واما المدركة وان كانت قوى الادراك مترتّبة ومرتقية الى القوة العليا منها وهى المفكرة التى يعبّرون عنها بالناطقة فقوى الحسّ الظاهر بآلاته من البصر والسمع وسايرها ترتقى الى الباطن واوله الحسّ المشترك وهو قوة تدرك المحسوسات مبصرة ومسموعة وملموسة وغيرها فى حالة واحدة وبذلك فارقت قوة الحسّ الظاهر لانّ المحسوسات لا تزدحم عليها فى الوقت الواحد ثم يوديه الحسّ المشترك الى الخيال وهو قوة تمثل الشئ المحسوس

(1) Man. C. بالذى اسفل.

Digitized by Google

فى النفس كما هو مجرّدا عن المواد الخارجة فقط وآلة هاتين القوتين فى تصرّفهما البطن الاول من الدماغ مقدّمة للاولى ومؤخّرة للثانية ثم يرتقى الخيال الى الوهميّة والحافظة فالوهميّة لادراك المعانى المتعلّقة بالشخصيّات كعداوة زيد وصداقة عمرو ورحمة الاب وافتراس الذئب والحافظة لايداع المدركات كلها متخيّلة وغير متخيّلة وهى لها كالخزانة تحفظها الى وقت الحاجة اليها وآلة هاتين القوتين فى تصرّفهما البطن المؤخّر من الدماغ اوله للاخرى ومؤخره للاخرى ثم يرتقى جميعها الى قوة الفكر وآلته البطن الاوسط من الدماغ وهو القوة التى تقع بها حركة الروية (1) والتوجّه نحو التعقّل تتحرّك النفس بها دايما بما ركب فيها من النزوع الى ذلك لتخلّص من درك القوة والاستعداد الذى للبشريّة وتخرج الى الفعل فى تعقّلها متشبّهة بالملا الاعلى الروحانىّ وتصير فى اول مراتب الروحانيات فى ادراكها بغير الآلات الجسمانيّة فهى متحرّكة دايما ومتوجّهة نحو ذلك وقد تنسلخ بالكلّيّة من البشريّة وروحانيّتها الى الملكيّة من الافق الاعلى من غير اكتساب بل بما جعل الله فيها من الجبلّة والفطرة الاولى فى ذلك والنفوس البشريّة فى ذلك على ثلاثة اصناف صنف عاجز بالطبع من الوصول الى الادراك

(1) Man. D. الرويا.

Digitized by Google

PROLÉGOMÈNES d'Ebn-Khaldoun.

الروحانى فيقنع بالحركة الى الجهة السفلى نحو المدارك الحسّيّة والخياليّة وتركيب المعانى من المحافظة الوهميّة على قوانين محصورة وترتيب خاص يستفيدون به العلوم التصوّريّة (1) والتصديقيّة (2) التى للفكر فى البدن وكلها خيالىّ منحصر نطاقه اذ هو من جهة مبدئه ينتهى الى الاوّليّات ولا يتجاوزها وان فسدت فسد ما بعدها وهذا هو فى الاغلب نطاق الادراك البشرىّ الجسمانىّ واليه تنتهى مدارك العلماء وفيه ترسخ اقدامهم وصنف متوجّه بتلك الحركة الفكريّة نحو التعقّل الروحانىّ والادراك الذى لا يفتقر الى آلات البدن بما جعل فيه من الاستعداد لذلك فيتّسع نطاق ادراكه عن الاوّليّات التى هى نطاق الادراك الاول البشرىّ ويسرح فى فضاء المشاهدات الباطنة وهى وجدان كلها لانطاق لها من مبدئها ولا من منتهاها وهذه مدارك الاولياء اهل العلوم اللدنيّة والمعارف الربانيّة وهى الحاصلة بعد الموت لاهل السعادة فى البرزخ وصنف مفطور على الانسلاخ من البشريّة جملة جسمانيها وروحانيها الى الملكيّة من الافق الاعلى ليصير فى لمحة من اللمحات ملكا بالفعل ويحصل له شهود الملاء الاعلى فى افقهم وسماع الكلام النفسانىّ والخطاب الآلهى فى تلك اللمحة وهولاء هم

(1) Man. B. التصويرية.

(2) Man. D. التصريفيّة.

Digitized by Google

الانبياء صلوات الله عليهم جعل الله لهم الانسلاخ من البشريّة
فى تلك اللمحة وهى حالة الوحى فطرة فطرهم عليها
وجبلّة صوّرهم فيها ونزّههم عن موانع البدن وعوايقه ما داموا
ملابسين لها بالبشريّة بما ركب فى غرايزهم من العصمة
والاستقامة التى يحاذون بها تلك الوجهة وركز فى طبايعهم
رغبة فى العبادة تكتنف (1) بتلك الوجهة وتشيّع نحوها
فهم يتوجّهون الى ذلك الافق بذلك النوع من الانسلاخ
متى شاؤا بتلك الفطرة التى فطروا عليها لا باكتساب
ولا صناعة فاذا توجّهوا وانسلخوا عن بشريّتهم وتلقّوا فى
ذلك الملاء الاعلى ما يتلقّوه عاجوا به على المدارك البشريّة
متنزّلا فى قواها لحكمة التبليغ للعباد فتارة بسماع دوى كانه
رمز من الكلام ياخذ منه المعنى الذى القى اليه فلا ينقضى
الدوى الا وقد وعاه وفهمه وتارة يتمثّل له الملك الذى
يلقى اليه رجلا فيكلمه ويعى ما يقوله والتلقّى من الملك
والرجوع على المدارك البشريّة وفهمه ما القى عليه كله كانّه
فى لحظة واحدة بل اقرب من لمح البصر لانه ليس فى
زمان بل كلها تقع جميعها فتظهر كانّها سريعة ولذلك
سمّيت وحيا لان الوحى فى اللغة الاسراع (واعلم) ان الاولى
وهى حالة الدوى هى رتبة الانبياء غير المرسلين على ما

(1) Man. A. et D. تكشف.

Digitized by Google

حقّقوه والثانية وهى حالة تمثّل الملك رجلا يخاطب هى
رتبة الانبياء المرسلين ولذلك كانت اكمل من الاولى وهذا
معنى الحديث الذى فسّر فيه النبئ صلى الله عليه وسلم
لها سأله الحرث بن هشام وقال كيف ياتيك الوحى
فقال احيانا ياتينى مثل صلصلة الجرس وهو اشدّ علىّ
فيفصم عنّى وقد وعيت ما قال واحيانا يتمثّل لى الملك
رجلا فيكلمنى فاعى ما يقول وانما كانت الاولى اشدّ لانّها
مبدأ الخروج فى ذلك الاتّصال من القوة الى الفعل
فيعسر بعض العسر ولذلك لما عاج فيها على المدارك
البشريّة اختصّت بالسمع وصعب ما سواه وعند ما يتكرّر
الوحى ويكثر التلقّى يسهل ذلك الاتّصال فعند ما يعوج
الى المدارك البشريّة ياتى على جميعها وخصوصا الاوضح
منها وهو ادراك البصر وفى العبارة عن الوحى فى الاول بصيغة
الماضى وفى الثانية بصيغة المضارع لطيفة من البلاغة وهى
ان الكلام جاء مجئ التمثيل لحالتى الوحى فتمثّلت الحالة
الاولى بالدوى الذى هو فى المتعارف غير كلام واخبر ان
الفهم والوعى يتبعه غبّ انقضايه فناسب عند تصوير انقضايه
وانفصاله العبارة عن الوعى بالماضى المطابق للانقضاء
والانقطاع ومثل الملك فى الحالة الثانية برجل يخاطب
ويتكلم والكلام يساوقه الوعى فناسب العبارة بالمضارع

Digitized by Google

المقتضى للتجدّد واعلم ان فى حالة الوحى كلها على
الجملة صعوبة وشدّة قد اشار اليها القران قال تعالى انّا
سنلقى عليك قولا ثقيلا وقالت عايشة كان مما يعانى من
التنزيل شدّة وقالت كان ينزل عليه الوحى فى اليوم الشديد
البرد فينفصم عنه وان جبينه ليتفصّد عرقا ولذلك ما كان
يحدث عنه فى تلك الحالة من الغيبة والغطيط ما هو
معروف وسبب ذلك ان الوحى كما قررناه مفارقة البشريّة
الى المدارك الملكيّة وتلقى كلام النفس فتحدث عنه شدّة
من مفارقة الذات ذاتها وانسلاخها عنها من افقها الى
ذلك الافق الاخر وهذا هو معنى الغطّ الذى عبّر به فى
مبدء الوحى فى قوله فغطنى حتّى بلغ منّى الجهد ثم
ارسلنى فقال اقرأ قلت ما انا بقارئ وكذا ثانية وثالثة كما
فى الحديث وقد يفضى الاعتياد فيه بالتدريج شيئا فشيئا الى
بعض السهولة بالقياس الى ما قبله ولذلك كان تنزل
نجوم القران وسوره وآياته حين كان بمكّة اقصر منها وهو
بالمدينة وانظر الى ما نقل فى نزول سورة برآة
فى غزوة تبوك وانّها انزلت او اكثرها عليه وهو يسير على
ناقته بعد ان كان بمكّة ينزل عليه بعض السورة من قصار
المفصل فى وقت وينزل الباقى فى حين اخر وكذلك
كان من آخر ما نزل بالمدينة آية الدين وهى ما هى فى

Digitized by Google

الطول بعد ان كانت الآيات تنزل بمكّة مثل آيات سورة الرحمن والذاريات والمدثر والضحى والعلق وامثالها واعتبر من ذلك علامة تميز بها بين المكّى والمدنىّ من السور والآيات والله المرشد للصواب هذا محصل امر النبوّة (واما الكهانة) فهى ايضا من خواصّ النفس الانسانيّة وذلك انه قد تقدّم لنا فى جميع ما مرّ ان للنفس الانسانية استعدادا للانسلاخ عن البشريّة الى الروحانيّة التى فوقها وانه يحصل من ذلك لمحة للبشر فى صنف الانبياء عليهم السلام بما فطروا عليه من ذلك وتقرّر انه يحصل لهم من غير اكتساب ولا استعانة شئ من المدارك ولا من التصوّرات ولا من الافعال البدنيّة كلاما او حركة ولا بامر من الامور انّما هو انسلاخ من البشريّة الى الملكيّة بالفطرة فى لحظة اقرب من لمح البصر واذا كان ذلك وكان الاستعداد موجودا فى الطبيعة البشريّة فيعطى التقسيم العقلىّ ان هنا صنفا اخر من البشر ناقصا عن رتبة الصنف الاول نقصان الضدّ عن ضدّه الكامل لانّ عدم الاستعانة فى ذلك الادراك ضدّ للاستعانة فيه وشتّان ما بينهما فاذن اعطى تقسيم الوجود ان هنا صنفا اخر من البشر مفطور على ان يتحرّك قوته العقليّة حركتها الفكريّة بالارادة عند ما يبعثها النزوع لذلك وهى ناقصة عنه بالجبلّة فيكون بها بالجبلّة عند ما يعوقها العجز عن ذلك

Digitized by Google

تشبّث بامور جزئيّة محسوسة او متخيّلة كالاجسام الشفافة
وعظام الحيوان وسجع الكلام وما يسنح من طير او حيوان
يستديم ذلك الاحساس او التخيّل مستعينا به فى ذلك
الانسلاخ الذى يقصده ويكون كالمشيّع له وهذه القوة التى
فيهم مبداء لذلك الادراك هى الكهانة ولكون هذه النفوس
مفطورة على النقص والقصور عن الكمال كان ادراكها فى
الجزئيّات اكثر من الكلّيّات وتكون متشبّهة بها غافلة
عن الكليات ولذلك ما تكون المتخيّلة فيهم فى غاية
القوة لانها آلة الجزئيّات فتنفذ فيها نفوذا تامّا فى نوم
او يقظة وتكون عندها حاضرة عتيدة تحضرها المتخيّلة وتكون
لها كالمراءة تنظر فيها دايما ولا يقوى الكاهن على الكمال
فى ادراك المعقولات لانّ وحيه من وحى الشياطين وارفع
احوال هذا الصنف ان يستعين بالكلام الذى فيه السجع
والموازنة ليشتغل به عن الحواسّ ويقوى بعض الشئ على
ذلك الاتّصال الناقص فيهجس فى قلبه عن تلك الحركة
والذى يشيّعها من ذلك الاجنبى ما يقذفه على لسانه
فربّما صدق ووافق الحقّ وربّما كذب لانه يتمّم نقصه بامر
اجنبىّ عن ذاته المدركة ومباين لها غير ملايم فيعرض له
الصدق والكذب جميعا ويكون غير موثوق به وربّما يفزع الى
الظنون والتخمينات حرصا على الظفر بالادراك بزعمه

Digitized by Google

وتمويها على السايلين واصحاب هذا السجع هم المخصوصون باسم الكهّان لانّهم ارفع ساير اصنافهم وقد قال صلى الله عليه وسلم فى مثله هذا من سجع الكهّان فجعل السجع مختصّا بهم بمقتضى الاضافة وقال لابن صياد حين سأله كاشفا عن حاله بالاختبار كيف ياتيك هذا الامر فقال ياتينى صادق وكاذب فقال خلط عليك الامر يعنى ان النبوّة خاصّيّتها الصدق فلا يعتريها الكذب بحال لانّها اتّصال من ذات النبىّ بالملاء الاعلى من غير مشيّع ولا استعانة باجنبى والكهانة لما احتاج صاحبها بسبب عجزه الى الاستعانة بالتصوّرات الاجنبيّة فكانت داخلة فى ادراكه والتسبّب بالادراك الذى توجّه اليه فصار مختلطا بها وطرقه الكذب من هذه الجهة فامتنع ان يكون نبوّة وانما قلنا ان ارفع مراتب الكهانة حالة السجع لان معين السجع اخفّ من ساير المعينات من المرئيات والمسموعات ويدلّ خفّة المعين على قرب ذلك الاتّصال والادراك والبعد فيه عن العجز بعض الشئ (وقد) زعم بعض الناس ان هذه الكهانة قد انقطعت منذ زمن النبوّة بما وقع من شأن رجم الشياطين بالشهب بين يدى البعثة وان ذلك كان لمنعهم من خبر السما كما وقع فى القران والكهّان انّما يتعرّفون اخبار السماء من الشياطين فبطلت الكهانة من يومئذ ولا يقوم من

Digitized by Google

ذلك دليل لانّ علوم الكهّان كما تكون من الشياطين تكون من
نفوسهم كما قررناه وايضا فالآية انّما دلّت على منع الشياطين
من نوع واحد من اخبار السماء وهو ما يتعلّق بخبر البعثة
ولم يمنعوا ممّا سوى ذلك وايضا فانّما كان ذلك الانقطاع
بين يدى النبوّة فقط ولعلّها عادت بعد ذلك الى ما
كانت عليه وهذا هو الظاهر لانّ هذه المدارك كلها تخمد
فى زمن النبوّة كما تخمد الكواكب والسرج عند وجود
الشمس لانّ النبوّة هى النور الاعظم الذى يخفى معه كل نور
او يذهب (وقد) زعم بعض الحكماء انّها انّما توجد بين
يدى النبوّة ثم تنقطع وهكذا مع كل نبوّة وقعت لانّ وجود
النبوّة لا بدّ له من وضع فلكىّ يقتضيه وفى تمام ذلك الوضع
تمام تلك النبوّة التى دلّ عليها ونقص ذلك الوضع عن
التمام يقتضى وجود طبيعة من ذلك النوع الذى يقتضيه
ناقصه وهو معنى الكاهن على ما قررناه فقبل ان يتمّ ذلك
الوضع الكامل يقع الوضع الناقص ويقتضى وجود الكاهن
امّا واحدا امّا متعدّدا فاذا تمّ ذلك الوضع تمّ وجود النبىّ
بكماله وانقضت الاوضاع الدالّة على مثل تلك الطبيعة
فلا يوجد منها شئ بعد وهذا بناء على ان بعض الوضع
الفلكىّ يقتضى بعض اثره وهو غير مسلّم فلعلّ الوضع انما
يقتضى ذلك الاثر بهيئة الخاصّة ولو نقص بعض اجزائها

Digitized by Google

فلا يقتضى شيئا الّا انه يقتضى ذلك الاثر ناقصا كما
قالوه ثم ان هولاء الكهّان اذا عاصروا زمن النبوّة فانّهم عارفون
بصدق النبيّ ودلالة معجزته لانّ لهم بعض الوجدان من امر
النبوّة كما لكل انسان من امر النوم ومعقوليّة تلك النسبة
موجودة للكاهن باشدّ ممّا للنايم ولا يصدّهم عن ذلك فى
التكذيب الّا وسواس المطامع بانّها نبوّة لهم فيقعون فى العناد
كما وقع لامية بن ابى الصلت فانّه كان يطمع بان يكون
نبيّا وكذا وقع لابن صيّاد ولمسيلمة وغيرهم فاذا غلب الايمان
وانقطعت تلك الامانى آمنوا احسن ايمان كما وقع لطليحة
الاسدى وقارب بن الاسود وكان لهما فى الفتوحات
الاسلامية من الآثار الشاهدة بحسن الايمان (واما الرؤيا)
فتحقيقها مطالعة النفس الناطقة فى ذاتها الروحانيّة لمحة من
صور الواقعات فانها عند ما تكون روحانيّة تكون صور
الواقعات فيها موجودة بالفعل كما هو شأن الذوات الروحانيّة
كلها وتصير روحانيّة بان تتجرّد عن الموادّ الجسمانيّة والمدارك
البدنيّة وقد يقع لها ذلك لمحة بسبب النوم كما نذكر فتقتبس
فيها علم ما تتشوّف اليه من الامور المستقبلة وتعود به الى
مداركها فان كان ذلك الاقتباس ضعيفا وغير جلىّ عانيته
بالمحاكاة والمثال فى الخيال لتحصيله فيحتاج من اجل
تلك المحاكاة الى التعبير وقد يكون الاقتباس قويا تستغنى

Digitized by Google

فيه عن المحاكاة فلا يحتاج الى تعبير لخلوصه من الخيال
والمثال والسبب فى وقوع هذه اللمحة للنفس انها ذات
روحانيّة بالقوة مستكملة بالبدن ومداركه حتى تصير ذاتها
تعقّلا محضا ويكمل وجودها بالفعل فتكون حينئذ ذاتا روحانيّة
مدركة بغير شئ من الآلات البدنيّة الا ان نوعها فى
الروحانيّات دون نوع الملائكة اهل الافق الاعلى الذين لم
يستكملوا ذواتهم بشئ من مدارك البدن ولا غيره فهذا
الاستعداد حاصل لها ما دامت فى البدن ومنه خاصّ كالذى
للاولياء ومنه عامّ للبشر على العموم وهو امر الرؤيا (واما) الذى
للانبياء فهو استعداد بالانسلاخ من البشريّة الى الملكيّة
المحضة التى هى اعلا الروحانيّات ويخرج هذا الاستعداد فيهم
متكرّرا فى حالات الوحى وهو عند ما يعوج على المدارك
البدنيّة ويقع فيها ما يقع من الادراك شبيها بحال النوم
شبها بيّنا وان كان حال النوم ادون منه بكثير فلاجل هذا الشبه
عبّر الشارع عن الرويا بانها جزء من ستّة واربعين جزءا من
النبوة وفى رواية ثلاثة واربعين وفى رواية سبعين وليس العدد
فى جميعها مقصودا بالذات وانما المراد الكثرة فى تفاوت
هذه المراتب بدليل ذكر السبعين فى بعض طرقه وهى للتكثير
عند العرب وما ذهب اليه بعضهم فى رواية ستّة واربعين من
ان الوحى كان فى مبدئه بالرويا ستة اشهر وهى نصف سنة

Digitized by Google

ومدّة النبوة كلها بمكة والمدينة ثلاثة وعشرون سنة فنصف السنة منها جزء من ستّة واربعين فكلام بعيد عن التحقيق لانه انما وقع ذلك للنبى صلى الله عليه وسلم ومن اين لنا ان هذه المدّة وقعت لغيره من الانبياء مع ان ذلك انما يعطى نسبة زمن الرويا من زمن النبوة ولا يعطى نسبة حقيقتها من حقيقة النبوة واذا تبيّن لك ما ذكرناه اوّلا علمت ان معنى هذا الجزء نسبة الاستعداد الاوّل الشامل للبشر الى الاستعداد القريب الخاصّ بصنف الانبياء الفطرىّ لهم صلوات الله عليهم ثم ان هذا الاستعداد البعيد وان كان عامّا فى البشر فمعه عوايق وموانع كثيرة من حصوله بالفعل ومن اعظم تلك الموانع الحواسّ الظاهرة ففطر الله البشر على ارتفاع حجاب الحواسّ بالنوم الذى هو جبلّى لهم فتتعرّض النفس عند ارتفاعه الى معرفة ما تتشوّف اليه فى عالم الحقّ فتدرك فى بعض الاحيان لمحة يكون فيها الظفر بالمقصود ولذلك ما جعل الشارع من المبشرات فقال لم يبق من النبوة الا المبشرات قالوا وما المبشرات يا رسول الله قال الرويا الصالحة يراها الرجل الصالح او ترى له (وامّا) سبب ارتفاع حجاب الحواسّ بالنوم فعلى ما اصفه لك وذلك ان النفس الناطقة انما ادراكها وافعالها بالروح الحيوانىّ الجسمانىّ وهو بخار لطيف مركزه فى التجويف الايسر

Digitized by Google

من القلب على ما فى كتب التشريح لجالينوس وغيره
وينبعث مع الدم فى الشريانات والعروق فيعطى الحسّ
والحركة وساير الافعال البدنيّة ويرتفع لطيفه الى الدماغ
فيعدل من برده ويتمّم افعال القوى التى فى بطونه فالنفس
الناطقة انما تدرك وتفعل بهذا الروح البخاريّ وهى متعلّقة
به بما اقتضته حكمة التكوين فى ان اللطيف لا يؤثر فى
الكثيف ولها لطف هذا الروح الحيوانى من بين المواد
البدنيّة صار محلّا لآثار الذات الهباينة له فى جسمانيّته وهى
النفس الناطقة وصارت آثارها حاصلة فى البدن بوساطته وقد
كنّا قدّمنا ان ادراكها على نوعين ادراك بالظاهر وهو
الحواسّ الخمس وادراك فى الباطن وهو بالقوى الدماغيّة
وان هذا الادراك كله صارف لها عن ادراكها ما فوقها
من ذوات الروحانيات التى هى مستعدّة له بالفطرة ولها
كانت الحواسّ الظاهرة جسمانيّة كانت معرضة للوهن والفشل
بما يدركها من التعب والكلال وتغشى الروح بكثرة
التصرّف فخلق الله لها طلب الاستجمام لتجدّد الادراك
على الصورة الكاملة وانما يكون ذلك بانخناس الروح
الحيوانىّ من الحواسّ الظاهرة كلها ورجوعه الى الحسّ الباطن
ويعين على ذلك ما يغشى البدن من البرد بالليل فتطلب
الحرارة الغريزيّة اعماق البدن وتذهب من ظاهره الى باطنه

Digitized by Google

فتكون مشيّعة مركبها وهو الروح الحيوانى الى الباطن
ولذلك ما كان النوم للبشر فى الغالب انما هو بالليل
فاذا انخنس الروح عن الحواسّ الظاهرة رجع الى القوى
الباطنة وخفت عن النفس شواغل الحسّ وموانعه ورجعت
الى الصور التى فى الحافظة تمثل منها بالتركيب والتحليل (1)
صورا خيالية واكثر ما تكون معتادة لانها منتزعة من
المدركات المتعاهدة قريبا ثم تنزلها الى الحسّ المشترك
الذى هو جامع الحواسّ الظاهرة فيدركها على انحاء الحواسّ
الخمس وربّما التفتت النفس لفتة الى ذاتها الروحانيّة مع
منازعة القوى الباطنة فتدرك بادراكها الروحانىّ لانّها
مفطورة عليه وتقتبس من صور الاشياء التى صارت
متعلّقة فى ذاتها حينئذ ثم ياخذ الخيال تلك الصورة
المدركة فيمثلها بالحقيقة او المحاكاة فى القوالب المعهودة
والمحاكاة من هذه هى المحتاجة الى التعبير وتصرّفها
بالتركيب والتحليل فى صور الحافظة (2) قبل ان تدرك
من تلك اللمحة ما تدرك هى اضغاث الاحلام وفى
الصحيح ان النبى صلى الله عليه وسلم قال الرؤيا ثلاث
رويا من الله ورويا من الملك ورويا من الشيطان وهذا
التفصيل مطابق لما ذكرناه فالجلىّ من الله والمحاكاة الداعية

(1) Man. A. et B. التخييل.

(2) Man. A. et B. والصور الحافظة.

Digitized by Google

الى التعبير من الملك واضغاث الاحلام من الشيطان لانها
كلها باطل والشيطان ينبوع الباطل هذه حقيقة الرويا وما
يسبّبها (1) ويشيّعها من النوم وهى خواصّ للنفس الانسانيّة
موجودة فى البشر على العموم لا يخلو عنها احد منهم بل
كل واحد من الاناسى فقد راى فى نومه ما صدق له فى
يقظته مرارا غير واحدة وحصل له على القطع ان النفس
مدركة الغيب فى النوم ولا بدّ واذا جاز ذلك فى عالم
النوم فلا يمتنع فى غيره من الاحوال لان الذات المدركة
واحدة وخواصّها عامّة فى كل حال والله الهادى الى الحقّ
(فصل) ووقوع ما يقع من ذلك للبشر غالبا انما هو من
غير قصد ولا قدرة عليه وانما تكون النفس مستشرفة للشئ
فتقع لها تلك اللمحة فى النوم لا انها تقصد الى ذلك
فتراه وقد وقع فى كتاب الغاية وغيره من كتب اهل
الرياضات ذكر اسماء تذكر عند النوم فيكون عنها الرويا
فيما يتشوّف (2) اليه ويسمّونها الحالومة ذكر منها مسلمة فى
كتاب الغاية حالومة سماها حالومة الطباع التامّ وهى ان
يقال عند النوم وبعد فراغ السرّ وصحّة التوجّه هذه الكلمات
الاعجميّة وهى تَماغِس بَعْدان يَسْوادّ وغْداس نَوفناغادِس
ويذكر حاجته فانه يرى الكشف عما يسئل عنه فى النوم

(1) Man. A. et B. يشبهها.

(2) Man. A. et B. يتشوّق.

Digitized by Google

PROLÉGOMÈNES d'Ebn-Khaldoun.

وحكى ان رجلا فعل ذلك بعد رياضة ليال فى ماكله
وذكره فتمثّل له شخص يقول انا طباعك التامّ فسئل
واخبره عمّا كان يتشوّف اليه وقد وقع لى انا بهذه الاسماء
مراء عجيبة واطّلعت بها على امور كنت اتشوّف اليها من
احوالى وليس ذلك بدليل على ان القصد الى الرويا
يحدثها وانما هذه الحالومات تحدث استعدادا فى النفس
لوقوع الرويا فاذا قوى الاستعداد كان اقرب لحصول ما
يستعدّ له وللشخص ان يفعل من الاستعداد ما احبّ
ولا يكون دليلا على ايقاع المستعدّ له فالقدرة على الاستعداد
غير القدرة على الشئ فاعلم ذلك وتدبّره فيما تجد من
امثاله والله الحكيم الخبير (فصل) ثم انا نجد فى النوع
الانسانىّ اشخاصا يخبرون بالكاينات قبل وقوعها بطبيعة
فيهم يتميّز فيها صنفهم عن ساير الناس ولا يرجعون فى ذلك
الى صناعة ولا يستدلّون عليه باثر من النجوم ولا غيرها انما
نجد مداركهم فى ذلك بمقتضى فطرتهم التى فطروا عليها
وذلك مثل العرّافين والنظّارين فى الاجسام الشفّافة كالمرايا
وطساس الماء والناظرين فى قلوب الحيوان واكبادها
وعظامها واهل الزجر فى الطير والسباع واهل الطرق بالحصى
والحبوب من الحنطة والنوى وهذه كلها موجودة فى عالم
الانسان لا يسع احدا جحدها ولا انكارها وكذلك المجانين

Digitized by Google

تلقى على السنتهم كلمات من الغيب فيخبرون بها وكذلك النايم والميت لاول موته او نومه يتكلم بالغيب وكذلك اهل الرياضة من المتصوّفة لهم مدارك فى الغيب على سبيل الكرامة معروفة ونحن الآن نتكلّم على هذه الادراكات كلها ونبتدئ منها بالكهانة ثم نأتى عليها واحدة واحدة الى آخرها ونقدّم على ذلك مقدّمة فى ان النفس الانسانيّة كيف تستعدّ لادراك الغيب فى جميع الاصناف التى ذكرناها (وذلك) انّها ذات روحانيّة موجودة بالقوة من بين سايرَ الروحانيّات كما ذكرناه قبل وانما تخرج من القوة الى الفعل بالبدن واحواله وهذا امر مدرك لكل احد وكل ما بالقوة فله مادّة وصورة وصورة هذه النفس التى يتمّ بها وجودها هو عين الادراك والتعقّل فهى توجد اوّلا بالقوة مستعدّة للادراك وقبول الصور الكلّية والجزئية ثم يتمّ نشوُها ووجودها بالفعل بهصاحبة البدن وما يعوّدها بورود مدركاته المحسوسة عليها وما تنتزع هى من تلك الادراكات من المعانى الكلّية فتتعقّل (1) الصورة مرّة بعد اخرى حتى يحصل لها الادراك والتعقّل صورة بالفعل فتتمّ ذاتها وتبقى النفس كالهيولى والصور متعاقبة عليها بالادراك واحدة بعد واحدة ولهذا نجد الصبى فى اول نشوُه لا يقتدر على

(1) Man. A. تتفعل. C. تغفل. D. تعقل.

Digitized by Google

الادراك الذى لها من ذاتها لا فى نوم ولا بكشف ولا
بغيرهما وذلك صورتها التى هى عين ذاتها وهى الادراك
والتعقّل لم تتمّ بعدُ بل يتمّ لها انتزاع الكليات ثم اذا تمّت
ذاتها بالفعل حصل لها ما دامت مع البدن نوعان من
الادراك ادراك بآلات الجسم تؤديه اليها المدارك البدنيّة
وادراك بذاتها من غير واسطة وهى محجوبة عنه بالانغماس
فى البدن والحواسّ وشواغلها لانّ الحواسّ ابدا جاذبة لها
الى الظاهر بما فطرت عليه اولا من الادراك الجسمانىّ
وربّما تنغمس عن الظاهر الى الباطن فيرتفع حجاب البدن
لحظة امّا بالخاصية التى هى للانسان على الاطلاق مثل
النوم او بالخاصّية الموجودة لبعض البشر مثل الكهانة والطرق
او بالرياضة مثل اهل الكشف من الصوفيّة فتلتفت حينئذ
الى الذوات التى فوقها من الملاء الاعلى لها بين افقها
وافقهم من الاتّصال فى الوجود كما قررناه قبل وتلك
الذوات روحانيّة وهى ادراك محض وعقول بالفعل وفيها
صور الموجودات وحقايقها كما مرّ فيتجلّى فيها شئ من
تلك الصورة وتقتبس منها علما وربّما دفعت تلك الصور
المدركة الى الخيال فتصرفه فى القوالب المعتادة ثم تراجع
الحسّ بما ادركت اما مجرّدا او فى قوالبه فتخبر به هذا هو
شرح استعداد النفس لهذا الادراك الغيبى ولنرجع الى ما

Digitized by Google

وعدنا به من بيان اصنافه (فامّا) الناظرون فى الاجسام الشفّافة من المرايا والطساس والمياه وقلوب الحيوان واكبادها وعظامها واهل الطرق بالحصى والنوى فكلهم من قبيل الكهّان الا انهم اضعف رتبة فيه فى اصل خلقهم لان الكاهن لا يحتاج فى رفع حجاب الحسّ الى كبير معاناة وهولاء يعانونه بانحصار المدارك الحسّيّة كلها فى نوع واحد منها واشرفها البصر فيعكف به على المرئ البسيط حتى يبدو له مدركه الذى يخبر عنه وربّما يظنّ ان مشاهدة هولاء لما يرونه هو فى سطح المراءة وليس كذلك بل لا يزالون ينظرون فى سطح المراءة الى ان يغيب عن البصر ويبدو فيما بينهم وبين المراءة حجاب كانه غمام تتمثّل فيه صور هى مدركاتهم فتشير اليهم بالمقصود فيها يتوجّهون الى معرفته من نفى او اثبات فيخبرون بذلك على نحو ما ادركوه (واما المراءة) وما يدرك فيها من الصور فلا يدركونه فى تلك الحال وانّما ينشأ لهم بها هذا النوع الاخر من الادراك وهو نفسانىّ ليس من ادراك البصر بل يتشكّل به المدرك النفسانى للحسّ (1) كما هو معروف ومثل ذلك يعرض للناظرين فى قلوب الحيوان واكبادها وللناظرين فى الماء والطساس وامثال ذلك وقد شاهدنا من هولاء من يشغل الحسّ بالبخور فقط

(1) Man. A et B. الحسى.

Digitized by Google

ثم بالعزايم للاستعداد ثم يخبر عمّا ادرك ويزعمون انهم يرون الصور متشخّصة فى الهواء تحكى لهم احوال ما يتوجّهون الى ادراكه بالمثال والاشارة وغيبة هولاء من الحسّ اخفّ من الاولين والعالم ابو الغرايب (واما الزجر) وهو ما يحدث من بعض الناس من التكلّم بالغيب عندُ سنوح طاير او حيوان والفكر فيه بعد مغيبه وهى قوة فى النفس تبعث على الحدس والفكر فيما زجر فيه من مرئ او مسموع وتكون قوته المتخيّلة كما قدّمناه قوية فيبعثها فى البحث مستعينا بها راءه او سمعه فيوديه ذلك الى ادراك ما كها تفعله القوة المتخيّلة فى النوم وعند ركود الحواسّ تتوسّط بين المحسوس المرئ فى يقظته وتجمعه مع ما عقلته فيكون عنها الرويا (وامّا المجانين) فنفوسهم الناطقة ضعيفة التعلّق بالبدن لفساد امزجتهم غالبا وضعف الروح الحيوانى فيها فتكون نفسه غير مستغرقة بالحواسّ ولا منغمسة فيها بها شغلها فى نفسها من الم النقص ومرضه وربّما زاحمها على التعلّق به روحانية اخرى شيطانيّة تتشبّث به وتضعف هذه عن ممانعتها فيكون عنه التخبّط فاذا اصابه ذلك التخبّط اما لفساد مزاجه من فساد النفس فى ذاتها او لما زاحمه من النفوس الشيطانيّة فى تعلّقه غاب عن حسّه (1) جملة

(1) Man.D. جسمه.

فادرك لمحة من عالم نفسه وانطبع فيها بعض الصور وصرفها
الخيال وربّما نطق على لسانه فى تلك الحال من غير
ارادة النطق وادراك هولآء كلهم مشوب فيه الحقّ بالباطل
لانه لا يحصل لهم الاتّصال وان فقدوا الحسّ الا بعد الاستعانة
بالتصوّرات الاجنبيّة كما قررناه ومن ذلك يجئ الكذب فى
هذه المدارك (وامّا العرّافون) فهم المتعلّقون بهذا الادراك
وليس لهم ذلك الاتّصال فيسلطون الفكر على الامر الذى
يتوجّهون اليه ويأخذون فيه بالظنّ والتخمين بناء على ما
يتوهّمونه من مبادئ ذلك الاتّصال والادراك ويدّعون
بذلك معرفة الغيب وليس منه على الحقيقة (هذا) تحصيل
هذه الامور وقد تكلّم عليها المسعودى فى مروج الذهب فما
صادف تحقيقا ولا اصابه ويظهر من كلام الرجل انه كان بعيدا
عن الرسوخ فى المعارف فينقل ما سمع من اهله ومن غير اهله
وهذه الادراكات التى ذكرناها موجودة كلها فى نوع البشر فقد
كان العرب يفزعون الى الكهّان فى تعرّف الحوادث ويتنافرون
اليهم فى الخصومات ليعرفوهم بالحقّ فيها من ادراك
غيبهم وفى كتب اهل الادب كثير من ذلك واشتهر منهم
فى الجاهليّة شقّ من انمار بن نزار وسطيح من مازن بن
غسان وكان يدرج كما يدرج الثوب ولا عظم فيه الا الجمجمة

Digitized by Google

PROLÉGOMÈNES d'Ebn-Khaldoun.

ومن مشهور الحكايات عنهما تاويلهما رويا ربيعة بن نصر وما اخبراه به من ملك الحبشة لليمن وملك مضر من بعدهم وظهور النبوة المحمديّة فى قريش وكذا رويا الموبذان التى اوّلها سطيح لما بعث اليه بها كسرى عبد المسيح فاخبره بشأن النبوة وخراب ملك فارس وهذه كلها مشهورة وكذلك العرّافون كان منهم فى العرب كثير وذكروهم فى اشعارهم فقال

فقلت لعرّاف اليمامة داونى فانّك ان داويتنى لطبيب

وقال اخر

جعلت لعرّاف اليمامة حكمة وعرّاف نجد انّ هما شفيانى
فقالا شفاك الله والله ما لنا بما حملت منك الضلوع يدان

وعرّاف اليمامة هو رباح بن عجلة وعرّاف نجد الابلق الاسدى (ومن) هذه المدارك الغيبيّة ما يصدر لبعض الناس عند مفارقة اليقظة والتباسه بالنوم من الكلام على الشئ الذى يتشوّف اليه بما يعطيه غيب ذلك الامر كما يريد ولا يقع ذلك الا فى مبادى النوم عند مفارقة اليقظة وذهاب الاختيار فى الكلام فيتكلّم كانه مجبول على النطق وغايته ان يسمعه ويفهمه وكذلك يصدر عن المقتولين عند مفارقة روسهم واوساط ابدانهم كلام بمثل ذلك ولقد بلغنا عن

Digitized by Google

بعض الجبابرة الظالمين انهم قتلوا من سجونهم اشخاصا
ليتعرّفوا من كلامهم عند القتل عواقب امورهم فى انفسهم
فاعلموهم بها يستبشع وذكر مسلمة فى كتاب الغاية له فى
مثل ذلك ان ادميا اذا جعل فى دنّ مملوء بدهن السهسم
ومكث فيه اربعين يوما يغذى بالتين والجوز حتى يذهب
لحمه ولا يبقى منه الا العروق وشؤن راسه فيخرج من ذلك
الدهن وحين يجفّ عليه الهواء يجيب عن كل شئ يسال
عنه من عواقب الامور الخاصّة والعامّة وهذا فعل من مناكير
افعال السحرة لكن تفهم منه عجايب العالم الانسانى (ومن)
الناس من يحاول حصول هذا المدرك الغيبى بالرياضة
فيحاولون بالمجاهدة موتا صناعيا باماتة جميع القوى البدنية
ثم محو آثارها التى تلوّثت (1) بها النفس وذلك يحصل
بجمع الفكر وكثرة الجوع ومن المعلوم على القطع انه اذا نزل
الموت بالبدن ذهب الحسّ وحجابه واطّلعت النفس على
ذاتها وعالمها فيحاولون ذلك بالاكتساب ليقع لهم قبل
الموت منه ما يقع بعد الموت وتطلع النفس على المغيّبات
(ومن هولآء اهل الرياضة السحريّة) يرتاضون بذلك ليحصل
لهم الاطلاع على المغيّبات والتصرّف فى العالم واكثر هولاء
فى الاقاليم المنحرفة جنوبا وشمالا وخصوصا بلاد الهند ويسمون

(1) Man. C. et D. تلوّنت.

Digitized by Google

هناك الجوكية ولهم كتب فى كيفيّة هذه الرياضة كثيرة والاخبار عنهم فى ذلك غريبة (واما المتصوّفة) فرياضتهم دينيّة وعريّة من هذه المقاصد المذمومة وانما يقصدون جمع الهمّة والاقبال على الله بالكلّيّة لتحصل اذواق العرفان والتوحيد ويزيدون فى رياضتهم الى الجمع والجوع التغذية بالذكر فبها تتمّ وجهتهم فى هذه الرياضة لانه اذا نشأت النفس على الذكر كانت اقرب الى العرفان بالله واذا عريت عن الذكر كانت شيطانيّة وحصول ما يحصل من معرفة الغيب او التصرّف لهولآء المتصوّفة انما هو بالعرض ولا يكون مقصودا من اول الامر لانه اذا قصد ذلك كانت الوجهة فيه لغير الله وانّما هى لقصد التصرّف والاطلاع على الغيب واخسر بها صفقة فانها فى الحقيقة شرك قال بعضهم من آثر العرفان للعرفان فقد قال بالثانى فهم يقصدون بوجهتهم المعبود لا لشئ سواه وان حصل اثناء ذلك ما يحصل فبالعرض وغير مقصود لهم وكثير منهم يفرّ منه اذا عرض له ولا يحفل به وانّما يريد الله لذاته لا لغيره وحصول ذلك لهم معروف ويسمّون ما يقع لهم من الغيب والحديث على الخواطر فراسة وكشفا وما يقع لهم من التصرّف كرامة وليس شئ من ذلك بنكير فى حقّهم وقد ذهب الى انكاره الاستاذ ابو اسحق الاسفراينى وابو محمد بن

Digitized by Google

ابى زيد المالكى فى اخرين فرارا من التباس المعجزة
بغيرها والمعوّل عند المتكلّمين حصول التفرقة بالتحدّى فهو
كافٍ وقد ثبت فى الصحيح ان رسول الله صلى الله عليه
وسلم قال انّ فيكم محدّثين وان منهم عمر وقد وقع للصحابة
من ذلك وقايع معروفة تشهد بذلك فى مثل قول عمر
رضى الله عنه يا سارية الجبل وهو سارية بن زنيم كان قايدا
على بعض جيوش المسلمين بالعراق ايام الفتوحات وتورّط
مع المشركين فى معترك وهم بالانهزام وكان بقربه جبل
يتحيّز اليه فرفع (1) لعمر ذلك وهو يخطب على المنبر
بالمدينة فناداه يا سارية الجبل وسمعه سارية بمكانه وراى
شخصه هنالك والقصّه معروفة ووقع مثلها ايضا لابى بكر
فى وصيّته عايشة ابنته رضى الله عنها فى شأن ما نحلها (2)
من اوسق التمر من حديقته ثم نبّهها على جدادة لتحوّزه
عن الورثة فقال فى سياق كلامه وانما هما اخوك واختاك
فقالت انما هى اسماء فمن الاخرى فقال ان ذا بطن بنت
خارجة اراها جارية فكانت جارية وقع (3) فى الموطا فى باب
ما لا يجوف من النحل ومثل هذه الوقايع كثيرة لهم ولمن بعدهم
من الصالحين واهل الاقتداء الا ان المتصوّفة يقولون انه يقلّ

(1) Man. A. B. et D. فوقع.

(2) Man. C. يحليها. A. et B. يخلها.

(3) Man. D. رفع.

Digitized by Google

فى زمن النبوة اذ لا يبقى للمريد حاله بحضرة النبى حتى انهم
يقولون ان المريد اذا جاء الى المدينة النبويّة سُلب حاله ما
دام فيها حتى يفارقها والله تعالى يرزقنا الهداية ويرشدنا الى الحقّ
(فصل) ومن هولآء المريدين من المتصوّفة قوم بهاليل معتوهون
اشبه بالمجانين من العقلاء وهم مع ذلك قد صحّت لهم
مقامات الولاية واحوال الصدّيقين وعلم ذلك من احوالهم
من يفهم عنهم من اهل الذوق مع آنهم غير مكلّفين ويقع
لهم من الاخبار عن المغيبات عجايب لانهم لا يتقيّدون
بشئ فيطلقون كلامهم فى ذلك وياتون منه بالعجايب
وربّما ينكر الفقهاء انّهم على شئ من المقامات لما يرون
من سقوط التكليف عنهم والولاية لا تحصل الا بالعبادة وهو
غلط فانه فضل الله يؤتيه من يشاء ولا يتوقّف حصول الولاية
على العبادة ولا غيرها واذا كانت النفس الانسانيّة ثابتة الوجود
فان الله تعالى يخصّهم بما شاء من مواهبه وهولاء القوم لم
تعدم نفوسهم الناطقة ولا فسدت كحال المجانين وانما
فقد لهم العقل الذى يناط به التكليف وهو صفة خاصّة للنفس
وهى علوم ضروريّة للانسان يستدّ بها نظره ويعرف احوال
معاشه واستقامة منزله وكانّه اذا ميّز احوال معاشه لم يبق
له عذر فى قبول التكاليف لاصلاح معاده وليس من فقد
هذه الصفة بفاقد لنفسه ولا ذاهل عن حقيقته فيكون موجود

Digitized by Google

الحقيقة معدوم العقل التكليفيّ الذى هو معرفة المعاش
ولا استحالة فى ذلك ولا يتوقّف اصطفاء الله عباده للمعرفة
على شئ من التكاليف واذا صحّ ذلك فاعلم انه ربّما
يلتبس حال هولاء بالمجانين الذين تفسد نفوسهم الناطقة
ويلتحقون بالبهايم ولك فى تمييزهم علامات منها ان
هولاء البهاليل تجد لهم وجهة ما لا يخلون عنها اصلا من ذكر
وعبادة لكن على غير الشروط الشرعيّة لما قلناه من عدم
التكليف والمجانين لا تجد لهم وجهة اصلا ومنها انّهم
يخلقون على البله من اول نشوءهم والمجانين يعرض لهم
الجنون بعد برهة من العمر لعوارض بدنيّة طبيعيّة فاذا عرض
لهم ذلك وفسدت نفوسهم الناطقة ذهبوا بالخيبة ومنها
كثرة تصرّفهم فى الناس بالخير والشرّ لانّهم لا يتوقّفون على
اذن لعدم التكليف فى حقّهم والمجانين لا تصرّف لهم وهذا
فصل انتهى بنا الكلام اليه والله المرشد الى الصواب
(فصل) وقد يزعم بعض الناس ان هنا مدارك للغيب من
دون غيبة عن الحسّ فمنهم المنجمون القايلون بالدلالات
النجوميّة ومقتضى اوضاعها فى الفلك وآثارها فى العناصر
وما يحصل من الامتزاج بين طباعها بالتناظر ويتادّى من
ذلك المزاج الى الهواء وهولاء المنجمون ليسوا من
الغيب فى شئ انّما هى ظنون حدسيّة وتخمينات مبنية

Digitized by Google

على التأثير النجومىّ وحصول المزاج منه للهواء مع مزيد الحدس يقف به الناظر على تفصيله فى الشخصيّات فى العالم كما قاله بطليموس ونحن نبين بطلان ذلك فى محلّه ان شاء الله تعالى ولو ثبت فغايته حدس وتخمين وليس مما ذكرناه فى شئ (ومن) هولاء قوم من العامّة استنبطوا لاستخراج الغيب وتعرّف الكاينات صناعة سمّوها خطّ الرمل نسبة الى المادّة التى يضعون فيها عملهم ومحصول هذه الصناعة انّهم صيّروا من النقط اشكالا ذات اربع مراتب تختلف باختلاف مراتبها فى الزوجيّة والفرديّة واستوايها فيها فكانت ستّة عشر شكلا لانّها ان كانت ازواجا كلها او افرادا فشكلان وان كان الفرد فيها فى مرتبة واحدة فقط فاربعة اشكال وان كان الفرد فى مرتبتين فستّة اشكال وان كان فى ثلاث مراتب فاربعة اشكال جاءت ستّة عشر شكلا ميّزوها كلّها باسمايها ونوّعوها الى سعود ونحوس شأن الكواكب وجعلوا لها ستّة عشر بيتا طبيعيّة بزعمهم وكانّها البروج الاثنى عشر التى للفلك والاوتاد الاربعة وجعلوا لكل شكل بيتا وخطوطا ودلالة على صنف من عالم العناصر يختصّ به واستنبطوا من ذلك فنّا حاذوا به فنّ النجامة ونوع قضايه الا ان احكام النجامة مستندة الى دلالات طبيعيّة كما زعم بطليموس وهذه انما دلالاتها وضعيّة وذلك

Digitized by Google

ان بطليموس انما تكلّم فى المواليد والقرانات التى هى عنده
من آثار الكواكب والاوضاع (1) الفلكيّة فى عالم العناصر وتكلّم
المنجمون من بعده فى المسائل استخراج الضماير وتقسيمها
على بيوت الفلك والحكم عليها باحكام ذلك البيت
النجوميّة وهى التى ذكرها بطليموس واعلم ان الضماير امور
نفسيّة ليست من عالم العناصر فليست من آثار الكواكب
ولا الاوضاع الفلكيّة ولا دلالة لهما عليها نعم ان صار لفنّ
المسائل مدخل فى صناعة النجامة من حيث الاستدلال
بالكواكب والاوضاع الّا انّه فى غير مدلوله الطبيعىّ فلما جاء
اهل الخطّ عدلوا عن الكواكب والاوضاع استعصا (2) بالمعاناة
والارتفاع بالالآت وتعديل الكواكب بالحسبان واستخرجوا
هذه الاشكال الخطّيّة وفرضوها ستّة عشر بيتا من بيوت
الفلك واوتاده ونوّعوها الى سعد ونحس وممتزج شأن
الكواكب السيّارة واقتصروا على التسديس من المناظرة
ونزلوا الاحكام النجوميّة عليها كما فى المسائل لان دلالة كل
منهما غير طبيعيّه كما قدّمناه وانتحل هذه الصناعة كثير من
البطّالين للمعاش فى المدن وصنّفوا فيها التصانيف المحصلة
لقواعدها واصولها كما فعله الزناتى منهم وغيره (وقد) يكون
من اهل هذه الصناعة من يتعرّض بها لادراك الغيب باشغال

(1) Man. A. et D. اوضاع.

(2) Man. A. استصعا.

Digitized by Google

PROLÉGOMÈNES d'Ebn-Khaldoun

الحسّ بالنظر فى اشكال تلك الخطوط فيعتريه حالة الاستعداد
كما يعترى المفطورين على ذلك كما نذكره بعد وهولاء
اشرف اهل هذه الصناعة وهم على الجملة يزعمون ان اصل
ذلك من النبوات القديمة فى العالم وربّما ينسبوها
الى ادريس او دانيال صلوات الله عليهما شأن الصنايع كلها
وربّما يدّعون مشروعيّتها ويحتجّون لذلك بقوله صلى الله
عليه وسلم كان نبى يخطّ فمن وافق خطّه فذاك وليس
فى الحديث دليل على مشروعيّة خطّ الرمل كما يزعمه
بعضهم لان معنى الحديث كان نبى يخط فياتيه الوحى
عند ذلك الخطّ ولا استحالة فى ان يكون ذلك عادة لبعض
الانبياء فانهم صلوات الله عليهم متفاوتون فى ادراك
الوحى قال تعالى تلك الرُسُل فضّلنا بعضهم على بعض
فمنهم من ياتيه الوحى ويكلمه الملك ابتداء من غير
طلب والوجهة ولذلك ومنهم من يتوجّه فيما يعرض له
من امور البشر بسوال امّته عن مشكل او تكليف او نحو
ذلك فيتوجّه وجهة ربّانيّة يتعرّض بها لكشف ما يريد من
ذلك من الله ويعطى التقسيم هنا قسما اخر ان وجد لان
الوحى قد يكون وهو لا يستعدّ له بشئ من الاحوال كالذى
ذكرناه وقد يكون وهو مستعدّ ببعض الاحوال كما نقل فى
الاسرائيلات ان بعض الانبياء كان يستعدّ لنزول الوحى

Digitized by Google

بسماع الاصوات الطيّبة الملحنة وهذا النقل وان لم يكن متمكّنا فى الصحّة الّا انه غير بعيد فالله تعالى يخصّ انبياءه ورسله بما شاء (نسخة) وقد نقل لنا ذلك عن بعض الكبار من المتصوّفة فى التعرّض للغيبة عن الحسّ بسماع الغنا يتجرّد بذلك لمداركه فى مقامه دون النبوة وما منا الا له مقام معلوم) واذا تقرر ذلك وقد كنّا قدّمنا ان فى اصحاب خطّ الرمل من يتعرّض للكشف به باشغال الحسّ بالنظر فى تلك الخطوط والاشكال فيعتريه حينئذ الادراك الغيبىّ الوجدانى (1) بالتفرّغ عن الحسّ جملة ويفارق المدارك البشريّة الى المدارك الروحانيّة وقد مرّ تفسيرهما وهذا من الكهانة من نوع النظر فى العظام والمياه والمرايا بخلاف من يقتصر فى ذلك منهما على الامر الصناعىّ الذى يحصل به على الغيب بالحدس والتخمين وهو لم يفارق المدارك الجسمانيّة بعد جايلا فى مرامى الظنون فقد يكون شأن بعض الانبياء الاستعداد بالخطّ فى مقامه النبوىّ لخطاب الملك كما يستعدّ به من ليس بنبى للادراك الروحانىّ ومفارقة المدارك البشريّة الا ان ادراكه روحانىّ فقط وادراك النبى ملكىّ بالوحى من عند الله واما مقامات اهل صناعة الخطّ فى مدارك الحدس والتخمين فحاشا للانبياء منها فانهم

(1) Man. B. الوجدان.

Digitized by Google

لا يشرعون التكلّم بالغيب ولا الخوض فيه لاحد من البشر
وقوله فى الحديث فمن وافق خطّه فذاك اى فهو
صحيح من بين الخطّ بما عضده من الوحى لذلك النبى
الذى كانت عادته ان ياتيه الوحى عند الخطّ او تكون
الاشارة بذلك الى تعظيمه وعلو شأنه فى اتّخاذ خطوط الرمل
بل لا نسبة بينه وبينها اذا كان على ذلك الوجه الذى
كان النبى يستعدّ به للوحى فياتى على وفاقه واما اذا اخذ
ذلك عن الخطّ مجرّدا من غير موافقة وحى فلا صحّة فيه
وهذا معنى الحديث والله اعلم وليس فيه دلالة على مشروعيّة
خطّ الرمل ولا جواز انتحاله لتعرف الغيب كما هو شأن اهله
فى المدن وان مال الى ذلك بعضهم بناء على ان فعل
النبى شريعة متبعة فيكون مشروعا على مذهب من يرى ان
شرع من قبلنا شرع لنا وليس هذا بمطابق لذلك فان
الشرع انما هو للرسل المشرعين للامم والحديث لم يدلّ
على ذلك وانما دلّ على ان هذه الحالة تحصل لبعض
الانبياء ويحتمل ان يكون غير مشروع فلا يكون ذلك شرعا
لا خاصّا بامّته ولا عامّا لهم ولغيرهم وانما يدلّ على انها حالة
تقع لبعض الانبياء خاصّة فلا تتعدّاه للبشر وهذا آخر ما اردنا
تحقيقه هنا والله الملهم للصواب فاذا ارادوا استخراج مغيب
بزعمهم عمدوا الى قرطاس او رمل او دقيق فوضعوا النقط

Digitized by Google

سطورا على عدد المراتب الاربعة ثم كرّروا ذلك اربع
مراتب فتجئ ستّة عشر سطرا ثم يطرحون النقط ازواجا
ويضعون ما بقى من كل سطر زوجا كان او فردا فى مرتبة
على الترتيب فتجئ اربعة اشكال يضعونها فى سطر متتالية
ثم يولدون منها اربعة اشكال اخرى من جانب العرض
باعتبار كل مرتبة وما قابلها من الشكل الذى بازايه وما
يجتمع فيها من زوج او فرد فتكون ثمانية اشكال موضوعة
فى سطر ثم يولدون من كل شكلين شكلا تحتهما باعتبار ما
يجتمع فى كل مرتبة من مراتب الشكلين ايضا من زوج
او فرد فتكون اربعة اخرى تحتها ثم يولدون من
الاربعة شكلين كذلك تحتها ثم من الشكلين شكلا
كذلك تحتها ثم من هذا الشكل الخامس عشر مع
الشكل الاول شكلا يكون آخر الستّة عشر ثم يحكمون على
الخطّ كله بما اقتضته اشكاله من السعودة والنحوسة بالذات
والنظر والحلول والامتزاج والدلالة على اصناف الموجودات
وساير ذلك تحكّما غريبا وكثرت هذه الصناعة فى العمران
ووضعت فيها التواليف واشتهر فيها الاعلام من المتقدّمين
والمتأخّرين وهى كما رايت تحكّم وهوًى والتحقيق الذى
ينبغى ان يكون نصب فكرك ان الغيوب لا تدرك بصناعة
البتّة ولا سبيل الى تعرّفها الّا للخواصّ من البشر المفطورين

Digitized by Google

على الرجوع عن عالم الحسّ الى عالم الروح ولذلك سمى المنجمون هذا الصنف كلهم بالزهريين نسبة الى ما تقتضيه دلالة الزهرة بزعمهم فى اصل مواليدهم على ادراك الغيب فالخطّ وغيره من هذه ان كان الناظر فيه من اهل هذه الخاصيّة وقصد بهذه الامور التى ينظر فيها من النقط والعظام او غيرها اشغال الحسّ لترجع النفس الى عالم الروحانيّات لخطّه فهو من باب الطرق بالحصى والنظر فى قلوب الحيوانات والمرايا الشفّافة كما ذكرناه وان لم يكن كذلك وانما قصد معرفة الغيب بهذه الصناعة فهذر من القول والعمل والله يهدى من يشاء والعلامة لهذه الفطرة التى فطر عليها اهل هذا الادراك الغيبىّ انهم عند توجّههم الى تعرّف الكاينات يعتريهم خروج عن حالتهم الطبيعيّة كالتثاوب (1) والتمطط ومبادى الغيبة عن الحسّ ويختلف ذلك بالقوة والضعف على اختلاف وجودها فيهم فمن لم توجد له هذه العلامات فليس من ادراك الغيب من شئ وانّما هو ساع فى تنفيق كذبه (فصل) ومنهم طوايف يضعون قوانين لاستخراج الغيب ليست من الطور الاول الذى هو من مدارك النفس الروحانيّة ولا من الحدس المبنى على تأثيرات النجوم كما زعمه بطليموس ولا من الظنّ والتخمين الذى يحاول عليه

(1) Man. A. التشاوب.

Digitized by Google

العرّافون وانما هى مغالط يجعلونها كالمصايد لاهل العقول المستضعفة ولست اذكر من ذلك الا ما ذكره المصنّفون وولع به الخواصّ (فمن) تلك القوانين الحساب الذى يسمونه حساب النيم وهو مذكور فى آخر كتاب السياسة المنسوب لارسطو يعرف به الغالب من المغلوب فى المتحاربين من الملوك وهو ان تحسب الحروف التى فى اسم احدهما بحساب الجمل المصطلح عليه فى حروف ابجد من الواحد الى الالف آحاد وعشرات ومئين والوفا فاذا حسبت الاسم وتحصّل لك منه عدد فاحسب اسم الاخر كذلك ثم اطرح كل واحد منهما تسعة تسعة واحفظ بقية هذا وبقية هذا ثم انظر بين العددين الباقيين من حساب الاسمين فان كانا مختلفين فى الكميّة وكانا معا زوجين او فردين فصاحب الاقلّ منهما الغالب وان كان احدهما زوجا والاخر فردا فصاحب الاكثر هو الغالب وان كانا متساويين فى الكميّة وهما معا زوجان فالمطلوب هو الغالب وان كانا معا فردين فالطالب هو الغالب ونقل هنالك بيتين فى هذا العمل اشتهرا بين الناس وهما

ارى الزوج الاقراد يسمّوا اقلّها واكثرها عند التخالف غالب
ويغلب مطلوب اذا الزوج وعند استواء الفرد يغلب طالب

ثم وضعوا لمعرفة ما يبقى من الحروف بعد طرحها بتسعة قانونا

Digitized by Google

معروفا عندهم فى طرح تسعة وذلك بان يجمعوا الحروف الدالّة على الواحد فى المراتب الاربع وهى (ا) الدالّة على الواحد و(ى) الدالّة على العشرة وهى واحد فى مرتبة العشرات و(ق) الدالّة على الماية لانها واحد فى مرتبة المئين و(ش) الدالّة على الالف وهى واحد فى مرتبة الآلاف وليس بعد الالف عدد يدل عليه بالحروف لان الشين هى آخر ابجد ثم رتبوا هذه الحروف الاربعة على نسق المراتب فكان منها كلمة رباعيّة وهى (ايقش) ثم فعلوا ذلك بالحروف الدالّة على اثنين فى المراتب الثلاث واسقطوا مرتبة الآلاف منها لانّها كانت آخر حروف ابجد فكان مجموع حروف الاثنين فى المراتب ثلثة حروف وهى (ب) الدالّة على الاثنين فى الآحاد و(ك) الدالّة على اثنين فى العشرات وهى عشرون و(ر) الدالّة على اثنين فى المئين وهى مايتان وصيّروها كلمة واحدة ثلاثيّة على نسق المراتب وهى (بكر) ثم فعلوا ذلك فى الحروف الدالّة على ثلاثة فنشأت عنها كلمة (جلش) وكذلك الى آخر حروف ابجد وصارت تسع كلمات نهاية عدد الآحاد وهى ايقش × بكر × جلش × دمت × هنث × وضخ × زغد × حفظ × طضغ + مرتّبة على توالى الاعداد ولكل كلمة منها عددها الذى فى مرتبته فالواحد لكلمة (ايقش) والاثنان لكلمة (بكر) والثلاثة لكلمة (جلش) وكذلك الى التاسعة التى هى (طضغ)

Digitized by Google

فتكون لها التسعة فاذا ارادوا طرح الاسم بتسعة نظروا لكل
حرف منه فى اى كلمة من هذه الكلمات واخذوا عددها
مكانه ثم يجمعون الاعداد التى ياخذونها بدلا من حروف
الاسم فان كانت زايدة على التسعة اخذوا ما فضل عنها
والا اخذوه كما هو ثم يفعلون كذلك بالاسم الاخر وينظرون
بين الخارجين بما قدّمناه والسرّ فى هذا القانون بيّن
وذلك ان الباقى فى كل عقد من عقود الاعداد بطرح
تسعة انما هو واحد فكانه يجمع عدد العقود خاصّة من كل
مرتبة فصارت اعداد العقود كلّها كانّها آحاد فلا فرق بين
الاثنين والعشرين والمأتين والالفين وكلها اثنان وكذلك
الثلاثة والثلاثون والثلاثماية والثلاثة الاف كلها ثلاثة فوضعت
الاعداد على التوالى دالّة على اعداد العقود لا غير وجعلت
الحروف الدالّه على اصناف العقود فى كل كلمة من الآحاد
والعشرات والمئين والالوف وصار عدد الكلمة الموضوع عليها
نايبا عن كل حرف فيها سواء دلّ على الآحاد والعشرات
اوالمئين اوالالوف فيوخذ عدد كل كلمة عوضا من الحروف
التى فيها وتجتمع كلها الى آخرها كما قلناه وهذا هو العمل
المتداول بين الناس فيها منذ الامر القديم وكان بعض من
لقيناه من شيوخنا يرون ان الصحيح فيها كلمات اخرى
تسعة مكان هذه ومتوالية كتواليها ويفعلون فيها الطرح

Digitized by Google

بتسعة مثل ما يفعلون بالاخرى سواء وهى هذه ارب + يسفك × جزلط × مدوص × هف × تحذن × غش × خع تضظ × تسع كلمات على توالى العدد وفيها الثلاثى والرباعى والثناى وليست جارية على اصل مطرد كما تراه لكن كان شيوخنا ينقلونها عن شيخ المغرب فى هذه المعارف من النجامة والسيميا واسرار الحروف وهو ابو العباس ابن البنا ويقولون عنه ان العمل بهذه الكلمات فى طرح حساب النيم اصحّ من العمل بكلمات ايقش فالله اعلم كيف ذلك وهذه كلّها مدارك الغيب غير مستندة الى برهان ولا تحقيق والكتاب الذى وجد فيه حساب النيم غير معزو الى ارسطو عند المحقّقين لما فيه من الآراء البعيدة عن التحقيق والبرهان يشهد لك بذلك فتصفّحه ان كنت من اهل الرسوخ (ومن) هذه القوانين الصناعيّة لاستخراج الغيوب فيما يزعمون الزايرجة المسماة زايرجة العالم المعزوة الى ابى العباس السبتى من اعلام المتصوّفة بالمغرب كان فى آخر الماية السادسة بمراكش ولعهد يعقوب المنصور من ملوك الموحدين وهى غريبة العمل صنعية وكثيرٌ من الخواصّ يولعون بافادة الغيب منها بعملها المعروف الملغوز فيحرصون لذلك على حلّ رمزه وكشف غامضه لذلك وصورتها التى يقع العمل عندهم فيها دايرة عظيمة فى داخلها دواير

Digitized by Google

متوازية منها للافلاك وللعناصر وللمكوّنات وللروحانيّات ولغير ذلك من اصناف الكاينات والعلوم وكل دايرة مقسومة باقسام فلكها اما البروج واما العناصر او غيرها وخطوط كل قسم مارّة الى المركز ويسمونها الاوتار على كل وتر حروف متتابعة موضوعة فمنها برشوم الزمام التى هى اشكال الاعداد عند اهل الدواوين والحسبان بالمغرب لهذا العهد ومنها برشوم الغبار المتعارفة وفى داخل الزايرجة وبين الدواير اسماء العلوم ومواضع الاكوان وعلى ظهر الدواير جدول متكثّر البيوت المتقاطعة طولا وعرضا يشتمل على خمسة وخمسين بيتا فى العرض وماية واحدى وثلاثين فى الطول جوانب منه معمورة البيوت تارة بالعدد واخرى بالحروف وجوانب خالية البيوت ولا تعلم نسبة تلك الاعداد فى اوضاعها ولا القسمة التى عيّنت (1) البيوت العامرة من الخالية وحفافى الزايرجة ابيات من عروض الطويل على روى اللام المنصوبة تتضمن صورة العمل فى استخراج المطلوب من تلك الزايرجة الا انها من قبيل الالغاز فى عدم الوضوح والجلاء وفى بعض جوانب الزايرجة بيت من الشعر منسوب لبعض اكابر اهل الحدثان بالمغرب وهو مالك بن وهيب من علماء اهل اشبيليّة كان فى الدولة اللمتونيّة ونصّ البيت

(1) Man. A. et B. عنت.

Digitized by Google

سوال عظيم الخلق حزت فصن اذن غريب غرايب شك ضبطه الجد مثلا

وهو البيت المتداول عندهم فى العمل لاستخراج الجواب من السوال فى هذه الزايرجة وغيرها فاذا ارادوا استخراج الجواب عمّا يسئل عنه من المسائل كتبوا ذلك السؤال وقطعوه حروفا ثم اخذوا الطالع لذلك الوقت من بروج الفلك ودرجها وعمدوا الى الزايرجة ثم الى الوتر المكتنف فيها بالبرج الطالع من اوله مارّا الى المركز ثم الى محيط الدايرة قبالة الطالع فياخذون جميع الحروف المكتوبة عليه من اوّله الى آخره والاعداد المرسومة بينها ويصيرونها حروفا بحساب الجمل وقد ينقلون آحادها الى العشرات وعشراتها الى المئين وبالعكس فيها كما يقتضيه قانون العمل عندهم ويضعونها مع حروف السؤال ويضيفون الى ذلك جميع ما على الوتر المكتنف بالبرج الثالث من الطالع من الحروف والاعداد من اوله الى المركز فقط لا يتجاوزونه الى المحيط ويفعلون بالاعداد ما فعلوه بالاول ويضيفونها الى الحروف الاخرى ثم يقطعون حروف البيت الذى هو اصل العمل وقانونه عندهم وهو بيت مالك بن وهيب المتقدّم الذكر ويضعونها ناحية ثم يضربون عدد درج الطالع فى اسّ البرج واسّه عندهم هو بعد البرج عن آخر المراتب عكس ما عليه الاسّ عند اهل صناعة الحساب فانّه عندهم البعد عن اول

Digitized by Google

المراتب ثم يضربونه فى عدد آخر يسمونه الاسّ الاكبر والدور الاصلىّ ويدخلون بما يجتمع لهم من ذلك فى بيوت الجدول على قوانين معروفة واعمال مذكورة وادوار معدودة ويستخرجون منها حروفا ويسقطون اخرى ويقابلون بما معهم فى حروف البيت وينقلون منه ما ينقلون الى حروف السوال وما معها ثم يطرحون تلك الحروف باعداد معلومة يسمونها الادوار ويخرجون فى كل دور الحرف الذى ينتهى عنده الدور ويعاودون ذلك بعدد الادوار المعيّنه عندهم لذلك فتخرج آخرها حروف متقطعة وتولف على التوالى فتصير كلمات منظومة فى بيت واحد على وزن البيت الذى يقابل به العمل ورويّه وهو بيت مالك بن وهيب المتقدّم حسبما نذكر ذلك كله فى فصل العلوم عند كيفيّة العمل بهذه الزايرجة وقد راينا كثيرا من الخواصّ يتهافتون على استخراج الغيب منها بتلك الاعمال ويحسبون ان ما وقع من مطابقة الجواب للسوال فى توافق الخطاب دليل على مطابقة الواقع وليس ذلك بصحيح لانّه قد مرّ لك ان الغيب لا يدرك بامر صناعىّ البتّة وانما المطابقة التى فيها بين الجواب والسوال من حيث الافهام والتوافق فى الخطاب حتى يكون الجواب مستقيما وموافقا للسوال ووقوع ذلك بهذه الصناعة فى تكسير الحروف المجتمعة

Digitized by Google

من السوال والاوتار (1) والدخول فى الجدول بالاعداد المجتمعة من ضرب الاعداد المفروضة واستخراج الحروف من الجدول واطراح اخرى ومعاودة ذلك فى الادوار المعدودة ومقابلة ذلك كله بحروف البيت على التوالى غير مستنكر وقد يقع الاطّلاع من بعض الاذكياء على تناسب بين هذه الاشياء فتقع له معرفة المجهول منها فالتناسب بين الاشياء هو سرّ الحصول على المجهول من المعلوم الحاصل للنفس وطريق لحصوله سيّما من اهل الرياضة فانها تفيد العقل قوةٍ على القياس وزيادة فى الفكر وقد مرّ لك تعليل ذلك غير مرّة ومن اجل هذا المعنى ينسبون هذه الزايرجة فى الغالب لاهل الرياضة فهذه منسوبة للسبتى ووقفت على اخرى منسوبة لسهل بن عبد الله ولعمرى انها من الاعمال الغريبة والمعاناة (2) العجيبة والجواب الذى يخرج منها فالسرّ فى خروجه منظوما فيما يظهر لى انّما هو المقابلة بحروف ذلك البيت ولهذا يكون النظم على وزنه ورويّه ويدلّ عليه انّا وجدنا اعمالا اخرى لهم فى مثل ذلك اسقطوا فيها المقابلة بالبيت فلم يخرج الجواب منظوما كما تراه عند الكلام على ذلك فى موضعه وكثير من الناس تضيق مداركهم عن التصديق

(1) Man. A. et B. الاوتاد.

(2) Man. A. et B. المعايات.

Digitized by Google

بهذا العمل ونفوذه الى المطلوب فينكر صحّتها ويحسب انها
من التخييلات والايهامات وان صاحب العمل بها يثبت
حروف البيت الذى ينظمه كما يريد بين اثناء حروف
السوال والاوتار ويفعل تلك الصناعة على غير نسبة ولا قانون
ثم يجئ بالبيت ويوهم ان العمل جاء به على طريقة
منضبطة وهذا الحسبان توهّم فاسد حمل عليه القصور عن
فهم التناسب بين الموجودات والمعلومات والتفاوت بين
المدارك والعقول ولكنّ من شأن كل مدرك ان ينكر ما ليس
فى طوقه ادراكه ويكفينا فى ردّ ذلك مشاهدة العمل بهذه
الصناعة والحدس القطعىّ بانّها جاءت بعمل مطرد وقانون
صحيح ولا مرية فيه عند من يباشر ذلك ممن له مزيد
ذكاء وحدس واذا كان كثير من المعاناة (1) فى العدد الذى
هو اوضح الواضحات يعسر على الفهم ادراكه لبعد النسبة فيه
وخفايها فما ظنّك مثل هذا مع خفاء النسبة فيه وغرابتها
(فلنذكر) مسئلة من المعاناة (2) يتّضح لك بها شئ ممّا
ذكرناه مثاله لو قيل لك خذ عددا من الدراهم واجعل
بازاء كل درهم ثلاثة من الفلوس ثم اجمع الفلوس التى اخذت
واشتر بها طايرا ثم اشتر بالدراهم طيورا بسعر ذلك الطاير
فكم الطيور المشتراة فجوابه ان تقول هى تسعة لانّك

(1) Man. A. et C. المعايات. B. المعاياة. (2) Man. A. et C. المعايات. B. المعاياة.

Digitized by Google

تعلم ان فلوس الدراهم اربعة وعشرون وان الثلاثة ثمنها وان
عدّة اثمان الواحد ثمانية فكانّك جمعت الثمن من كل درهم
الى الثمن من الاخر فكان كله ثمن طاير فهى ثمانية طيور
عدّة اثمان الواحد وتزيد على الثمانية طايرا اخر وهو المشترى
بالفلوس الماخوذة اولا وعلى سعره اشتريت بالدراهم فتكون
تسعة فانت ترى كيف خرج لك الجواب المضمر بسرّ
التناسب الذى بين اعداد المسئلة والوهم اول ما يلقى
اليك هذه وامثالها انما يجعله من قبيل الغيب الذى
لا يمكن معرفته فظهر ان التناسب بين الامور هو الذى
يخرج مجهولها من معلومها وهذا انما هو فى الواقعات
الحاصلة فى الوجود او العلم واما الكائنات المستقبلة اذا لم
نعلم اسباب وقوعها ولا ثبت لنا خبر صادق عنه فهو غيب
لا يمكن معرفته واذا تبيّن لك ذلك فالاعمال الواقعة فى
هذه الزايرجة كلها انما هى استخراج الفاظ الجواب من الفاظ
السؤال لانها كما رأيته استنباط حروف على ترتيب من
تلك الحروف بعينها على ترتيب اخر وسرّ ذلك انما هو
من تناسب بينهما يطلع عليه بعض دون بعض فمن عرف
ذلك التناسب تيسّر عليه استخراج ذلك الجواب بتلك
القوانين والجواب يدلّ فى مقام اخر من حيث وضوع
الفاظه وتراكيبه على وقوع احد طرفى السؤال من نفى او

Digitized by Google

اثبات وليس هذا من المقام الاول بل انما يرجع الى مطابقة الكلام لها فى الخارج ولا سبيل الى معرفة ذلك من هذه الاعمال بل البشر محجوبون عنه وقد استأثر الله بعلمه والله يعلم وانتم لا تعلمون

الفصل الثانى من الكتاب الاوّل فى العمران البدوى والامم الوحشيّة والقبايل وما يعرض فى ذلك من الاحوال وفيه اصول وتمهيدات

فصل فى ان اجيال البدو والحضر طبيعيّة

اعلم ان اختلاف الاجيال فى احوالهم انّما هو باختلاف نحلتهم من المعاش فانّ اجتماعهم انّما هو للتعاون (1) على تحصيله والابتداء بما هو ضرورىّ منه وبسيط قبل الحاجىّ والكمالىّ فمنهم من ينتحل الفلح من الغراسة والزراعة ومنهم من ينتحل القيام على الحيوان من الشاء والبقر والمعز والنحل والدود للقزّ لنتاجها واستخراج فضلاتها وهولاء القايمون على الفلح والحيوان تدعوهم الضرورة ولا بدّ الى البدو لانّه متّسع لما لا يتّسع له الحواضر من المزارع والفدن والمسارح

(1) Man C. et D المتعاون.

Digitized by Google

PROLÉGOMÈNES d'Ebn-Khaldoun.

للحيوان وغير ذلك فكان اختصاص هولاء البدو امرا ضروريّا
لهم وكان حينئذ اجتماعهم وتعاونهم فى حاجات معاشهم
وعمرانهم من القوت والكنّ والدفء انّما
هو بالمقدار الذى يحفظ الحياة ويحصّل
بلغة العيش من غير مزيد عليه للعجز عمّا وراء ذلك ثم اذا
اتّسعت احوال هولاء المنتحلين للمعاش وحصل لهم ما فوق
الحاجة من الغنى والرفه دعاهم ذلك الى السكون والدعة
وتعاونوا فى الزايد على الضرورة واستكثروا من الاقوات
والملابس والتانّق فيها وتوسعة البيوت واختطاط المدن
والامصار للتحصّن ثم تزيد احوال الرفه والرغد فتجئ عوايد
الترف البالغة مبالغها فى التانّق فى علاج القوت واستجادة
المطابخ وانتقاء الملابس الفاخرة فى انواعها من الحرير
والديباج وغير ذلك ومعالات البيوت والصروح واحكام
وضعها فى تنجيدها والانتهاء فى الصنايع فى الخروج من
القوة الى الفعل الى غايتها فيتّخذون القصور والمنازل ويجرون
فيها المياه ويعالون فى صروحها وتنجيدها ويختلفون فى
استجادة ما يتّخذونه لمهنهم من لبوس او فراش او آنية
او ماعون وهولاء هم الحضر ومعناه الحاضرون اهل الامصار
والبلدان ومن هولاء من ينتحل فى معاشه الصنايع ومنهم من
ينتحل التجارة وتكون مكاسبهم انما و ارفة من اهل البدو لان

Digitized by Google

احوالهم زايدة على الضرورىّ ومعاشهم على نسبة وجدهم فقد تبيّن ان احوال البدو والحضر طبيعيّة لا بدّ منها كما قلناه

فصل فى ان جيل العرب فى الخليقة طبيعىّ

قد قدّمنا فى الفصل قبله ان اهل البدو هم المنتحلون للمعاش الطبيعىّ من الفلح والقيام على الانعام وانهم مقتصرون على الضرورىّ فى الاقوات والملابس والمساكن وساير الاحوال والعوايد ومقتصرون عمّا فوق ذلك من حاجىّ او كمالىّ فيتّخذون البيوت من الشعر او الوبر او الشجر او من الطين والحجارة غير منجدة انما هو قصد الاستظلال والكنّ لا ما وراءه وقد يأوون الى الغيران والكهوف واما اقواتهم فيتناولونها بيسير العلاج او بغير علاج البتّة الّا ما مسّته النار فمن كان معاشه منهم فى الزراعة والقيام بالفلح كان المقام به اولى من الظعن وهولاء سكّان الهدائر والقرى والجبال وهم عامّة البربر والاعاجم ومن كان معاشه فى السايمة مثل البقر والغنم فهم ظواعن فى الاغلب لارتياد المسارح والمياه لحيوانهم اذ التقلّب فى الارض اصلح بها ويسمّون شاوية ومعناه القايمون على الشاء والبقر ولا يبعدون فى القفر لفقدان المسارح الطيّبة به وهولاء مثل البربر والترك واخوانهم من التركمان والصقالبة (واما) من كان معاشهم

Digitized by Google

فى الابل فهم اكثر ظعنا وابعد فى القفر مجالا لان مسارح التلول ونباتها وشجرها لا تستغنى به الابل فى قوام حياتها عن مرعى الشجر فى القفر وورود مياهه الملحة والتقلّب فصل الشتاء فى نواحيه فرارا من اذى البرد الى دفء هوائه وطلبا لمفاحص النتاج فى رماله اذ الابل اصعب الحيوان فصالا ومخاضا واحوجها فى ذلك الى الدفء فاضطرّوا الى ابعاد النجعة وربّما ذادتهم الحامية عن التلول ايضا فاوغلوا فى القفار نفرة عن النصفة منهم والجزاء بعداوتهم فكانوا لذلك اشدّ الناس توحّشا وتنزّلوا من اهل الحواضر منزلة الوحش غير المقدور عليه والمفترس من الحيوانات العجم وهولاء هم العرب وفى معناهم ظواعن البربر وزناتة بالمغرب والاكراد والتركمان والترك بالمشرق الّا ان العرب ابعد نجعة واشدّ بداوة لانّهم مختصّون بالقيام على الابل فقط وهولاء يقومون عليها وعلى الشاء والبقر معها فقد تبيّن لك ان جيل العرب طبيعىّ لا بدّ منه فى العمران والله الخلّاق العليم

فصل فى ان البدو اقدم من الحضر وسابق عليه وان البادية اصل العمران والامصار ومدد لها

قد ذكرنا ان البدو هم المقتصرون على الضرورىّ فى احوالهم

Digitized by Google

العاجزين عمّا فوقه وان الحضر المعتنون بحاجات الترف
والكمال فى احوالهم وعوايدهم ولا شكّ ان الضرورىّ اقدم
من الحاجىّ والكمالىّ وسابق عليه وكان الضرورىّ اصل
والكمالىّ فرع ناشئ عنه فالبدو اصل للمدن والحضر سابق
عليها لانّ اول مطالب الانسان الضرورىّ ولا ينتهى الى
الترف والكمال الّا اذا كان الضرورى حاصلا فخشونة البداوة
قبل رفه الحضارة ولهذا نجد التمدّن غاية للبدوىّ يجرى
اليها وينتهى بسعيه الى مقترحه (1) منها ومتى حصل على
الرياش الذى تحصل به احوال الترف وعوايده عاج الى
الدعة وامكن نفسه من قياد المدينة وهكذا شأن اهل القبايل
المبتدية كلهم والحضرىّ لا يتشوّف الى احوال البادية
الا لضرورة تدعوه اليها او لتقصير عن احوال اهل مدينته
(ومما) يشهد لنا ان البدو اصل للحضر ومتقدّم عليه انّا اذا
فتشنا اهل مصر من الامصار وجدنا اوّليّة اكثرهم من اهل
البدو الذين بضاحية ذلك المصر وفى قراه وانهم ايسروا
فسكنوا المصر وعدلوا الى الدعة والترف الذى فى الحضر
وذلك يدلّ على ان احوال الحضارة ثانية عن احوال البداوة
وانها اصل لها فتفهّمه ثم ان كل واحد من البدو والحضر
متفاوت الاحوال من جنسه فربّ حىّ اعظم من حىّ

(1) Man. C. مفترجة.

Digitized by Google

PROLÉGOMÈNES d'Ebn-Khaldoun.

وقبيلة اعظم من قبيلة ومصر اوسع من مصر ومدينة اكثر عمرانا من مدينة وقد تبيّن ان وجود البدو متقدّم على وجود المدن والامصار واصل لها كما ان وجود المدن والامصار من عوايد الترف والدعة الذى هو متاخّر عن عوايد الضرورة المعاشيّة

فصل فى ان اهل البدو اقرب الى الخير من اهل الحضر

وسببه ان النفس اذا كانت على الفطرة الاولى كانت متهيّئة لقبول ما يرد عليها وينطبع فيها من خير او شرّ قال صلى الله عليه وسلم كل مولود يولد على الفطرة فابواه يهوّدانه او ينصّرانه او يمجّسانه وبقدر ما يسبق اليها من احد الخلقين تبعد عن الاخر ويصعب عليها اكتسابه فصاحب الخير اذا سبقت الى نفسه عوايد الخير وحصلت لها ملكته بعد عن الشرّ وصعب عليه طريقه وكذا صاحب الشرّ اذا سبقت اليه ايضا عوايده واهل الحضر لكثرة ما يعانونه من فنون الملاذّ وعوايد الترف والاقبال على الدنيا والعكوف على شهواتهم منها قد تلوّثت انفسهم بكثير من مذمومات الخلق والشرّ وبعدت عليهم طرق الخير ومسالكه بقدر ما حصل لهم من ذلك حتّى لقد ذهبت عنهم مذاهب الحشمة فى احوالهم فنجد الكثير منهم يقذعون فى اقوال الفحشاء فى مجالسهم وبين

Digitized by Google

كبرائهم واهل محارمهم لا يصدّهم عنه وازع الحشمة لما
اخذتهم به عوايد السوء فى التظاهر بالفواحش قولا وعملا
واهل البدو وان كانوا مقبلين على الدنيا مثلهم الا انه فى
المقدار الضرورىّ لا فى الترف ولا فى شىء من اسباب
الشهوات واللذّات ودواعيها فعوايدهم فى معاملاتهم على
نسبتها وما يحصل فيهم من مذاهب السوء ومذمومات
الخلق بالنسبة الى اهل الحضر اقلّ بكثير فهم اقرب الى
الفطرة الاولى وابعد عمّا ينطبع فى النفس من سوء الملكات
بكثرة العوايد المذمومة وقبحها فيسهل علاجهم عن علاج
الحضر وهو ظاهر وقد نوضح فيما بعد ان الحضارة هى نهاية
العمران وخروجه الى الفساد ونهاية الشرّ والبعد عن الخير
فقد تبيّن ان اهل البدو اقرب الى الخير من اهل الحضر
والله يحبّ المتّقين ولا يعترض على ذلك بما ورد فى
حديث البخارى من قول الحجاج لسلمة بن الاكوع
وقد بلغه انه خرج الى سكنى البادية فقال له ارتددت على
عقبيك تعرّبت فقال لا ولكن رسول الله صلى الله عليه
وسلم اذن لى فى البدو فاعلم ان الهجرة افترضت اول
الاسلام على اهل مكّة ليكونوا مع النبى صلى الله عليه وسلم
حيث حلّ من المواطن ينصرونه ويظاهرونه على امره
ويحرسونه ولم تكن واجبة على الاعراب اهل البادية لان

Digitized by Google

اهل مكة يمسّهم من عصبيّة النبى صلى الله عليه وسلم فى
الظاهرة والحراسة ما لا يمسّ غيرهم من بادية الاعراب وقد
كان المهاجرون يستعيذون بالله من التعرّب وهو سكنى
البادية حيث لا تجب الهجرة وقال صلى الله
عليه وسلم فى حديث سعد بن ابى وقاص عند مرضه
بمكّة اللهمّ امض لاصحابى هجرتهم ولا تردّهم على اعقابهم
ومعناه ان يوفّقهم لملازمة المدينة وعدم التحوّل عنها فلا يرجعوا
عن هجرتهم التى ابتدوا بها وهو من باب الرجوع على
العقب فى السعى الى وجه من الوجوه وقيل ان ذلك
كان خاصّا بما قبل الفتح وحين كثر المسلمون واعتزّوا
وتكفّل الله لنبيه بالعصمة من الناس فان الهجرة ساقطة
حينئذ لقوله صلى الله عليه وسلم لا هجرة بعد الفتح قيل
سقط انشاؤها عمّن يسلم بعد الفتح وقيل سقط وجوبها عمّن
اسلم وهاجر قبل الفتح والكل مجمعون على انها بعد الوفاة
ساقطة لان الصحابة افترقوا من يومئذ فى الآفاق وانتشروا
ولم يبق الا فضل السكنى فى المدينة وهو هجرة فقول
الحجاج لسلمة حين سكن البادية ارتددت على عقبيك
تعرّبت نعى عليه فى ترك السكنى بالمدينة بالاشارة الى الدعاء
المأثور الذى قدّمناه وهو قوله ولا تردّهم على اعقابهم وبقوله
تعرّبت الى انه صار من العرب الذين لا يهاجرون واجاب

Digitized by Google

سلمة بانكار ما الزمه من الامرين وان النبى صلى الله عليه وسلم اذن له فى البدو ويكون ذلك خاصّا به كشهادة خزيمة وعناق ابى بردة او يكون الحجاج انّما نعى عليه ترك السكنى بالمدينة فقط لعلمه بسقوط الهجرة بعد الوفاة واجابه سلمة بان اغتنامه لاذن النبى صلى الله عليه وسلم اولى وافضل فما اثره به واختصّه الا لمعنى علمه فيه وعلى كل تقدير فليس فيه دليل على مذمّة البدو الذى عبّر عنه بالتعرّب لان مشروعيّة الهجرة انما كان كما علمت لمظاهرة النبى صلى الله عليه وسلم وحراسته لا لمذمّة البدو فليس فى النعى على ترك هذا الواجب بالتعرّب دليل على مذمّة التعرّب والله اعلم

فصل فى ان اهل البدو اقرب الى الشجاعة من اهل الحضر

والسبب فى ذلك ان اهل الحضر القوا جنوبهم على مهاد الراحة والدعة وانغمسوا فى النعيم والترف ووكلوا امرهم فى المدافعة عن اموالهم وانفسهم الى واليهم والحاكم الذى يسوسهم والحامية التى تولّت حراستهم واستناموا الى الاسوار التى تحوطهم والحرز الذى يحول دونهم لا تهيجهم هيعة ولا ينفر لهم صيد فهم غارّون آمنون قد القوا السلاح وربيت على ذلك منهم اجيال وتنزّلوا منزلة النساء والولدان الذين

Digitized by Google

هم عيال على ابى مثواهم حتّى صار ذلك خلقا لهم
يتنزّل منزلة الطبيعة واهل البدو لتفرّدهم عن المجتمع وتوحّشهم
فى الضواحى وبعدهم عن الحامية وانتباذهم عن الاسوار
والابواب قايمون بالمدافعة عن انفسهم لا يكلونها الى سواهم
ولا يثقون فيها بغيرهم فهم دايما يحملون السلاح ويتلقّتون (1)
عن كل جانب فى الطرق ويتجافون عن الهجوع الا غرارا
فى المجالس وعلى الرحال وفوق الاقتاب يتوجّسون للنبأة
والهيعات (2) وينفردون فى القفر والبيداء مدلّين بباسهم واثقين
بانفسهم قد صار لهم الباس خلقا والشجاعة سجيّة يرجعون
اليها متى دعاهم داع او استفزّهم صارخ واهل الحضر مهما
خالطوهم فى البادية او صاحبوهم فى السفر عيال عليهم لا يملكون
معهم شئا من امر انفسهم وذلك مشاهد بالعيان حتى فى
معرفة النواحى والجهات وموارد الماء ومشارع السبل وسبب
ذلك ما شرحناه واصله ان الانسان ابن عوايده ومالوفه
لا ابن طبيعته ومزاجه فالذى الفه من الاحوال حتى صار له
خلقا وملكة وعادة تنزل (3) منزلة الطبيعة والجبلّة واعتبر ذلك
فى الادميين تجده كثيرا صحيحا والله يخلق ما يشاء وهو
الخلّاق العليم

(1) Man. D. يلتفتون. (2) Man. D. الصعاب. (3) Man. C. تتنزّل.

Digitized by Google

فصل فى ان معاناة اهل الحضر للاحكام مفسدة للبأس فيهم ذاهبة بالمنعة منهم

وذلك انه ليس كل احد مالكا امر نفسه اذ الرؤساء والامراء المالكون لامر الناس قليل بالنسبة الى غيرهم فمن الغالب ان يكون للانسان فى ملكة غيره ولا بدّ فان كانت الملكة رفيقة وعادلة لايعانا منها حكم ولا منع وصدّ كان من تحت يدها مدلّين بما فى انفسهم من شجاعة او جبن واثقين بعدم الوازع حتّى صار لهم الادلال جبلّة لهم لا يعرفون سواها واما اذا كانت الملكة واحكامها بالقهر والسطوة فتكسر حينئذ من سورة بأسهم وتذهب المنعة عنهم لما يكون من التكاسل فى النفوس المضطهدة كما نبيّنه وقد نهى عمر سعدا رضى الله عنهما عن مثلها لما اخذ زهرة بن حويّة سلب الجالنوس وكانت قيمته خمسة وسبعين الفا من الذهب وكان اتبع الجالنوس يوم القادسية فقتله واخذ سلبه فانتزعه منه سعد وقال هلا (1) انتظرت فى اتباعه اذنى وكتب الى عمر يستاذنه فكتب اليه عمر تعمد الى مثل زهرة وقد صلى بما صلى به وبقى عليك ما بقى من حزبك فتكسر قرنه وتفسد قلبه وامضى له عمر سلبه واما اذا كانت الاحكام بالعقاب فمذهبة للبأس بالكلية لان وقوع العقاب به ولم يدافع عن نفسه يكسبه المذلة

(1) Man. A. B. et C. الا.

Digitized by Google

التى تكسر من سورة بأسه بلا شكّ وامّا اذا كانت الاحكام تاديبيّة وتعليميّة واخذت من عهد الصبا اثرت فى ذلك بعض الشئ لمرباه على المخافة والانقياد فلا يكون مدلّا ببأسه ولهذا نجد المتوحّشين من العرب اهل البدو اشدّ بأسا ممّن تاخذه الاحكام ونجد ايضا الذين يعانون الاحكام وملكتها من لدن مرباهم فى التأديب والتعليم فى الصنايع والعلوم والديانات ينقص ذلك من بأسهم كثيرا ولا يكادون يدافعون عن انفسهم عادية بوجه من الوجوه وهذا شأن طلبة العلم المنتحلين للقراءة والاخذ عن المشايخ والايمّة الممارسين للتعليم والتاديب فى مجالس الوقار والهيبة فتفهم هذه الاحوال وذهابها بالمنعة والبأس ولا تستنكرنّ (1) ذلك بما وقع فى الصحابة من اخذهم باحكام الدين والشريعة ولم ينقص ذلك من بأسهم بل كانوا اشدّ الناس بأسا لان الشارع صلوات الله عليه لما اخذ المسلمون عنه دينهم كان وازعه فيه من انفسهم لما تلى عليهم من الترغيب والترهيب ولم يكن بتعليم صناعىّ ولا تاديب تعليمىّ انّما هى احكام الدين وآدابه المتلقّاة نقلا يأخذون انفسهم بها بما رسخ فيهم من عقايد الايمان والتصديق فلم تزل سورة بأسهم مستحكمة كما كانت ولم تخدشها اظفار التأديب والحكم

(1) Man. A. et D. يستنكرون. B. يستنكرن.

Digitized by Google

قال عمر رضى الله عنه من لم يودّبه الشرع ولا ادّبه الله حرصا على ان يكون الوازع لكل احد من نفسه ويقينا بان الشارع اعلم بمصالح العباد (ولما) تناقص الدين فى الناس واخذوا بالاحكام الوازعة ثم صار الشرع علما وصناعة يوخذ بالتعليم والتأديب ورجع الناس الى الحضارة وخلق الانقياد الى الاحكام نقصت بذلك سورة البأس فيهم فقد تبيّن ان الاحكام السلطانيّة والتعليميّة مفسدة للبأس لان الوازع فيها اجنبىّ وامّا الشرعيّة فغير مفسدة لان الوازع فيها ذاتىّ ولهذا كانت هذه الاحكام السلطانيّة والتعليميّة مما يؤثر فى اهل الحواضر فى ضعف نفوسهم وخضد (1) الشوكة منهم بمعاناتها فى وليدهم وكهولهم والبدو بمعزل عن هذه المنزلة لبعدهم عن احكام السلطان والتعليم والآداب ولهذا قال ابو محمد بن ابى زيد فى كتابه احكام المعلّمين والمتعلّمين انه لا ينبغى للمؤدّب ان يضرب احدا من الصبيان فى التعليم فوق ثلاثة اسواط نقله عن شريح القاضى واحتجّ له بعضهم بما وقع فى حديث بدء الوحى من شأن الغطّ وانه كان ثلاث مرّات وهو ضعيف ولا يصلح شأن الغطّ ان يكون دليلا على ذلك لبعده عن التعليم المتعارف والله الحكيم الخبير

(1) Man. B. حضد. C. خضل. D. حصد.

فصل فى ان سكنى البدو لا يكون الّا للقبايل اهل العصبيّة

اعلم ان الله سبحانه ركب فى طباع البشر الخير والشرّ كما قال تعالى وهديناه النجدين وقال تعالى فالهمها فجورها وتقواها والشرّ اقرب الخلال اليه اذا اهمل فى مرعى عوايده ولم يهذّبه الاقتداء بالدين وعلى ذلك الجم الغفير الا من وفّقه الله ومن اخلاق الشرّ فيهم الظلم والعدوان بعض على بعض فهن امتدّت عينه الى متاع اخيه امتدّت يده الى اخذه الى ان يصدّه وازع كما قال

والظلم من شيم النفوس فان تجد ذا عفّة فلعلّة لا يظلم

فامّا المدن والامصار فعدوان بعضهم على بعض يدفعه الحكام والدولة بما قبضوا على ايدى من تحتهم من الكافة ان يمتدّ بعضهم الى بعض او يعدو عليه فهم مكبوحون بحكمة القهر والسلطان عن التظالم الا اذا كان من الحاكم بنفسه وامّا العدوان الذى من خارج المدينة فيدفعه سياج الاسوار عند الغفلة او الغرّة ليلا او العجز عن المقاومة نهارا ويدفعه ذياد الحامية من اعوان الدولة عند الاستعداد والمقاومة (واما) احياء البدو فيزع بعضهم عن بعض مشايخهم وكبراؤهم بما وقر فى نفوس الكافة لهم من الوقار والتجلّة وامّا حللهم فانّما يذود عنها من خارج حامية الحىّ من انجادهم وفتيانهم

Digitized by Google

المعروفين بالشجاعة فيهم ولا يصدق دفاعهم وذيادهم الا اذا كانوا عصبيّة واهل نسب واحد لانّهم بذلك تشتدّ شوكتهم ويخشى جانبهم اذ نعرة كل احد على نسبته وعصبيّته اهمّ وما جعل الله فى قلوب عباده من الشفقة والنعرة على ذوى ارحامهم وقرباهم موجود فى الطباع البشريّة وبها يكون التعاضد والتناصر وتعظم رهبة العدو لهم واعتبر ذلك فيما حكاه القران عن اخوة يوسف حين قالوا لابيه لئن اكله الذئب ونحن عصبة انّا اذا لخاسرون والمعنى انه لا يتوهّم العدوان على احد مع وجود العصبيّة له وامّا المنفردون فى انسابهم فقلّ ان يصيب احدا منهم نعرة على صاحبه فاذا اظلم الجوّ بالشرّ يوم الحرب تسلّل كل واحد منهم يبغى النجاة بنفسه خيفة واستيحاشا من التخاذل فلا يقتدرون من اجل ذلك على سكنى القفر لما انهم حينئذ طعمة لمن يلتهمهم من الامم سواهم واذا تبيّن ذلك فى السكنى التى تحتاج الى المدافعة والحماية فبمثله يتبيّن لك فى كل امر يحمل الناس عليه من نبوة او اقامة ملك او دعوة اذ بلوغ الغرض من ذلك كله انما يتمّ بالقتال عليه لما فى طباع البشر من الاستعصاء ولا بدّ فى القتال من العصبيّة كما ذكرناه انفا فاتّخذه اماما تقتدى به فيما نورده عليك من بعد والله الموفّق

Digitized by Google

PROLÉGOMÈNES d'Ebn-Khaldoun.

فصل فى ان العصبيّة انّما تكون من الالتحام بالنسب او ما فى معناه

وذلك ان صلة الرحم طبيعىّ فى البشر الّا فى الاقلّ ومن صلتها النعرة على ذوى القربى واهل الارحام ان ينالهم ضيم او تصيبهم هلكة فان القريب يجد فى نفسه غضاضة من ظلم قريبه او العداء عليه ويودّ لو يحول بينه وبين ما يصله من المعاطب والمهالك نزعة طبيعيّة فى البشر مذ كانوا فاذا كان النسب الواصل بين المتناصرين قريبا جدّا بحيث حصل به الالتحام والاتّحاد كانت الوصلة ظاهرة فاستدعت ذلك بمجرّدها ووضوحها واذا بعد النسب بعض الشئ فربّما تنوسى بعضها وتبقى منه شهرة فتحمل على النصرة لذوى نسبه بالامر المشهور منه فرارا من الغضاضة التى يتوهّمها فى نفسه من ظلم من هو منسوب اليه بوجه (ومن) هذا الباب الولاء والحلف اذ نعرة كل احد على اهل ولايه وحلفه للانفة التى تلحق النفس من اهتضام جارها او قريبها او نسيبها بوجه من وجوه النسب وذلك لاجل اللحمة الحاصلة من الولاء مثل لحمة النسب او قريبا منها ومن هذا تفهم معنى قوله صلى الله عليه وسلم تعلّموا من انسابكم ما تصلون به ارحامكم بمعنى ان النسب انّما فايدته

Digitized by Google

هذا الالتحام الذى يوجب صلة الارحام حتى تقع المناصرة والنعرة وما فوق ذلك مستغنى عنه اذ النسب امر وهمى لا حقيقة له ونفعه له انّما هو فى هذه الوصلة والالتحام فاذا كان ظاهرا واضحا حمل النفوس على طبيعتها من النعرة كما قلناه واذا كان انّما استفاد من الخبر البعيد ضعف فيه الوهم وذهبت فايدته وصار الشغل به مجانا ومن اعمال اللهو المنهى عنه ومن هذا الاعتبار معنى قولهم النسب علم لا ينفع وجهالة لا تضرّ بمعنى ان النسب اذا خرج عن الوضوح وصار من قبيل العلوم ذهبت فايدة الوهم فيه عن النفس وانتفت النعرة التى تحمل عليها العصبيّة فلا منفعة حينئذ فيه والله تعالى اعلم

فصل فى ان الصريح من النسب انّما يوجد للمتوحّشين فى القفر من العرب ومن فى معناهم

وذلك لما اختصّوا به من نكد العيش وشظف الاحوال وسوء الموطن حملتهم عليها الضرورة التى عيّنت لهم تلك القسمة وهى بما كان معاشهم من القيام على الابل ونتاجها ورعايتها والابل تدعوهم الى التوحّش فى القفر لرعيها من شجره ونتاجها فى رماله كما تقدّم والقفر مكان الشظف والسغب فصار لهم إلفا وعادة وربيت فيها اجيالهم حتّى

Digitized by Google

تمكّنت خلقا وجبلّة فلا ينزع اليهم احد من الامم ان يساهمهم
فى حالهم ولا يأنس بهم احد من الاجيال بل لو وجد
واحد منهم السبيل الى الفرار من حاله وامكنه ذلك لما
تركه فيومن عليهم لاجل ذلك من اختلاط انسابهم وفسادها
ولا تزال بينهم محفوظة صريحة واعتبر ذلك فى مضر من
قريش وكنانة وثقيف وبنى اسد وهذيل ومن جاورهم من
خزاعة لما كانوا اهل شظف ومواطن غير ذات زرع ولا ضرع
وبعدوا من ارياف الشام والعراق ومعادن الادم والحبوب
كيف كانت انسابهم صريحة محفوظة لم يدخلها اختلاط
ولا عرف فيها شوب (واما) العرب الذين كانوا فى التلول فى
معادن الخصب للمراعى والعيش من حمير وكهلان مثل
لخم وجدام وغسان وطى وقضاعة واياد فاختلطت انسابهم
وتداخلت شعوبهم ففى كل واحد من بيوتهم من الخلاف
عند الناس ما تعرف وانّما جاءهم ذلك من قبل العجم
ومخالطتهم وهم لا يعتبرون المحافظة على النسب فى بيوتهم
وشعوبهم وانّما هذا للعرب فقط قال عمر تعلّموا النسب
ولا تكونوا كنبط السواد اذا سئل احدهم عن اصله قال من
قرية كذا هذا الى ما لحق هولاء العرب اهل الارياف من
الازدحام مع الناس على البلد الطيّب والمراعى الخصبة فكثر
الاختلاط وتداخلت الانساب وقد كان وقع فى صدر الاسلام

Digitized by Google

الانتماء الى المواطن فيقال جند قنسرين جند دمشق جند العواصم وانتقل ذلك الى الاندلس ولم يكن لاطراح العرب امر النسب وانّما كان لاختصاصهم بالمواطن بعد الفتح حتّى عرفوا بها وصارت لهم علامة زايدة على النسب يتميّزون بها عند امرائهم ثم وقع الاختلاط فى الحواضر مع العجم وغيرهم وفسدت الانساب بالجملة وفقدت ثمرتها من العصبيّة فاطرحت ثم تلاشت القبايل ودثرت فدثرت العصبيّة بدثورها وبقى ذلك فى البدو كما كان والله وارث الارض ومن عليها

فصل فى اختلاط الانساب كيف يقع

انّه من البيّن انّ بعضا من اهل الانساب يسقط الى اهل نسب اخر بنزوع اليهم او حلف او ولاء او لفرار من قومه بجناية اصابها فيدّعى بنسب هولاء ويعدّ منهم فى ثمراته من النعرة والقود وحمل الديات وساير الاحوال واذا وجدت ثمرات النسب فكانّه وجد لانّه لا معنى لكونه من هولاء او من هولاء الا جريان احكامهم واحوالهم عليه وكانّه التحم بهم ثم انه قد يتناسا النسب الاول بطول الزمان ويذهب اهل العلم به فيخفى على الاكثر فما زالت الانساب تسقط من شعب الى شعب ويلتحم قوم باخرين فى الجاهليّة والاسلام والعرب

Digitized by Google

والعجم وانظر خلاف الناس فى نسب المنذر وغيرهم تتبيّن شيئا من ذلك (ومنه) شأن بجيلة فى عرفجة بن هرثمة لما ولاه عمر عليهم فسألوه الاعفاء منه وقالوا هو فينا نزيف اى دخيل ولصيق وطلبوا ان يولى عليهم جريرا فسأله عمر عن ذلك فقال عرفجة صدقوا يا امير المومنين انا رجل من الازد اصبت دما فى قومى ولحقت بهم وانظر منه كيف اختلط عرفجة ببجيلة ولبس جلدتهم ودعى بنسبهم حتّى ترشّح للرئاسة عليهم لولا علم بعضهم بوشايجه ولو غفلوا عن ذلك وامتدّ الزمان لتنوسى بالجملة وعدّ منهم بكل وجه ومذهب فافهم واعتبر سرّ الله فى خليقته ومثل هذا كثير لهذا العهد ولما قبله من العهود

فصل فى ان الرئاسة على اهل العصبيّة لا تكون فى غير نسبهم

وذلك انّ الرئاسة لا تكون الا بالغلب والغلب انّما يكون بالعصبيّة كما قدّمناه فلا بدّ فى الرئاسة على القوم ان تكون من عصبيّة غالبة لعصبياتهم واحدة واحدة لانّ كل عصبيّة منهم اذا احسّت بغلبة عصبيّة الرئيس لهم اقرّوا بالاذعان والاتباع والساقط فى نسبهم بالجملة لا تكون له عصبيّة بالنسب انّما هو ملصق نزيف وغاية التعصّب له

Digitized by Google

بالولاء والحلف وذلك لا يوجب له غلبا عليهم البتّة وان
فرضنا انه قد التحم بهم واختلط وتنوسى عهده الاول من
الالتصاق ولبس جلدتهم ودعى بنسبهم فكيف له الرئاسة
قبل هذا الالتحام او لاحد من سلفه والرياسة على القوم انّما
تكون متناقلة فى منبت واحد يعيّن له الغلب بالعصبيّة
فالاوليّة التى كانت لهذا الملصق قد عرف فيها التصاقه
من غير شك ومنعه ذلك الالصاق من الرئاسة حينيذ
فكيف تنوقلت عنه وهو على حال الالصاق والرياسة لا بدّ
وان تكون موروثة عن مستحقّها لما قلناه من التغلّب
بالعصبيّة (وقد) يتشوّف كثير من الرؤساء على القبايل
والعصايب (1) الى انساب يلحقون (2) بها امّا لخصوصيّة
فضيلة كانت فى اهل ذلك النسب من شجاعة او كرم
او ذكر كيف اتّفق فينزعون الى ذلك النسب ويتورّطون
بالدعوى فى شعوبه ولا يعلمون ما يوقعون فيه انفسهم من
القدح فى رياستهم والطعن فى شرفهم وهذا كثير للناس
فى هذا العهد (ومن ذلك) ما تدّعيه زناتة جملة انهم من
العرب ومنه ادّعاء اولاد رباب المعروفين بالحجازين من بنى
عامر احدى شعوب زعبة انهم من بنى سليم ثم من الشريد
منهم لحق جدّهم ببنى عامر نجارا يصنع الحرجان واختلط

(1) Man. A. et B. العصبيّات. (2) Man. A. et B. يلهجون. C. يلتهجون.

Digitized by Google

بهم والتحم بنسبهم حتى رأس عليهم ويسمونه الحجازى
(ومن) ذلك ادّعاء بنى عبد القوى بن العباس من توجين
انّهم من ولد العباس بن عبد المطلب رغبة فى هذا
النسب الشريف وغلطا باسم العباس بن عطية ابى عبد
القوى ولم يعلم دخول احد من العباسيّين الى المغرب لانّه
كان منذ اول دولتهم على دعوة العلويين اعدائهم من الادارسة
والعبيديين فكيف يسقط العبّاسىّ الى احد من شيعة العلويين
(وكذلك) ما يدّعيه ابناء زيان ملوك بنى عبد الواد انّهم
من ولد القاسم بن ادريس ذهابا الى ما اشتهر فى نسبهم انهم
من ولد القاسم فيقولون بلسانهم الزناتىّ ايت القاسم اى
بنو القاسم ثم يدّعون ان القاسم هذا هو القاسم بن ادريس او
القاسم بن محمد بن ادريس ولو كان ذلك صحيحا فغاية
القاسم هذا انه فرّ من مكان سلطانه مستجيرا بهم فكيف تتمّ
له الرياسة عليهم فى باديتهم وانّما هو غلط من قبل اسم
القاسم فانه كثير الدوران فى الادارسة فتوهموا ان قاسمهم
من ذلك النسب وهم غير محتاجين لذلك فانّ منالهم
للملك والعزّة انّما كان بعصبيّتهم ولم يكن بادّعاء علويّة
ولا عبّاسيّة ولا شئ من الانساب وانّما يحمل على هذا
المتقرّبون الى الملوك بمنازعهم ومذاهبهم ويشتهر حتى يبعد
عن الردّ (فلقد) بلغنى عن يغمراسن بن زيان موئل سلطانهم

Digitized by Google

انه لمّا قيل له ذلك نكره وقال بلغته الزناتيّة ما معناه امّا الدنيا والملك فنلناه بسيوفنا لا بهذا النسب وامّا نفعه فى الآخرة فمردود الى الله واعرض عن المتقرّب اليه بذلك (ومن) هذا الباب ما يدّعيه بنو سعد شيوخ بنى يزيد من زغبة انهم من ولد ابى بكر الصديق رضى الله عنه وبنو سلامة شيوخ بنى يَدَّلَتَن من توجين انهم من سليم وكذا الذواودة شيوخ رياح انّهم من اعقاب البرامكة وكذلك بنو مهنا امراء طى بالمشرق يدّعون فيما بلغنا انهم من اعقابهم وامثال ذلك كثير ورياستهم فى قومهم مانعة من ادّعاء هذه الانساب كما ذكرناه بل يعين ان يكونوا من صريح ذلك النسب واقوى عصباته فاعتبره واجتنب المغالطة فيه ولا يجعل من هذا الباب الحاق مهدى الموحدين بنسب العلويّة فان المهدى لم يكن من منبت الرياسة فى هرغة قومه وانّما رأس عليهم بعد اشتهاره بالعلم والدين ودخول قبايل المصامدة فى دعوته وكان مع ذلك من اهل المنابت المتوسّطة فيهم والله عالم الغيب والشهادة

فصل فى ان البيت والشرف بالاصالة والحقيقة لاهل العصبيّة ويكون لغيرهم بالمجاز والشبه

وذلك ان الشرف والحسب انّما هو بالنحلال ومعنى

البيت ان يعدّ الرجل فى ابائه اشرافا مذكورين يكون
له بولادتهم اياه والانتساب اليه تجلّة فى اهل جلدته لما
وقر فى نفوسهم من تجلّة سلفه وشرفهم بخلالهم والناس
فى نشوهم وتناسلهم معادن قال صلى الله عليه وسلم الناس
معادن خيارهم فى الجاهليّة خيارهم فى الاسلام اذا فقهوا
فمعنى الحسب راجع الى الانساب وقد بيّنّا ان ثمرة
الانساب وفايدتها انّما هى العصبيّة للنعرة والتناصر فحيث
تكون العصبيّة مرهوبة ومخشية والمنبت فيها ذكى محمى
تكون فايدة النسب اوضح وثمرتها اقوى وتعديد الاشراف
من الاباء زايدا فى فايدتها فيكون الحسب والشرف اصيلا
فى اهل العصبيّة لوجود ثمرة النسب وتتفاوت البيوت فى
هذا الشرف بتفاوت العصبيّة لانه سرّها ولا يكون للمنفردين
من اهل الامصار بيت الا بالمجاز وان توهّموه فزخرف
من الدعاوى واذا اعتبرت الحسب فى الامصار وجدت
معناه ان الرجل منهم يعدّ سلفا فى خلال الخير ومخالطة اهله
مع الركون على العاقبة ما استطاع وهذا مغاير لسرّ العصبيّة
التى هى ثمرة النسب وتعديد الآباء لكنّه يطلق عليه حسب
وبيت بالمجاز بعلاقة ما فيه من تعديد الآباء المتعاقبين على
طريقة واحدة من الخير ومسالكه وليس حسبا بالحقيقة وعلى
الاطلاق (وقد) يكون للبيت شرف اوّل بالعصبيّة والخلال ثم

ينسلخون منه لذهابها بالحضارة كما تقدّم ويختلطون بالغمار
ويبقى فى نفوسهم وسواس ذلك الحسب يعدّون به
انفسهم من اشراف البيوتات اهل العصايب وليسوا منها
فى شئ لذهاب العصبيّة جملة وكثير من اهل الامصار
الناشئين فى بيوت العرب او العجم لاول عهدهم موسوسون
بذلك واكثر ما رسخ الوسواس لذلك لبنى اسرائيل فانه
كان لهم بيت من اعظم بيوت العالم بالمنبت اوّلا لما
تعدّد فى سلفهم من الانبياء والرسل من لدن ابراهيم عليه
السلام الى موسى صاحب ملّتهم وشريعتهم ثم بالعصبيّة
ثانيا وما اتاهم الله به من الملك الذى وعدهم به ثم
انسلخوا عن ذلك اجمع وضربت عليهم الذلّة والمسكنة وكتب
عليهم الجلاء فى الارض وانفردوا بالاستعباد والكفر آلافا من
السنين ثم ما زال هذا الوسواس مصاحبا لهم فتجدهم يقولون
هذا هرونى هذا من نسل يوشع هذا من عقب كالب هذا
من سبط يهوذا مع ذهاب العصبيّة ورسوخ الذلّ فيهم منذ
احقاب متطاولة وكثير من اهل الامصار غيرهم المنقطعين فى
انسابهم عن العصبيّة يذهب الى هذا الهذيان (وقد) غلط
ابو الوليد ابن رشد فى هذا لما ذكر الحسب فى كتاب
الخطابة من تلخيص كتب العلم الاول فقال والحسب هو
ان يكون من قوم قديم نزلهم بالمدينة ولم يتعرّض لما

Digitized by Google

ذكرناه وليت شعرى ما الذى ينفعه قدم نزلهم بالمدينة ان لم يكن لهم عصابة يرهب بها جانبه ويحمل غيرهم على القبول منه فكانه اطلق الحسب على تعديد الآباء فقط مع ان الخطابة انّما هى استمالة من توثر استمالته وهم اهل الحل والعقد وامّا من لا قدرة له البتّة فلا يلتفت اليه ولا يقدر على استمالة احد ولا يستمال هو واهل الامصار من الحضر بهذه المثابة الّا انّ ابن رشد ربى فى جيل وبلد لم يمارسوا العصبيّة ولا انسوا احوالها فبقى فى امر البيت والحسب على الامر المشهور من تعديد الآباء على الاطلاق ولم يراجع فيه حقيقة العصبيّة وسرّها فى الخليقة والله بكل شئ عليم

فصل فى ان البيت والشرف للموالى واهل الاصطناع انّما هو بمواليهم لا بانسابهم

وذلك انّا قدّمنا الآن ان الشرف بالاصالة والحقيقة انّما هو لاهل العصبيّة فاذا اصطنع اهل العصبيّة قوما من غير نسبهم او استرقوا العبدى والموالى والتحموا بهم كما قلناه ضرب معهم اولئك الموالى والمصطنعون بسهم فى تلك العصبيّة ولبسوا جلدتها كانّها عصبيّتهم وحصل لهم من

Digitized by Google

الانتظام فى العصبيّة مساهمة فى نسبها كما قال صلى الله
عليه وسلم مولى القوم منهم وسواء كان مولى رقّ او مولى
اصطناع وحلف وليس نسب ولادته نافع له فى تلك
العصبيّة اذ هى مباينة لذلك النسب وعصبيّة ذلك
النسب مفقودة لذهاب سرّها عند التحامه بهذا النسب
الاخر وفقدان اهل عصبيّتها (1) فيصير من هولاء ويندرج فيهم
فاذا تعدّدت له الآباء فى هذه العصبيّة كان له بينهم شرف
وبيت على نسبته فى ولائه واصطناعه لا يتجاوزه الى
شرفهم بل يكون ادون منهم على كل حال وهذا شأن الموالى
فى الدول والخدمة كلهم فانهم انّما يشرفون بالرسوخ فى
ولاء الدولة وخدمتها وتعدّد الآباء فى ولايها الا ترى الى
موالى الترك فى دولة بنى العبّاس والى بنى برمك من
قبلهم وبنى نوبخت كيف ادركوا البيت والشرف وبنوا
المجد والاصالة بالرسوخ فى ولاء الدولة فكان جعفر بن
يحيى بن خالد من اعظم الناس بيتا وشرفا بالانتساب
الى ولاء الرشيد وقومه لا بالانتساب فى الفرس وكذا موالى
كل دولة وخدمتها انّما يكون لهم البيت والحسب بالرسوخ
فى ولايها والاصالة فى اصطناعها ويضمحلّ نسبة الاقدم ان
كان من غير نسبها ويبقى ملقى لا عبرة به فى اصالته

(1) Man. A. et B. عصبتها.

Digitized by Google

ومجده وانّما المعتبر نسبة ولايه واصطناعه اذ فيه سرّ العصبيّة التى بها البيت والشرف فكان شرفه مشتقّا من شرف مواليه وبيته من بنائهم (1) فلم ينفعه نسب الولادة وانّما بناء مجده نسب الولاء فى الدولة ولحمة الاصطناع فيها والتربية وقد يكون نسبة الاول فى لحمة عصبيّة ودولة فاذا ذهبت وصار ولاه واصطناعه فى اخرى لم ينفعه الاول لذهاب عصبيّته وانتفع بالثانى لوجودها وهذا حال بنى برمك اذ المنقول انهم كانوا اهل بيت فى الفرس من سدنة بيوت النار عندهم ولما صاروا الى ولاء بنى العباس لم يكن بالاول اعتبار وان كان شرفهم من حيث ولايهم فى الدولة واصطناعهم وما سوى ذلك فوهم توسوس به النفوس الجامحة ولا حقيقة له والوجود شاهد بما قلناه واكرمكم عند الله اتقاكم

فصل فى ان الحسب فى العقب الواحد اربعة آباء

اعلم ان العالم العنصرىّ بما فيه كاين فاسد لا من ذواته ولا من احواله فالمكونات من المعدن والنبات وجميع الحيوانات الانسان وغيره كاينة فاسدة بالمعاينة وكذلك ما يعرض لها من الاحوال وخصوصا الانسانيّة فالعلوم تنشأ ثم

(1) Man. A. et B. بياتهم.

تدرس وكذلك الصنايع وامثالها والحسب من العوارض
التى تعرض للادميّين فهو كاين فاسد لا محالة وليس يوجد
لاحد من اهل الخليقة شرف متّصل فى آبايه من لدن
آدم اليه الّا ما كان من ذلك للنبى صلى الله عليه وسلم
كرامة به وحياطة على الشرفيّة (1) واول كل شرف خارجيّة كما
قيل وهى الخروج عن الرياسة والشرف الى الضعة والابتذال
وعدم الحسب ومعناه ان كل شرف وحسب فعدمه سابق
عليه شأن كل محدث ثم ان نهايته فى اربعة ابناء من
عقبه وذلك ان بانى المجد عالم بما عاناه فى بنايه
ومحافظ على الخلال التى هى اسباب كونه وبقايه وابنه من
بعده مباشر لابيه قد سمع منه ذلك واخذه عنه الا انه
مقصّر فى ذلك تقصير السامع بالشئ عن المعاين ثم اذا
جاء الثالث كان حظّه الاقتفاء والتقليد خاصّة فقصّر عن
الثانى تقصير المقلّد عن المجتهد ثم اذا جاء الرابع قصّر
عن طريقتهم جملة واضاع الخلال الحافظة لبناء مجدهم
واحتقرها وتوهّم ان ذلك البنيان لم يكن بمعاناة ولا تكلّف
وانّما هو امر واجب لهم منذ اول النشاءة بمجرّد انتسابهم
وليس بعصابة ولا بخلال لما يرى من التجلّة بين الناس
ولا يعلم كيف كان حدوثها ولا سببها ويتوهّم انه النسب

(1) Man. A. B. C. السرفيه.

Digitized by Google

فقط فيرباء بنفسه عن اهل العصبيّة ويرى الفضل عليهم وثوقا بما ربى فيه عن استتباعهم وجهلا بما اوجب ذلك الاستتباع من الخلال التى منها التواضع لهم والاخذ بمجامع قلوبهم فيحتقرهم لذلك فينتقضون (1) عليه ويحتقرونه ويديلون منه سواه من اهل ذلك المنبت ومن فروعه فى غير ذلك العقب للاذعان بعصبيّتهم كما قلناه بعد الوثوق بما يرضونه من خلاله فتنمو فروع هذا وتذوى فروع الاول وينهدم بناء بيته هذا فى الملوك وهكذا فى بيوت القبايل والامراء واهل العصبيّة اجمع ثم فى بيوت اهل الامصار اذا انحطّت بيوت نشأت بيوت اخرى من ذلك النسب ان يشاء يذهبكم ويات بخلق جديد وما ذلك على الله بعزيز (واشتراط) الاربعة فى الاحساب انّما هو فى الغالب والّا فقد يدثر البيت من دون الاربعة ويتلاشى وينهدم وقد يتّصل امرها الى الخامس والسادس الّا انه فى انحطاط وذهاب واعتبار الاربعة من قبل الاجيال الاربعة بان ومباشر له ومقلّد وهادم وهو اقلّ ما يمكن وقد اعتبرت الاربعة فى نهاية الحسب فى باب المدح والثناء قال صلى الله عليه وسلم انما الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن اسحاق بن ابراهيم اشارة الى انه بلغ فى المجد وفى

(1) Man. B. ينتقصون. D. ينتفضون.

Digitized by Google

التورية ما معناه انا الله ربّك طابق غيور مطالب بذنوب
الآباء للبنين على الثوالث وعلى الروابع وهو يدلّ على ان
الاربعة الاعقاب غاية فى الانساب والحسب (ومن) كتاب
الاغانى فى اخبار عُوَيف القوافى ان كسرى قال للنعمان هل
فى العرب قبيلة تشرف على قبيلة قال نعم قال باى شئ
قال من كانت له ثلاثة آباء متواليه روساء ثم اتّصل ذلك
بكمال الرابع فالبيت من قبيلته وطلب ذلك فلم يجده
الّا فى آل حذيفة بن بدر الفزارى وهم بيت قيس وآل
حاجب بن زرارة بيت تميم وآل ذى الجدين بيت
شيبان وآل الاشعث بن قيس من كندة فجمع هولاء الرهط
ومن تبعهم من عشايرهم واقعد لهم الحكّام العدول فقام
حذيفة بن بدر ثم الاشعث بن قيس لقرابته من النعمان ثم
بسطام ابن قيس من شيبان ثم حاجب بن زرارة ثم قيس
بن عاصم وخطبوا ونثروا فقال كسرى كلهم سيّد يصلح
لموضعه وكانت هذه البيوتات هى المذكورة بالشرف فى
العرب بعد بنى هاشم ومعهم بيت بنى الديان من بنى
الحرث بن كعب بيت اليمن وهذا كلّه يدلّ على ان
الاربعة آبا نهاية فى الحسب والله اعلم

Digitized by Google

فصل فى ان الامم الوحشيّة اقدر على التغلّب من سواها

اعلم انه لما كانت البداوة سببا فى الشجاعة كما قلناه فى المقدّمة الثالثة لا جرم كان هذا الجيل الوحشىّ اشدّ شجاعة من الجيل الاخر فهم اقدر على التغلّب وانتزاع ما فى ايدى سواهم من الامم بل الجيل الواحد تختلف احواله فى ذلك باختلاف الاعصار فكلّما نزلوا الارياف وتبنكوا النعيم والفوا عوايد الخصب فى المعاش والنعيم نقص من شجاعتهم بمقدار ما نقص من توحّشهم وبداوتهم واعتبر ذلك فى الحيوانات العجم فى دواجن الظباء والبقر الوحشيّة والحمر اذا زال توحّشها بمخالطة الادميّين واخصب عيشها كيف يختلف حالها فى الانتهاض والشدّة حتّى فى مشيتها وحسن اديمها وكذلك الادمى المتوحّش اذا انس والف وسببه ان تكون السجايا والطبايع انّما هو عن المالوفات والعوايد واذا كان الغلب للامم انّما يكون بالاقدام والبسالة فمن كان من هذه الاجيال اعرق فى البداوة واكثر توحّشا كان اقرب الى التغلّب على سواه اذا تقاربا فى العدد وتكافا فى القوة والعصابة وانظر فى ذلك شان مضر مع من قبلهم من حمير وكهلان السابقين الى الملك والنعيم ومع ربيعة الموطنين ارياف العراق ونعيمه لما بقى مضر فى بداوتهم وتقدّمهم الاخرون الى

Digitized by Google

خصب العيش وغضارة النعيم كيف ارهفت البداوة حدّهم فى التغلّب فغابوهم على ما فى ايديهم وانتزعوه منهم وهكذا حال بنى طى وبنى عامر بن صعصعة وبنى سليم بن منصور من بعدهم لمّا تاخّروا فى باديتهم عن ساير قبايل مضر واليمن ولم يلتبسوا (1) بشئ من دنياهم كيف امسكت حال البداوة عليهم قوة عصبيّتهم ولم يخلقها مذاهب الترف حتّى صاروا اغلب على الامر منهم وكذا كل حىّ من العرب يلى نعيما وعيشا خصبا دون الحىّ الاخر فان الحىّ المبتدى يكون اغلب له واقدر عليه اذا تكافا فى القوة والعدد سنّة الله فى خلقه

فصل فى ان الغاية التى تجرى اليها العصبيّة هى الملك

وذلك لانّا قدّمنا ان العصبيّة بها تكون الحماية والمدافعة والمطالبة وكل امر يجتمع عليه وقدّمنا ان الادميّين بالطبيعة الانسانيّة يحتاجون فى كل اجتماع الى وازع وحاكم يزع بعضهم عن بعض فلا بدّ ان يكون متغلّبا عليهم بتلك العصبيّة والا لم تتم قدرته على ذلك وهذا التغلّب هو الملك وهو امر زايد على الرياسة انّما هى سودد وصاحبها متبوع وليس له عليهم قهر فى احكامه واما الملك فهو التغلّب والحكم بالقهر وصاحب العصبيّة اذا بلغ الى رتبة السودد والاتباع

(1) Man. C. et D. يكتسبوا.

Digitized by Google

ووجد السبيل الى التغلّب والقهر لا يتركه لانه مطلوب للنفس ولا يتمّ اقتدارها عليه الّا بالعصبيّة التى يكون بها متبوعا فالتغلّب الملكىّ غاية العصبيّة كما رايت ثم ان القبيل الواحد وان كانت فيه بيوتات متفرقة وعصبيّات متعدّدة فلا بدّ من عصبيّة اقوى من جميعها تغلبها وتستتبعها وتلتحم جميع العصبيّات فيها وتصير كانّها عصبيّة واحدة كبرى والّا وقع الافتراق المفضى (1) الى الاختلاف والتنازع ولولا دفاع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الارض (ثم) اذا حصل التغلّب بتلك العصبيّة على قومها طلبت بطبعها التغلّب على اهل عصبيّة اخرى بعيدة عنها فان كافاتها او مانعتها كانوا اقتالا وانظارا ولكل واحدة منها التغلّب على حوزتها وقومها شان القبايل والامم المفترقة فى العالم وان غلبتها او استتبعتها التحمت بها ايضا وزادتها قوة فى التغلّب الى قوتها وطلبت غاية من التغلّب والتحكم اعلى من الغاية الاولى واجدّ وهكذا دايما حتى تكافى بقوتها قوة الدولة فان ادركت الدولة فى هرمها ولم يكن لها ممانع من اولياء الدولة اهل العصبيّات استولت عليها وانتزعت الامر من يدها وصار الملك اجمع لها وان انتهت الى قوتها ولم يقارن ذلك هرم الدولة انما قارن حاجتها الى الاستظهار باهل

(1) Man. A. et B. المقتضى.

Digitized by Google

العصبيّات انتظمتها الدولة فى اوليايها تستظهر بها على ما يعن من مقاصدها وذلك ملك اخر دون الملك المستبدّ وهو كما وقع للترك فى دولة بنى العباس ولصنهاجة وزناتة مع كتامة ولبنى حمدان مع ملوك الشيعة من العلويّة والعباسيّة فقد ظهر ان الملك هو غاية العصبيّة وانها اذا بلغت الى غايتها حصل للقبيل الملك اما بالاستبداد او بالمظاهرة على حسب ما يسعه الوقت المقارن لذلك وان عاقها عن بلوغ الغاية عوايق كما نبيّنه وقفت فى مكانها الى ان يقضى الله بامره

فصل فى ان من عوايق الملك حصول الترف وانغماس القبيل فى النعيم

وسبب ذلك ان القبيل اذا غلبت بعصبيّتها بعض الغلب استولت على النعمة بمقداره وشاركت اهل النعيم والخصب فى نعمتهم وخصبهم وضربت معهم فى ذلك بسهم وحصّة بمقدار غلبها واستظهار الدولة بها فان كانت الدولة من القوة بحيث لا يطمع احد فى انتزاع امرها ولا مشاركتها فيه اذعن ذلك القبيل لولايتها والقنوع بما يسوّغون من نعمتها ويشركون فيه من جبايتها ولم تسم آمالهم الى شئ من منازع الملك ولا اسبابه انما همهم النعيم والكسب وخصب

Digitized by Google

العيش والسكون فى ظلّ الدولة الى الدعة والراحة والاخذ بمذاهب الملك فى المبانى والملابس الاستكثار من ذلك والتأنّق فيه بمقدار ما حصل من الرياش والترف وما يدعو اليه من توابع ذلك فتذهب خشونة البداوة وتضعف العصبيّة والبسالة ويتنعمون فيما اتاهم الله من البسط وينشأ بنوهم واعقابهم فى مثل ذلك من الترفّع عن خدمة انفسهم وولاية حاجاتهم ويستنكفون عن ساير الامور الضروريّة فى العصبيّة حتّى يصير ذلك خلقا لهم وسجيّة فتنقص عصبيّتهم وبسالتهم فى الاجيال بعدهم بتعاقبها الى ان تنقرض العصبيّة فيتاذّنون بالانقراض وعلى قدر ترفهم ونعمتهم يكون اشرافهم على الفناء فضلا عن الملك فان عوارض الترف والغرق فى النعيم كاسر من سورة العصبيّة التى بها التغلّب واذا انقرضت العصبيّة قصّر القبيل عن المدافعة والحماية فضلا عن المطالبة والتهمتهم الامم سواهم فقد تبيّن ان الترف من عوايق الملك والله يؤتى ملكه من يشاء

فصل فى ان من عوايق الملك حصول المذلّة للقبيل والانقياد لسواهم

وسبب ذلك ان المذلّة والانقياد كاسران لسورة العصبيّة وشدّتها فان انقيادهم ومذلّتهم دليل على فقدانها فما رئيموا

Digitized by Google

للمذلّة حتى عجزوا عن المدافعة ومن عجز عن المدافعة
فاولى ان يكون عاجزا عن المقاومة والمطالبة واعتبر ذلك
فى بنى اسرائيل لما دعاهم موسى عليه السلام الى ملك
الشام واخبرهم ان الله قد كتب لهم ملكها كيف عجزوا
عن ذلك وقالوا ان فيها قوما جبّارين وانا لن ندخلها
حتى يخرجوا منها اى يخرجهم الله منها بضرب من قدرته
غير عصبيّتنا ويكون من معجزاتك يا موسى ولما عزم
عليهم لجّوا وارتكبوا العصيان وقالوا اذهب انت وربّك
فقاتلا وما ذلك الّا لما انسوا من انفسهم من العجز عن
المقاومة والمطالبة كما تقتضيه الاية وما يوثر فى تفسيرها
وذلك بما حصل فيهم من خلق الانقياد وما رئموا من الذلّ
للقبط احقابا حتى ذهبت العصبيّة منهم جملة مع انهم لم
يؤمنوا حقّ الايمان بما اخبرهم به موسى من ان الشام لهم
وان العمالقة الذين كانوا باريحا فريستهم بحكم من الله قدّره
لهم فاقصروا عن ذلك وعجزوا تعويلا على ما علموا من انفسهم
من العجز عن المطالبة لما حصل لهم من الهذلّة وطعنوا فيما
اخبرهم به نبيهم من ذلك وما امرهم به فعاقبهم الله بالتيه
وهو انهم اقاموا فى قفر من الارض ما بين الشام ومصر
اربعين سنة لم ياوُوا فيها لعمران ولا نزلوا مصرا كما قصّه القران
لغلظة العمالقة بالشام والقبط بمصر عليهم ولعجزهم عن

Digitized by Google

مقاومتهم كما زعموه ويظهر من مساق الآيه ومفهومها ان حكمة ذلك التيه مقصودة وهى فناء الجيل الذين خرجوا من قبضة الذلّ والقهر والفوه وتخلّقوا به وافسد من عصبيّتهم حتى نشاء فى ذلك التيه جيل اخر عزيز لا يعرف الاحكام والقهر ولا يسام بالمذلّة فنشاءت لهم بذلك عصبيّة اخرى اقتدروا بها على المطالبة والتغلّب ويظهر لك من ذلك ان الاربعين سنة اقلّ ما يتأتى فيها فناء جيل ونشاءة جيل اخر سبحان الحكيم العليم وفى هذا اوضح دليل على شأن العصبيّة وانها التى تكون بها المدافعة والمقاومة والحماية والمطالبة وان من فقدها عجز عن جميع ذلك

ويلتحق بهذا الفصل فيما يوجب المذلّة للقبيل شأن المغارم والضرايب

فان القبيل الغارمين ما اعطوا اليد لذلك حتى رضوا بالمذلّة فيه لان فى المغارم والضرايب ضيما ومذلّة لا تحتملها النفوس الابية الا اذا استهونته عن القتل والتلف وان عصبيّتهم حينيذ ضعيفة عن المدافعة والحماية ومن كانت عصبيّته لا تدفع عنه الضيم فكيف له بالمقاومة او المطالبة وقد حصل له الانقياد للذلّ والمذلّة عايقة كما قدّمناه ومنه فى الصحيح قوله صلى الله عليه وسلم فى شأن الحرث لما راى سكّة

Digitized by Google

المحراث فى بعض دور الانصار فقال ما دخلت هذه دار
قوم الا دخلهم الذلّ فهو دليل صريح على ان المغرم موجب
للذلّ هذا الى ما يصحب ذلّ المغارم من خلق المكر والخديعة
بسبب ملكة القهر ففى الصحيح ان رسول الله صلى الله عليه
وسلم كان يستعيذ من المغرم فسئل عن ذلك فقال ان
الرجل حدث فكذب ووعد فاخلف (فاذا) رايت
القبيل بالمغارم فى ربقة من الذلّ فلا تطمعن لها بملك
آخر الدهر ومن هنا يتبيّن لك غلط من يزعم ان زناتة
بالمغرب كانوا شاوية يودّون المغارم لمن كان على عهدهم
من الملوك وهو غلط فاحش كما رايت اذ لو وقع ذلك
لما استثبت (1) لهم ملك ولا تمّت لهم دولة وانظر فى هذا
مقالة شهربراز (2) ملك الباب لعبد الرحمن بن ربيعة
لما اطل عليه وسأل شهربراز امانه على ان يكون له فقال
انا اليوم منكم يدى فى ايديكم وصفوى معكم فمرحبا بكم
وبارك الله لنا ولكم وجزيتنا اليكم النصر لكم والقيام بها
تحبّون ولا تذلّونا بالجزية فتوهنونا لعدوكم فاعتبر هذا فيما
قلناه فانه كافٍ

(1) Man. C. استتبت. D. استنبت.

(2) Man. C. شهربرار. D. سهرنزار.

Digitized by Google

فصل فى ان من علامات الملك التنافس فى الخلال الحميدة وبالعكس

لما كان الملك طبيعيّا للانسان لما فيه من طبيعة الاجتماع كما قلناه وكان الانسان اقرب الى خلال الخير من خلال الشرّ باصل فطرته وقوته الناطقة العاقلة لانّ البشر انما جاءه من قبل القوى الحيوانيّة التى فيه واما من حيث هو انسان فهو الى الخير وخلاله اقرب والملك والسياسة انما كان له من حيث هو انسان لانها خاصّة للانسان لا للحيوان فاذن خلال الخير فيه وهى التى تناسب السياسة والملك اذ الخير هو المناسب للسياسة وقد ذكرنا ان المجد له اصل ينبنى عليه وتتحقّق به حقيقته وهو العصبيّة والعشير وفرع يتمم وجوده ويكمله وهو الخلال واذا كان الملك غاية العصبيّة فهو غاية لفروعها ومتمماتها وهى الخلال لانّ وجوده دون متمماته كوجود شخص مقطوع الاعضاء او ظهوره عريانا بين الناس واذا كان وجود العصبيّة فقط من غير انتحال الخلال الحميدة نقصا فى اهل البيوت والاحساب فما ظنّك باهل الملك الذى هو غاية لكل مجد ونهاية لكل حسب وايضا فالسياسة والملك هو كفالة للخلق وخلافة لله فى العباد فى الاحكام واحكام الله فى خلقه وعباده انما هى بالخير

Digitized by Google

ومراعاة المصالح كما تشهد به الشرايع واحكام الشرّ انما هى
من الجهل والشيطان بخلاف قدره سبحانه وقدرته فانه
فاعل للخير والشرّ معا ومقدّرهما اذ لا فاعل سواه فمن
حصلت له العصبيّة الكفيلة بالقدرة واونست منه خلال الخير
المناسبة لتنفيذ احكام الله فى خلقه فقد تهيّاء للخلافة فى
العباد وكفالة الخلق ووجدت فيه الصلاحيّة لذلك وهذا
البرهان اوثق من الاول واوضح مبنى فقد تبيّن ان خلال
الخير شاهدة بوجود الملك لمن وجدت له العصبيّة فاذا
نظرنا الى اهل العصبيّة ومن حصل لهم الغلب على كثير
من النواحى والامم فوجدناهم يتنافسون فى الخير وخلاله من
الكرم والعفو عن الزلّات والاحتمال من غير القادر والقرى
للضيوف وحمل الكل وكسب المعدوم والصبر على المكاره
والوفاء بالعهد وبذل الاموال فى صون الاعراض وتعظيم الشريعة
واجلال العلماء الحاملين لها والوقوف عند ما يجدونه لهم
من فعل او ترك وحسن الظنّ بهم واعتقاد اهل الدين
والتبرّك بهم ورغبة الدعاء منهم والحياء من الاكابر والمشايخ
وتوقيرهم واجلالهم والانقياد للحقّ مع الداعى اليه وانصاف
المستضعفين من انفسهم والتبذّل فى احوالهم والتواضع
للمسكين واستماع شكوى المستغيثين والتديّن بالشرايع
والعبادات والقيام عليها وعلى اسبابها والتجافى عن الغدر

Digitized by Google

والمكر والخديعة ونقض العهد وامثال ذلك علمنا ان هذه
خلق السياسة قد حصلت لديهم واستحقّوا بها ان يكونوا
ساسة لمن تحت ايديهم او على العموم وانه خير ساقه الله
اليهم مناسب لعصبيّتهم وغلبهم وليس ذلك سدى فيهم
ولا وجد عبثا منهم والملك انسب الخيرات والمراتب
لعصبيّتهم فعلمنا بذلك ان الله تاذّن لهم بالملك وساقه
اليهم وبالعكس من ذلك اذا تاذّن الله بانقراض الملك
من امّة حملهم على ارتكاب المذمومات وانتحال الرذايل
وسلوك طرقها فتفقد الفضايل السياسية منهم جملة
ولا تزال فى انتقاض الى ان يخرج الملك من بين ايديهم
ويتبدّل به سواهم ليكون نعيا عليهم فى سلب ما كان الله
قد اتاهم من الملك وجعل فى ايديهم من الخير واذا اردنا
ان نهلك قرية امرنا مترفيها ففسقوا فيها فحقّ عليها القول
فدمّرناها تدميرا واستقرِ ذلك وتتبّعه فى الامم السالفة تجد
كثيرا مما قلناه ورسمناه والله يخلق ما يشاء ويختار (واعلم)
ان من خلال الكمال الذى تتنافس فيه القبايل اولو
العصبيّة وتكون شاهدة لهم بالملك اكرام العلماء والصالحين
والاشراف واهل الحسب واصناف التجّار والغرباء وانزال
الناس منازلهم وذلك ان اكرام القبايل واهل العصبيّات
والعشاير لمن يناهضهم فى الشرف ويجاذبهم حبل العشير

Digitized by Google

والعصبيّة ويشاركهم فى اتّساع الجاه امر طبيعىّ يحمل عليه فى الاكثر الرغبة فى الجاه او المخافة من قوم الهكرم او التماس مثلها منه واما امثال هولاء ممن ليس له عصبيّة تتقى ولا جاه يرتجى فيندفع الشكّ فى شأن كرامتهم ويتمحض القصد فيهم انه للمجد وانتحال الكمال فى الخلال والاقبال على السياسة بالكلية لان اكرام اقتاله وامثاله ضرورى فى السياسة الخاصّة بين قبيلة ونظرايه واكرام الطارين من اهل الفضايل والخصوصيّات كما فى السياسة العامّة فالصالحون للدين والعلماء للحاجة اليهم فى اقامة مراسم الشريعة والتجّار للترغيب حتى تعمّ المنفعة بهم والغرباء من مكارم الاخلاق ومن الترغيب ببعض الوجوه وانزال الناس منازلهم من الانصاف وهو من العدل فيعلم بوجود ذلك من اهل عصبيّة انتماوهم للسياسة العامّة وهى الملك وان الله قد تاذّن بوجودها فيهم لوجود علاماتها ولهذا فان اول ما يذهب من القبيل اهل الملك اذا تاذّن الله بسلب ملكهم وسلطانهم اكرام هذا الصنف من الخلق فاذا رايته قد ذهب من امّة من الامم فاعلم ان الفضايل قد اخذت فى الذهاب وارتقب زوال الملك منهم واذا اراد الله بقوم سوءا فلا مردّ له

Digitized by Google

فصل فى انه اذا كانت الامّة وحشيّة كان ملكها اوسع

وذلك لانهم اقدر على التغلّب والاستبداد كما قلناه واستعباد الطوايف لقدرتهم على محاربة الامم سواهم ولانهم يتنزلون من الاهلين منزلة المفترس من الحيوانات العجم وهولاء مثل العرب وزناتة ومن فى معناهم من الاكراد والتركمان واهل اللثام من صنهاجة وايضا فهولاء المتوحّشون ليس لهم وطن يرتافون منه ولا بلد يجنحون اليه فنسبة الاقطار والمواطن اليهم على السواء فلهذا لا يقتصرون على ملكة قطرهم وما جاوره من البلاد ولا يقفون عند حدود افقهم بل يطفرون (1) الى الاقاليم البعيدة ويتغلّبون على الامم النائية وانظر ما يحكى فى ذلك عن عمر رضى الله عنه لما بويع وقام يحرّض الناس على العراق فقال ان الحجاز ليس لكم بدار الا على النجعة ولا يقوى عليه اهله الا بذلك اين الطراء المهاجرون عن موعد الله سيروا فى الارض التى وعدكم الله فى الكتاب ان يورثكموها فقال ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون واعتبر ذلك ايضا بحال العرب السالفة من قبل مثل التبابعة وحمير كيف كانوا يخطون فيها نقل من اليمن الى المغرب مرّة والى الهند والعراق اخرى ولم يكن ذلك لغير العرب

(1) Man. A. et B. يظفرون. D. يطيرون.

Digitized by Google

من الامم وكذا حال الهلثمين بالمغرب لما نزعوا الى الملك ظفروا من الاقليم الاول ومجالاتهم منه فى جوار السودان الى الاقليم الرابع والخامس فى ممالك الاندلس من غير واسطة وهذا شأن هذه الامم الوحشيّة فلذلك تكون دولتهم اوسع نطاقا وابعد من مراكزها نهاية والله مقدّر الليل والنهار

فصل فى ان الملك اذا ذهب عن بعض الشعوب من امّة فلا بدّ من عوده الى شعب آخر منها ما دامت لهم العصبيّة

والسبب فى ذلك ان الملك انما حصل لهم بعد سورة الغلب والاذعان لهم من ساير الامم سواهم فيتعيّن منهم المباشرون للامر الحاملون لسرير الملك ولا يكون ذلك لجميعهم لما هم عليه من الكثرة التى يضيق عنها نطاق المزاحمة وللغيرة التى تجدع انوف كثير من المتطاولين للرتبة فاذا تعيّن اولئك القايمون بالدولة انغمسوا فى النعيم وغرقوا فى بحر الترف والخصب واستعبدوا اخوانهم من ذلك الجيل وانفقوهم فى وجوه الدولة ومذاهبها وبقى الذين بعدوا عن الامر وكبحوا عن المشاركة فى ظلّ من عزّ الدولة التى شاركوها بنسبهم وبمنجاة من الهرم لبعدهم عن الترف واسبابه فاذا استولت على الاولين الايام واباد غضراهم الهرم

Digitized by Google

وطحنتهم الدولة واكل الدهر عليهم وشرب بما ارهف من النعيم من حدهم واشتفت غريزة (1) الترف من مائهم وبلغوا غايتهم من طبيعة التمدّن الانسانىّ والتغلّب السياسىّ

كدود القزّ ينسج ثم يفنى بمركز نسيجه فى الانعكاس

وكانت حينئذ عصبيّة الاخرين موفورة وسورة غلبهم من الكاسر محفوظة وشارتهم فى الغلب معلومة فتسمو آمالهم الى الملك الذى كانوا ممنوعين منه بالقوة الغالبة من جنس عصبيّتهم وترتفع المنازعة لما عرف من غلبهم فيستولون على الامر ويصير اليهم وكذا يتّفق فيهم مع من بقى ايضا منتبذا عنه من عشاير امّتهم فلا يزال الملك ملجا فى الامّة الى ان تنكسر سورة العصبيّة منها او تفنى ساير عشايرها سنّة الله فى الحيوة الدنيا والآخرة عند ربّك للمتّقين واعتبر هذا بما وقع فى الامم لها انقرض ملك عاد قام من بعدهم اخوانهم من ثمود ومن بعدهم اخوانهم العمالقة ومن بعدهم اخوانهم من حمير ومن بعدهم اخوانهم التبابعة من حمير ايضا ومن بعدهم الاذواء كذلك ثم جاءت الدولة لمضر وكذا الفرس انقرض امر الكينيّة فملك من بعدهم الساسانية حتى تاذّن الله بانقراضهم اجمع بالاسلام وكذا اليونانيون انقرض امرهم وانتقل الى اخوانهم من الروم وكذا البربر بالمغرب

(1) Man. B. عزيزة. C. عريرة. *it.* D.

Digitized by Google

لما انقرض امر مغراوة وكتامة الملوك الاول منهم رجع الى
صنهاجة ثم الملثمين من بعدهم ثم المصامدة ثم من بقى
من شعوب زناتة وهكذا سنّة الله فى عباده وخلقه واصل
هذا كله انما يكون بالعصبيّة وهى متفاوتة فى الاجيال
والملك يخلقه الترف ويذهبه كما سنذكره بعد فاذا انقرضت
دولة فانها يتناول الامر منهم من له عصبيّة مشاركة لعصبيّتهم
التى عرف لها التسليم والانقياد واونس منها الغلب لجميع
العصبيات وذلك انما يوجد فى النسب القريب منهم
لان تفاوت العصبيّة بحسب ما قرب من ذلك النسب
التى هى فيه او بعد حتّى اذا وقع فى العالم تبديل كبير
من تحويل ملّة او ذهاب عمران او ما شاء الله من قدرته
فحينئذ يخرج عن ذلك الجيل الى الجيل الذى تاذّن
الله بقيامه بذلك التبديل كما وقع لمضر حين غلبوا على
الامم والدول واخذوا الامر من ايدى اهل العالم بعد ان كانوا
مكبوحين عنه احقابا

فصل فى ان المغلوب مولع ابدا بالاقتداء بالغالب فى شعاره
وزيّه ونحلته وساير احواله وعوايده

والسبب فى ذلك ان النفس ابدا تعتقد الكمال فيمن غلبها
وانقادت اليه اما لنظره بالكمال بها وقر عندها من تعظيمه

Digitized by Google

او لما تغالط به من ان انقيادها ليس لغلب طبيعيّ انها هو
لكمال الغالب فاذا غالطت بذلك واتّصل لها صار اعتقادا
فانتحلت جميع مذاهب الغالب وتشبّهت به وذلك هو
الاقتداء او لما تراه والله اعلم من ان غلب الغالب لها ليس
بعصبيّة ولا قوة بأس وانما هو بما انتحلته من العوايد والمذاهب
تغالط ايضا بذلك عن الغلب وهذا راجع الى الاول فلذلك
ترى المغلوب يتشبّه ابدا بالغالب فى ملبسه ومركبه وسلاحه
فى اتّخاذها واشكالها بل وفى ساير احواله وانظر ذلك
فى الابناء مع ابائهم كيف تجدهم متشبّهين بهم دايما وما
ذاك الا لاعتقادهم الكمال فيهم وانظر الى كل قطر من الاقطار
كيف يغلب على اهله زيّ الحامية وجند السلطان فى
الاكثر لانهم الغالبون لهم حتّى انه اذا كانت امّة تجاور
اخرى ولها الغلب عليها فيسرى اليهم من هذا الشبه
والاقتداء حظّ كبير كما هو فى الاندلس لهذا العهد مع امم
الجلالقة فانك تجدهم يتشبّهون بهم فى ملابسهم وشاراتهم
والكثير من عوايدهم واحوالهم حتّى فى رسم التماثيل فى
الجدران والمصانع والبيوت حتى لقد يستشعر من ذلك
الناظر بعين الحكمة انه علامة الاستيلاء والامر لله وتامّل فى
هذا سرّ قولهم العامّة على دين الملك فانه من بابه اذ الملك
غالب لمن تحت يده والرعية مقتدون به لاعتقاد الكمال فيه

Digitized by Google

اقتداء الابناء بابائهم والمتعلّمين بمعلّميهم والله العليم الحكيم

فصل فى ان الامّة اذا غلبت وصارت فى ملكة غيرها اسرع اليها الفناء

والسبب فيه والله اعلم ما يحصل فى النفوس من التكاسل اذا ملك امرها عليها وصارت بالاستعباد آلة لسواها وعالة عليهم فيقصر الامل ويضعف والتناسل والاعتمار انّما هو من حدّة الامل وما يحدث عنه من النشاط فى القوى الحيوانية فاذا ذهب الامل بالتكاسل وذهب ما يدعو اليه من الاحوال وكانت العصبيّة ذاهبة بالغلب الحاصل عليهم تناقص عمرانهم وتلاشت مكاسبهم ومساعيهم وعجزوا عن المدافعة عن انفسهم بما خضد الغلب من شوكتهم فاصبحوا مغلبين لكل متغلب طمعة لكل آكل وسواء كانوا حصلوا على غايتهم من الملك او لم يحصلوا وفيه والله اعلم سرّ اخر وهو ان الانسان رئيس بطبعه بمقتضى الاستخلاف الذى جعل له والرئيس اذا غلب على رياسته وكبح عن غاية عزّه تكاسل حتى عن شبع بطنه وريّ كبده وهذا موجود فى اخلاق الاناسى ولقد يقال مثله للحيوانات المفترسة وانها لا تسافد اذا كانت فى ملكة الادميين فلا يزال هذا القبيل المملوك امره عليه فى تناقص واضمحلال الى ان ياخذهم الفناء

Digitized by Google

والبقا لله وحده واعتبر ذلك فى امّة الفرس كيف كانت قد ملاءت العالم كثرة ولما فنيت حاميتهم فى ايام العرب بقى منهم كثير واكثر من الكثير يقال ان سعدا احصى من وراء المداين فكانوا ماية الف وسبعة وثلاثين الفا منهم سبعة وثلاثون الفا ربّ بيت ولما تحصّلوا فى ملكة العرب وقبضة القهر لم يكن بقاوهم الا قليلا ودثروا كانْ لم يكونوا ولا تحسبن ذلك لظلم نزل بهم او عدوان شملهم فملكة الاسلام فى العدل ما علمت وانّما هى طبيعة فى الانسان اذا غلب على امره وصار آلة لغيره ولهذا فانّما يذعن للرقّ فى الغالب امم السودان لنقص الانسانيّة فيهم وقربهم من عرض الحيوانات العجم كما قلناه او من يرجو بانتظامه فى ربقة الرقّ حصول رتبة او افادة مال او عزّ كما يقع للترك بالمشرق والمعلوجا من الجلالقة والافرنجة بالاندلس فان العادة جارية باستخلاص الدولة لهم فلا يانفون من الرقّ لما يؤمّلونه من الجاه والرتبة باصطفاء الدولة والله اعلم

فصل فى ان العرب لا يتغلبون الا على البسايط

وذلك انهم بطبيعة التوحّش التى فيهم اهل انتهاب وعيث ينتهبون ما قدروا عليه من غير مغالبة ولا ركوب خطر ويفرّون الى منتجعهم بالقفر ولا يذهبون الى المزاحفة (1) والمحاربة الا اذا

(1) Man. A. مراجفة. B. مراجعة. D. مزاحمة.

Digitized by Google

دافعوا بذلك عن انفسهم فكل معقل اومستصعب عليهم فهم تاركوه الى ما سهل عنه ولا يعرضون له والقبايل الممتنعة عليهم باوعار الجبال بمنجاة عن عيثهم وفسادهم لانهم لا يتسنّمون اليهم الهضاب ولا يركبون الصعاب ولا يحاولون الخطر واما البسايط فمتى اقتدروا عليها بفقدان الحامية وضعف الدولة فهى نهب لهم وطعمة لاكلهم يردّدون عليها الغارة والنهب والزحف لسهولتها عليهم الى ان يصبح اهلها مغلبين لهم ثم يتعاورونهم باختلاف الايدى وانحراف السياسة الى ان ينقرض عمرانهم والله قادر على خلقه

فصل فى ان العرب اذا تغلّبوا على الاوطان اسرع اليها الخراب

والسبب فى ذلك انهم امّة وحشيّة باستحكام عوايد التوحّش واسبابه فيهم فصار لهم خلقا وجبلّة وكان عندهم ملذوذا لما فيه من الخروج عن ربقة الحكم وعدم الانقياد للسياسة وهذه الطبيعة منافية للعمران ومناقضة له فغاية الاحوال العاديّة كلها عندهم الرحلة والتقلّب وذلك مناقض للسكون الذى به العمران ومنافٍ له فالحجر مثلا حاجتهم اليه لنصبه اثافى للقدور فينقلونه من المبانى ويخربونها عليه ويعدونه لذلك والخشب ايضا انّما حاجتهم اليه ليعمدوا به خيامهم ويتّخذوا الاوتاد منه لبيوتهم فيخربون

Digitized by Google

السقف عليها لذلك فصارت طبيعة وجودهم منافية للبناء
الذى هو اصل العمران هذا فى حالهم على العموم وايضا
فطبيعتهم انتهاب ما فى ايدى الناس وان رزقهم فى
ظلال رماحهم وليس عندهم فى اخذ اموال الناس حدّ ينتهون
اليه بل كلّما امتدّت اعينهم الى مال او متاع او ماعون
انتهبوه فاذا تم اقتدارهم على ذلك بالتغلّب او الملك
بطلت السياسة فى حفظ اموال الناس وخرب العمران وايضا
فلانهم يكلفون على اهل الاعمال من الصنايع والحرف اعمالهم
لا يرون لها قيمة ولا قسطا من الاجر والثمن والاعمال كما
سنذكره هى اصل المكاسب وحقيقتها فاذا فسدت الاعمال
وصارت مجانا ضعفت الآمال فى المكاسب وانقبضت الايدى
عن العمل واندعر الساكن وفسد العمران وايضا فانهم
ليست لهم عناية بالاحكام وزجر الناس عن المفاسد ودفاع
بعضهم عن بعض انما همّتهم (1) ماياخذونه من اموال الناس نهبا
او مغرما فاذا توصّلوا الى ذلك وحصلوا عليه اعرضوا عمّا
بعده من تسديد احوالهم والنظر فى مصالحهم وقهر بعضهم
عن اعراض المفاسد وربّما فرضوا العقوبات فى الاموال حرصا
على تحصيل الفايدة والجباية والاستكثار منها كما هو
شأنهم وذلك ليس بمغنٍ فى دفع المفاسد وزجر المتعرّض

(1) Man. A. et B. همّتهم. C. هممهم.

Digitized by Google

لها بل يكون ذلك زايدا فيها لاستسهال العزم فى جانب
حصول الغرض فتبقى الرعايا فى ملكتهم كانها فوضى دون
حكم والفوضى مهلكة للبشر مفسدة للعمران بما ذكرناه
من ان وجود الملك خاصيّة طبيعيّة للانسان لا يستقيم وجودهم
واجتماعهم الا بها وتقدّم ذلك اول الفصل وايضا فهم
متنافسون فى الرياسة وقلّ ان يسلّم احد منهم الامر لغيره
ولو كان اباه او اخاه او كبير عشيرته الا فى الاقلّ وعلى كره
من اجل الحياء فيتعدّد الحكام منهم والامراء وتختلف الايدى
على الرعية فى الجباية والاحكام فيفسد العمران وينتقض
قال الاعرابى الوافد على عبد الملك لما ساله عن الحجاج
واراد الثناء عليه عنده بحسن السياسة والعمران فقال تركته
يظلم وحده وانظر الى ما ملكوه وتغلّبوا عليه من الاوطان
من لدن الخليقة كيف تقوض عمرانه واقفر ساكنه وبدلت
الارض فيه غير الارض فاليمن قرارهم خراب الا قليلا من
الامصار وعراق العرب كذلك قد خرب عمرانه الذى كان
للفرس اجمع والشام لهذا العهد كذلك وافريقية والمغرب
لما اجاز اليهما بنو هلال وبنو سليم منذ عهد الماية الخامسة
وتمرسوا بها لثلاثماية وخمسين من السنين قد لحقا بها
وعادت بسايطه خرابا كلها بعد ان كان ما بين السودان
والبحر الرومى كله عمرانا يشهد بذلك آثار العمران فيه

Digitized by Google

من العالم وتماثيل البناء وشواهد القرى والمداثر والله
وارث الارض ومن عليها وهو خير الوارثين

فصل فى ان العرب لا يحصل لهم الملك الا بصبغة (1)
دينية من نبوة او ولاية او اثر عظيم من الدين
على الجملة

والسبب فى ذلك انهم لخلق التوحّش الذى فيهم اصعب
الامم انقيادا بعضهم لبعض للغلظة والانفة وبعد الهمّة والمنافسة
فى الرياسة فقلّ ما تجتمع اهواوهم فاذا كان الدين بالنبوات
او الولاية كان الوازع لهم من انفسهم وذهب خلق الكبر
والمنافسة منهم فسهل انقيادهم واجتماعهم وذلك بما يشملهم
من الدين المُذهب للغلظة والانفة الوازع عن التحاسد
والتنافس فاذا كان فيهم النبى او الولى الذى يبعثهم على
القيام بامر الله تعالى ويذهب عنهم مذمومات الاخلاق
وياخذهم بمحمودها ويولف كلمتهم لاظهار الحقّ ثم اجتماعهم
وحصل لهم التغلّب والملك وهم مع ذلك اسرع الناس
قبولا للحقّ والهدى لسلامة طباعهم من عوج الملكات وبراتها
من ذميم الاخلاق الا ما كان من خلق التوحّش القريب
المعاناة المتهيّ لقبول الخير ببقايه على الفطرة الاولى وبعده
عمّا ينطبع فى النفس من قبيح العوايد وسوء الملكات فان

(1) Man. B et D. صيغة. C. صنعة.

Digitized by Google

كل مولود يولد على الفطرة كما ورد فى الحديث وقد تقدّم

فصل فى ان العرب ابعد الامم عن سياسة الملك

والسبب فى ذلك انّهم اكثر بداوة من ساير الامم وابعد مجالا فى القفر واغنى عن حاجات التلول وحبوبها لاعتيادهم الشظف وخشونة العيش فاستغنوا عن غيرهم فصعب انقياد بعضهم لبعض لايلافهم ذلك وللتوحّش ورئيسهم محتاج اليهم غالبا للعصبيّة التى بها المدافعة فكان مضطرّا الى احسان ملكتهم وترك مراغمتهم ليلّا يختلّ عليه شأن عصبيّته فيكون فيها هلاكه وهلاكهم وسياسة الملك والسلطان تقتضى ان يكون السايس وازعا بالقهر والّا لم تستقم سياسة وايضا فمن طبيعتهم كما قدّمناه اخذ ما فى ايدى الناس خاصّة والتجافى عمّا سوى ذلك من الاحكام بينهم ودفاع بعضهم عن بعض فاذا ملكوا امّة من الامم جعلوا غاية ملكهم الانتفاع باخذ ما فى ايديهم وتركوا ما سوى ذلك من الاحكام بينهم وربّما جعلوا العقوبات على المفاسد فى الاموال حرصا على تكثير الجبايات وتحصيل الفوايد فلا يكون ذلك وازعا وربّما يكون باعثا بحسب الاغراض الباعثة على المفاسد واستهانة ما يعطى من ماله فى جانب عرضه فتنمو المفاسد بذلك ويقع تخريب العمران فتبقى تلك الامّة كانها فوضى مستطيلة ايدى بعضها على بعض فلا يستقيم لها عمران

Digitized by Google

ويخرب سريعا شأن الفوضى كما قدّمناه فبعدت طباع العرب
لذلك كله عن سياسة الملك وانما يصيرون اليها بعد
انقلاب طباعهم وتبدّلها بصبغة (1) دينيّة تمحو ذلك منهم
وتجعل الوازع لهم من انفسهم وتحملهم على دفاع الناس
بعضهم عن بعض كما ذكرناه واعتبر ذلك بدولتهم فى الملّة
لما شيّد لهم الدين امر السياسة بالشريعة واحكامها المراعية
لمصالح العمران ظاهرا وباطنا وتتابع فيها الخلفاء عظم حينئذ
ملكهم وقوى سلطانهم كان رستم لما راى المسلمين
يجتمعون للصلاة يقول اكل عمر كبدى يعلم الكلاب الآداب
ثم انهم بعد ذلك انقطعت منهم عن الدولة اجيال نبذوا
الدين فنسوا السياسة ورجعوا الى قفرهم وجهلوا شأن عصبيّتهم
مع اهل الدولة ببعدهم عن الانقياد واعطاء النصفة فتوحّشوا
كما كانوا ولم يبق لهم من اسم الملك الا انه للخلفاء وهم
من جيلهم ولما ذهب امر الخلافة وامتحا رسمها انقطع الامر
جملة من ايديهم وغلب عليه العجم دونهم واقاموا بادية فى
قفارهم لا يعرفون الملك ولا سياسة بل قد يجهل الكثير منهم
انهم كان لهم ملك فى القديم وما كان لاحد من الامم
فى الخليقة ما كان لاجيالهم من الملك ودول عاد وثمود
والعمالقة وحمير والتتابعة شاهدة بذلك ثم دولة مضر فى

(1) Man. B. et D. صيغة. C. صفة.

Digitized by Google

الاسلام بنى امية وبنى العباس لكن بعدهم عهد بالسياسة لما نسوا الدين فرجعوا الى اصلهم من البداوة وقد يحصل لهم فى بعض الاحيان غلب على الدول المستضعفة كما فى المغرب لهذا العهد فلا يكون مآله وغايته الا تخريب ما يستولون عليه من العمران كما قدّمناه والله خير الوارثين

فصل فى ان البوادى من القبايل والعصايب مغلوبون لاهل الامصار

قد تقدّم لنا ان عمران البادية ناقص عن عمران الحواضر والامصار لان الامور الضروريّة فى العمران ليس كلها موجودا لاهل البدو وانما يوجد لديهم وفى مواطنهم امور الفلح ومواذّها معدومة ومعظمها الصنايع فلا يوجد لديهم بالكلية من نجّار وخيّاط وحدّاد وامثال ذلك مما يقيم لهم ضرورات معاشهم فى الفلح وغيره وكذا الدراهم والدنانير مفقودة لديهم وانّما بايديهم اعواضها من مغلّ الزراعة واعيان الحيوان اوفضلاته البانا واوبارا واشعارا واهابا مما يحتاج اليه اهل الامصار فيعوضونهم عنه بالدنانير والدراهم الا ان حاجتهم الى الامصار فى الضرورىّ وحاجة اهل الامصار اليهم فى الحاجىّ والكمالىّ فهم محتاجون الى الامصار فى الضرورى بطبيعة وجودهم فما داموا فى البادية ولم يحصل لهم ملك ولا استيلاء

Digitized by Google

على الامصار فهم محتاجون الى اهلها ومتصرّفون فى مصالحهم وطاعتهم متى دعوهم الى ذلك وطالبوهم به فان كان فى المصر ملك كان خضوعهم وطاعتهم لغلب الملك وان لم يكن فى المصر ملك فلا بدّ فيه من رياسة ونوع استبداد من بعض اهله على الباقين والا انتقض عمرانه وذلك الرئيس يحملهم على طاعته والسعى فى مصالحه اما طوعا ببذل المال لهم ثم يبيح لهم ما يحتاجون اليه من الضرورات فى مصره فيستقيم عمرانهم وامّا كرها ان تمّت قدرته على ذلك ولو بالتضريب بينهم حتى يحصل له فريق منهم يغالب به الباقين فيضطرّ الاخرين الى طاعته بما يتوقّعون لذلك من فساد عمرانهم وربّما لا يسعهم مفارقة تلك النواحى الى جهات اخرى لان كل النواحى والجهات معمور بالبدو الذين غلبوا عليها ومنعوها من غيرهم فلا يجد هولاء ملجاء الا طاعة المصر واهله فهم بالضرورة مغلوبون لاهل الامصار والله القاهر فوق عباده لا ربّ غيره ولا معبود سواه

بسم الله الرحمن الرحيم (الحمد لله ربّ العالمين) وصلى الله على سيّدنا محمد وآله وصحبه وسلّم

الفصل الثالث من الكتاب الاول فى الدول

Digitized by Google

والملك والخلافة والمراتب السلطانية وما يعرض فى ذلك
كله من الاحوال وفيه قواعد ومتمّات

فصل فى ان الملك والدول العامّة انما تحصل بالقبيل والعصبيّة والشوكة

وذلك انه قد قررنا فى الفصل الاول ان المغالبة والممانعة انما تكون بالعصبيّة لما فيها من النعرة والتذامر واستماتة كل واحد منهم دون صاحبه ثم ان الملك منصب شريف ملذوذ يشتمل على جميع الخيرات الدنيوية والشهوات البدنيّة والملاذّ النفسانيّة فيقع فيه التنافس غالبا وقلّ ان يسلمه احد لصاحبه الا اذا غلب عليه فتقع المنازعة وتفضى الى الحرب والقتال والمغالبة وشئ منها لا يقع الا بالعصبيّة كما ذكرناه ايضا وهذا الامر بعيد عن افهام الجمهور بالجهلة ومتناسون له لانهم نسوا عهد تمهيد الدول منذ اولها وطال امد مرباهم فى الحضارة وتعاقبهم فيها جيلا بعد جيل فلا يعرفون ما فعل الله اول الدولة انما يدركون اصحاب الدولة قد استحكمت صبغتهم ووقع التسليم لهم والاستغناء عن العصبيّة فى تمهيد امرهم ولا يعرفون كيف كان الامر من اوله وما لقى اولهم من المتاعب دونه وخصوصا اهل الاندلس فى نسيان هذه العصبيّة واثرها لطول الامد واستغنائهم فى الغالب

Digitized by Google

عن قوة العصبيّة بما تلاشى وطنهم وخلا من العصايب والله قادر على ما يشاء

فصل فى انه اذا استقرّت الدولة وتمهّدت فقد تستغنى عن العصبيّة

والسبب فى ذلك ان الدول العامّة فى اولها يصعب على النفوس الانقياد لها الا بقوة قويّة من الغلب للغرابة وان الناس لم يالفوا ملكها ولا اعتادوه فاذا استقرّت الرياسة فى اهل النصاب المخصوص بالملك فى الدولة وتوارثوه واحدا بعد اخر فى اعقاب كثيرين ودول متعاقبة نسيت النفوس شان الاوليّة واستحكمت لاهل ذلك النصاب صبغة الرياسة ورسخ فى العقايد دين الانقياد لهم والتسليم وقاتل الناس معهم على امرهم قتالهم على العقايد الايمانيّة فلم يحتاجوا حينئذ فى امرهم الى كبير عصابة بل كان طاعتها كتاب من الله لا يبدل ولا يعلم خلافه ولامر ما يوضع الكلام فى الامامة آخر الكلام فى العقايد الايمانيّة كانه من جملة عقودها ويكون استظهارهم حينئذ على سلطانهم ودولتهم المخصوصة اما بالموالى والمصطنعين الذين نشؤا فى ظلّ العصبيّة (1) وغيرها وامّا بالعصايب الخارجين عن نسبها الداخلين فى ولايتها ومثل

(1) Man. A. B. D. غيرها.

Digitized by Google

هذا وقع لبنى العباس فان عصبيّة العرب كانت فسدت
لعهد دولة المعتصم وابنه الواثق واستظهارهم بعد ذلك
انما كان بالموالى العجم والترك والديلم والسلجوقية وغيرهم
ثم تغلّب العجم والاولياء على النواحى وتقلّص ظلّ الدولة
فلم يكن تعدو اعمال بغداذ حتى زحف اليها الديلم وملكوها
وصارت الخلايف فى حكمهم ثم انقرض امرهم وملك
السلجوقية من بعدهم فصاروا فى حكمهم ثم انقرض
امرهم وزحف اخر الططر فقتلوا الخليفة ومحوا رسم الدولة
وكذا صنهاجة بالمغرب فسدت عصبيّتهم منذ الماية الخامسة
او ما قبلها واستمرّت لهم الدولة متقلّصة الظلّ بالمهدية
وبجاية والقلعة وساير ثغور افريقيّة وربّما انتزى بتلك الثغور
من نازعهم الملك واعتصم فيها والسلطان والملك مع
ذلك مسلم لهم حتى تاذّن الله بانقراض الدولة وجاء
الموحدون بقوة قوية من العصبيّة فى المصامدة فمحوا آثارهم
وكذا دولة بنى امية بالاندلس لما فسدت عصبيّتها من
العرب استولى ملوك الطوايف على امرها واقتسموا خطّتها
وتنافسوا بينهم وتوزعوا ممالك الدولة وانتزى كل واحد منهم
على ما كان فى ولايته وشمخ بانفه وبلغهم شأن العجم مع
الدولة العباسيّة فتلقّبوا بالقاب الملك ولبسوا شاراته وامنوا
ممن ينقض ذلك عليهم او بغيره لان الاندلس ليست بدار

Digitized by Google

PROLÉGOMÈNES d'Ebn-Khaldoun.

عصايب ولا قبايل كما سنذكره واستمرّ لهم ذلك كما قال ابن شرف

مهما يزهدنى فى ارض اندلس اسماء معتصم فيها ومعتضد
القاب مملكة فى غير موضعها كالهرّ يحكى انتفاخا صورة الاسد

فاستظهروا على امرهم بالموالى والمصطنعين والطراء على الاندلس من ارض العدوة من قبايل البربر وزناتة وغيرهم اقتداء بالدولة فى آخر امرها فى الاستظهار بهم حين ضعفت عصبيّة العرب استبدّ ابن ابى عامر على الدولة فكان لهم دول عظيمة استبدّ كل واحد فيها بجانب من الاندلس وحظّ كبير من الملك على نسبة الدولة التى اقتسموها ولم يزالوا فى سلطانهم ذلك حتى اجاز اليهم البحر المرابطون اهل العصبيّة القويّة من لمتونة فاستبدلوا بهم وازالوهم عن مراكزهم ومحوا آثارهم ولم يقدروا على مدافعتهم لفقدان العصبيّة لديهم فبهذه العصبيّة يكون تمهيد الدولة وحمايتها من اولها (وقد) ظنّ الطرطوشى ان حامية (1) الدول باطلاقهم الجند اهل العطاء المفروض مع الاهلّة ذكر ذلك فى كتابه الذى سماه سراج الملوك وكلامه لا يتناول تاسيس الدول العامّة فى اولها وانّما هو مخصوص بالدول الاخيرة بعد التمهيد واستقرار الملك فى النصاب واستحكام الصبغة لاهله فالرجل انّما ادرك الدول عند هرمها

(1) Man. A. et B. حماية D. حاشية.

Digitized by Google

وخلق جدّتها ورجوعها الى الاستظهار بالهوالى والصنايع ثم الى المستخدمين من ورايهم بالاجر على المدافعة فانه انّما ادرك دول الطوايف وذلك عند اختلال دولة بنى امية وانقراض عصبيّتها من العرب واستبداد كل امير بقطره وكان فى ايالة المستعين بن هود وابنه المظفّر اهل سرقسطة ولم يكن بقى لهم من امر العصبيّة شئ لاستيلاء الترف على العرب منذ ثلثماية من السنين وهلاكهم ولم ير الا سلطانا مستبدّا بالملك عن عشايره قد استحكمت له صبغة الاستبداد منذ عهد الدولة وبقيّة العصبيّة فهو لذلك لا ينازع فيه ويستعين على امره بالاجراء من المرتزقة فاطلق الطرطوشى القول فى ذلك ولم يتفطّن لكيفيّة الامر منذ اول الدولة وانه لا يتمّ الا لاهل العصبيّة فتفطّن انت له وافهم سرّ الله فيه والله يوتى ملكه من يشاء

فصل فى انه قد تحدث لبعض اهل النصاب الملكى دولة تستغنى عن العصبيّة

وذلك انه اذا كان لعصبيّته غلب كبير على الامم والاجيال وفى نفوس القايمين بامره من اهل القاصية اذعان لهم وانقياد فاذا نزع اليهم هذا الخارج وانتبذ عن مقرّ ملكه ومنبت عزّه اشتملوا عليه وقاموا بامره وظاهروه على شأنه وعنوا بتمهيد

Digitized by Google

دولته يرجون استقراره فى نصابه وتناوله الامر من يد اعياصه
ولا يطمعون فى مشاركته فى شى من سلطانه تسليما
لعصبيّته وانقيادا لما استحكم له ولقومه من صبغة الغلب فى
العالم وعقيدة ايمانيّة استقرّت فى الاذعان لهم فلو راموا معه
او دونه لزلزلت الارض زلزالها وهذا كما وقع للادارسة بالمغرب
الاقصى والعبيديّين بافريقية ومصر لما انتبذ الطالبيّون من
المشرق الى القاصية وابتعدوا عن مقرّ الخلافة وسموا الى
طلبها من ايدى آل العباس بعد ان استحكمت الصبغة لبنى
عبد مناف لبنى امية اولا ثم لبنى هاشم من بعدهم فخرجوا
بالقاصية من المغرب ودعوا لانفسهم وقاموا بامرهم البرابرة
مرّة بعد اخرى فاروية ومغيلة للادارسة وكتامة وصنهاجة
وهوارة للعبيديّين فشيّدوا دولتهم ومهدوا بعصايبهم امرهم
واقتطعوا من ممالك العباسيّين المغرب كله ثم افريقية ولم
يزل ظلّ الدولة يتقلّص وظلّ العبيديين يمتدّ الى ان ملكوا
مصر والشام والحجاز وقاسموهم فى الممالك الاسلاميّة
شقّ الائلمة وهولاء البرابرة القايمون بالدولة مع ذلك كله
مسلمون للعبيديّين امرهم مذعنون لملكهم وانما كانوا
ينافسون فى الرتبة ضدّهم خاصّة تسليما لما حصل من
صبغة الملك لبنى هاشم ولما استحكم من الغلب لقريش
ومضر على ساير الامم فلم يزل الملك فى اعقابهم الى

Digitized by Google

انقراض دولة العرب باسرها والله يحكم لا معقب لحكمه

فصل فى ان الدول العامّة الاستيلاء العظيمة الملك اصلها الدين اما من نبوة او دعوة حقّ

وذلك لان الملك انّما يحصل بالتغلّب والغلب انما يكون بالعصبيّة واتّفاق الاهواء على المطالبة وجمع القلوب وتاليفها انما يكون بمعونة من الله فى اقامة دينه قال تعالى لو انفقت ما فى الارض جميعا ما الّفت بين قلوبهم وسرّه ان القلوب اذا تداعت الى اهواء الباطل والميل الى الدنيا حصل التنافس وفشا الخلاف واذا انصرفت الى الحقّ ورفضت الدنيا والباطل واقبلت على الله اتّحدت وجهتها فذهب التنافس وقلّ الخلاف وحسن التعاون والتعاضد واتّسع نطاق الكلمة لذلك فعظمت الدول كما نبيّن لك بعد

فصل فى ان الدعوة الدينيّة تزيد الدولة فى اصلها قوة على قوة العصبيّة التى كانت لها من عددها

والسبب فى ذلك كما قدّمناه ان الصبغة الدينيّة تذهب بالتنافس والتحاسد الذى فى اهل العصبيّة وتفرّد الوجهة

Digitized by Google

الى الحق فاذا حصل لهم الاستبصار فى امرهم لم يقف لهم
شئ لان الوجهة واحدة والمطلوب متساو عند جميعهم وهم
مستميتون عليه واهل الدولة التى هم طالبوها وان كانوا
اضعافهم فان اغراضهم متباينة بالباطل وتخاذلهم لتقية الموت
حاصل فلا يقاومونهم وان كانوا اكثر منهم بل يغلبون عليهم
ويعاجلهم الفناء بما فيهم من الترف والذل كما قدّمناه وهذا
كما وقع للعرب فى صدر الاسلام فى الفتوحات فكانت
جيوش المسلمين بالقادسية واليرموك بضعا وثلاثين الفا فى
كل معسكر وجموع فارس ماية وعشرين الفا بالقادسية وجموع
هرقل على ما قاله الواقدى اربعماية الف فلم يقف للعرب
احد من الجانبين وهزموهم وغلبوهم على ما بايديهم واعتبر
ذلك ايضا فى دولة لمتونة ودولة الموحدين فقد كان
بالمغرب من القبايل كثير مما يقاومهم فى العدد والعصبيّة
او يشقّ عليهم الا ان الاجتماع الدينى ضاعف قوة عصبيّتهم
بالاستبصار والاستماتة كما قلناه فلم يقف لهم شئ واعتبر
ذلك اذا حالت صبغة الدين وفسدت كيف ينتقض الامر
ويصير الغلب على نسبة العصبيّة وحدها دون زيادة الدين
فيغلب الدولة من كان تحت يدها من العصايب المكافية
لها او الزايدة القوة عليها الذين غلبتهم بمضاعفة الدين
لقوتها وكانوا اكثر عصبيّة منها او اشدّ بداوة واعتبر هذا فى

Digitized by Google

الموحدين مع زناتة لما كان زناتة ابدا من المصامدة واشدّ توحّشا وكان للمصامدة الدعوة الدينيّة باتباع المهدى فلبسوا صبغتها وتضاعف قوة عصبيّتهم بها فغلبوا على زناتة اولا واستتبعوهم وان كانوا من حيث العصبيّة والبداوة اشدّ منهم فلما حالوا عن تلك الصبغة الدينيّة انتقضت عليهم زناتة من كل جانب وغلبوهم على الامر وانتزعوه والله غالب على امره

فصل فى ان الدعوة الدينيّة من غير عصبيّة لا تتمّ

وهذا لما قدّمناه من ان كل امر يحمل عليه الكافة فلا بدّ له من العصبيّة وفى الحديث كما مرّ ما بعث الله نبيا الا فى منفعة من قومه واذا كان هذا فى الانبياء وهم اولى الناس بخرق العوايد فما ظنّك بغيرهم ان لا تخرق له العادة فى الغلب بغير عصبيّة وقد وقع هذا لابن قسى شيخ المتصوّفة وصاحب كتاب خلع النعلين فى التصوّف ثار بالاندلس داعيا الى الحقّ وسمى اصحابه بالمرابطين قبيل دعوة المهدى فاستتبّ له الامر قليلا بشغل لهتونة بما دهمهم من امر الموحدين ولم يكن هناك عصايب ولا قبائل يدفعونه عن شانه فلم يلبث حتى استولى الموحدون على المغرب ان اذعن ودخل فى دعوتهم بايعهم من معقله

Digitized by Google

بحصن اركش وامكنهم من ثغره وكان اول داعية لهم بالاندلس
وكانت ثورته تسمى ثورة المرابطين (ومن) هذا الباب احوال
الثوار القايمين بتغيير المنكر من العامّة والفقهاء فان كثيرا
من المنتحلين للعبادة وسلوك طريق الدين يذهبون الى
القيام على اهل الجور من الامراء داعيين الى تغيير المنكر
والنهى عنه والامر بالمعروف رجاء فى الثواب عليه من الله
فيكثر اتباعهم والمتلبسون بهم من الغوغاء والدهما ويعرضون
بانفسهم فى ذلك للمهالك واكثرهم يهلكون فى تلك
السبيل مازورين غير ماجورين لان الله سبحانه لم يكتب
ذلك عليهم وانما امر به حيث تكون القدرة عليه قال
رسول الله صلى الله عليه وسلم من راى منكم منكرا فليغيّره
بيده فان لم يستطع فبلسانه فان لم يستطع فبقلبه واحوال
الملوك والدول راسخة قوية لا يزحزحها ويهدم بناها الا
المطالبة القوية التى من ورايها عصبيّة القبائل والعشاير كما
قدّمناه وهكذا كان حال الانبياء فى دعوتهم الى الله بالعصايب
والعشاير وهم المويّدون من الله لو شاء لايّدهم بالكون كله لكنه
انما اجرى الامور بحكمته على مستقرّ العادة فاذا ذهب احد
من الناس هذا المذهب وكان فيه محقّا قصر به الانفراد عن
العصبيّة فطاح فى هوة الهلاك واما ان كان من الملبسين
بذلك فى طلب الرياسة فاجدر ان تعوقه العوايق وينقطع

Digitized by Google

به الهلاك لانه امر الله لا يتمّ الا برضاه واعانته والاخلاص له والنصيحة للمسلمين ولا يشكّ فى ذلك مسلم ولا يرتاب فيه ذو بصيرة واول من ابتدا هذه النزعة فى الملّة ببغداذ حين وقعت فتنة طاهر وقتل الامين وابطاء المامون بخراسان عن مقدم العراق ثم عهد لعلى بن موسى الرضى من آل الحسين فكشف بنو العباس وجه النكير (1) عليه وتداعوا للقيام وخلع طاعة المامون والاستبدال منه وبويع ابراهيم بن المهدى فوقع الهرج ببغداذ وانطلقت ايدى الدعارة بها من الشطّار والحربيّة على اهل العافية والصون وقطعوا السبيل وامتلأت ايديهم من نهاب الناس وباعوها علانيّة فى الاسواق واستعدا اهلها الحكّام فلم يعدوهم فتوامر اهل الدين والصلاح على منع الفسّاق وكفّ عاديتهم وقام ببغداذ رجل يعرف بخالد الدريوش ودعا الناس الى الامر بالمعروف والنهى عن المنكر فاجابه خلق وقاتل اهل الدعارة وغلبهم واطلق يده فيهم بالضرب والتنكيل (ثم) قام من بعده رجل اخر من سواد اهل بغداذ يعرف بسهل بن سلامة الانصارى ويكنى ابا حاتم وعلق مصحفا فى عنقه ودعا الى الامر بالمعروف النهى عن المنكر والعمل بكتاب الله وسنّة نبيه

(1) Man. D. التكبّر.

Digitized by Google

فاتبعه كافة الناس من بين شريف ووضيع من بنى هاشم
فمن دونهم ونزل قصر طاهر واتّخذ الديوان وطاف ببغداذ
ومنع كل من اخاف (1) المارّة ومنع الخفارة لاولئك الشطّار
وقال له خالد الدريوش انا لا اعيب على السلطان فقال له
سهل لكنّى اقاتل كل من خالف الكتاب والسنّة كاينا من
كان وذلك سنة احدى ومايتين وجهز ابراهيم بن المهدى
اليه العساكر فغلبه واسره وانحلّ امره سريعا وذهب ونجا
بدما نفسه (ثم) اقتداه بهذا العمل بعد كثير من الموسوسين
ياخذون انفسهم باقامة الحقّ ولا يعرفون ما يحتاجون فى
اقامته من العصبيّة ولا يشعرون بمغبّة امرهم ومآل احوالهم
والذى يحتاج اليه فى امر هولا امّا المداواة ان كانوا من اهل
الجنون وامّا التنكيل بالقتل او الضرب ان احدثوا هرجا
واما اذاعة (2) السخرياء منهم وعدّهم فى جملة الصناعين (3)
(وقد) ينتسب بعضهم الى الفاطمى المنتظر امّا بانه هو او
داع له وليس مع ذلك على علم من امر الفاطمى ولا ما
هو واكثر المنتحلين لمثل هذا نجدهم موسوسين او مجانين
او ملبسين (4) يطلبون بمثل هذا الدعوى رياسة امتلاءت
بها جوانحهم وعجزوا عن التوصّل اليها بشىّ من اسبابها

(1) Man. A. et B. اضاف.
(2) Man. C. ازاغة.
(3) Man. A. et C. الصغاعين. D. الصباعين.
(4) Man. C. ملتبسين. D. مبلسين.

Digitized by Google

العاديّه فيحسبون ان هذا من الاسباب البالغة بهم الى ما يوملونه من ذلك ولا يحتسبون ما ينالهم من الهلكة فيسرع اليهم القتل بما يحدثونه من الفتنة وتسوء عاقبة مكرهم وقد كان لاول هذه الماية خرج بالسوس رجل من المتصوّفة يدعى التويزرى عمد الى مسجد ماسة بساحل البحر هنالك وزعم انه الفاطمى المنتظر تلبيسا على العامّة هنالك بما ملاء قلوبهم من الحدثان بانتظاره وان من ذلك المسجد يكون اصل دعوته فتهافت عليه طوايف من عامّة البربر تهافت الفراش ثم خشى رؤساوهمْ اتّساع نطاق الفتنة فدسّ اليه كبير المصامدة يومئذ عمر السكسيوى من قتله فى فراشه (وكذلك) خرج فى غمارة لاول هذه الماية ايضا رجل يعرف بالعباس وادّعى مثل هذه الدعوى واتبع نعيقه الارذلون من سفهاء تلك القبائل وغمارهم وزحف الى بادس من امصارهم فدخلها عنوة ثم قتل لاربعين يوما من ظهور دعوته ومضى فى الهالكين الاولين وامثال ذلك كثير والغلط فيه من الغفلة عن اعتبار العصبيّة فى مثلها واما ان كان التلبيس فاحرى ان لا يتمّ له امر وان يبوء باثمه وذلك جزاء الظالمين

Digitized by Google

فصل فى ان كل دولة لها حصّة من الممالك والاوطان لا تزيد عليها

والسبب فى ذلك ان عصابة الدولة وقومها القايمين بها الممهّدين لها لا بدّ من توزيعهم حصصا على الممالك والثغور التى تصير اليهم ويستولون عليها لحمايتها من العدو وامضاء احكام الدولة فيها من جباية وردع وغير ذلك فاذا توزّعت العصائب كلهم على الثغور والممالك فلا بدّ من نفاد عددهم وقد بلغت الممالك حينئذ الى حد يكون ثغرا للدولة وتخما لوطنها ونطاقا لمركز ملكها فان تكلّفت الدولة بعد ذلك زيادة على ما بيدها بقى دون حامية وكان موضعا لانتهاز الفرصة من العدو والمجاور ويعود وبال ذلك على الدولة بما يكون فيه من التجاسر وخرق سياج الهيبة وما كانت العصابة موفورة ولم ينفد عددهم فى توزيع الحصص على الثغور والنواحى بقى فى الدولة قوة على تناول ما وراء الغاية حتى ينفسح نطاقها الى غايته والعلّة الطبيعيّة فى ذلك ان قوة العصبيّة هى من ساير القوى الطبيعيّة وكل قوة يصدر عنها فعل من الافعال فشأنها ذلك فى فعلها والدولة فى مركزها اشدّ ممّا تكون فى الطرف والنطاق واذا انتهت الى النطاق الذى هو الغاية عجزت وقصرت عمّا

Digitized by Google

وراءه شأن الاشعّة والانوار اذا انبعثت من المراكز والدواير
المنفسحة على سطح الماء من النقر عليه ثم اذا ادركها الهرم
والضعف فانّما تاخذ فى التناقص من جهة الاطراف ولا يزال
المركز محفوظًا الى ان يتاذّنَ اللهُ بانقراض الامر جملة فحينئذ
يكون انقراض المركز واذا غلب على الدولة من مركزها فلا ينفعها
بقاء الاطراف والنطاق بل تضمحل لوقتها فان المركز كالقلب
الذى ينبعث منه الروح فاذا غلب القلب وملك انهزم
جميع الاطراف (وانظر) هذا فى الدولة الفارسية فان مركزها
المداين فلما غلب المسلمون على المداين انقرض امر فارس
اجمع ولم ينفع يزدجرد ما بقى بيده من اطراف ممالكه
وبالعكس من ذلك الدولة الرومية بالشام لما كان مركزها
القسطنطينية وغلبهم المسلمون على الشام تحيّزوا الى مراكزهم
بالقسطنطينية ولم يضرّهم انتزاع الشام من ايديهم فلم يزل
ملكهم متّصلا بها الى ان تاذّن الله بانقراضه وانظر ايضا شأن
العرب اول الاسلام لما كانت عصابتهم موفورة كيف غلبوا
على ما جاورهم من الشام والعراق ومصر لاسرع وقت ثم
تجاوزوا ذلك الى ما وراءه من السند والحبشة والافريقية
والمغرب ثم الى الاندلس فلما تفرّقوا حصصا على الممالك
والثغور ونزلوها حامية ونفد عددهم فى تلك التوزيعات
اقصروا عن الفتوحات بعد وانتهى امر الاسلام ولم يتجاوز

Digitized by Google

تلك الحدود ومنها تراجعت الدولة حتى تاذّن الله بانقراضها وكذا كان حال الدول من بعد ذلك كل دولة على نسبة القايمين بها فى القلّة والكثرة عند نفاد عددهم بالتوزيع ينقطع لهم الفتح والاستيلاء سنّة الله فى خلقه

فصل فى ان عظم الدولة واتّساع نطاقها وطول امدها على نسبة القايمين بها فى القلّة والكثرة

والسبب فى ذلك ان الملك انما يكون بالعصبيّة واهل العصبيّة هم الحامية الذين ينزلون بممالك الدولة واقطارها ويقتسمون عليها فما كان من الدول العامّة قبيلها واهل عصابتها اكثر كانت اقوى واكثر ممالك واوطانا وكان ملكها اوسع لذلك واعتبر ذلك بالدولة الاسلامية لما الّف الله كلمة العرب على الاسلام وكان عدد المسلمين فى غزوة تبوك آخر غزوات النبى صلى الله عليه وسلم ماية الف وعشرين (1) الف من مضر وقحطان ما بين فارس وراجل الى من اسلم منهم بعد ذلك الى الوفاة فلما توجّهوا لطلب ما فى ايدى الامم من الملك لم يكن دونه حمى ولا وزر فاستبيح حمى فارس والروم اهل الدولتين العظيمتين فى العالم لعهدهم والترك بالمشرق والافرنجة والبربر بالمغرب والقوط بالاندلس

(1) Man. C. et D. عشرة آلاف.

Digitized by Google

وخطوا من الحجاز الى السوس الاقصى ومن اليمن الى الترك
باقصى الشمال واستولوا على الاقاليم السبعة (ثم) انظر بعد
ذلك دولة صنهاجة والموحدين مع العبيديّين قبلهم لما
كان قبيل كتامة القايمين بدولة العبيديّين اكثر من صنهاجة
ومن المصامدة كانت دولتهم اعظم فهلكوا افريقية والمغرب
والشام ومصر والحجاز ثم انظر بعد ذلك دولة زناتة لما
كان عددهم اقل من المصامدة قصر ملكهم عن ملك
الموحدين لقصور عددهم عن عدد المصامدة منذ اول امرهم
(ثم) اعتبر بعد ذلك حال الدولتين لهذا العهد الزناتة بنى
مرين وبنى عبد الواد لما كان عدد بنى مرين لاول ملكهم
اكثر من بنى عبد الواد كانت دولتهم اقوى منها واوسع
نطاقا وكان لهم عليها الغلب مرّة بعد اخرى يقال ان عدد
بنى مرين لاول ملكهم كانوا ثلاثة آلاف وان عدد بنى عبد
الواد كانوا الفا الا ان الدولة بالرفه وكثرة التابع كثرت من
اعدادهم وهى على هذه النسبة فى اعداد المتغلّبين لاول
الملك يكون اتساع الدولة وقوتها (واما) طول امدها ايضا
فعلى تلك النسبة لان عمر الحادث من قوة مزاجه ومزاج
الدولة انما هو بالعصبيّة فاذا كانت العصبيّة قوية كان المزاج
تابعا لها وكان امد العمر طويلا والعصبيّة انما هى بكثرة العدد
ووفوره كما قلناه والسبب الصحيح فى ذلك ان النقص

Digitized by Google

انما يبدا الدولة من الاطراف فاذا كانت ممالكها كثيرة كانت اطرافها بعيدة عن مركزها وكثيرة وكل نقص يقع فلا بدّ له من زمن فتكثر ازمان النقص لكثرة الممالك واختصاص كل واحد منها بنقص وزمان فيكون امدها طويلا وانظر ذلك فى دولة العرب الاسلاميّة كيف كان امدها اطول الدول لا بنو العباس اهل المركز ولا بنو امية المتنبذون بالاندلس ولم ينتقص امر جميعهم الا بعد الاربع ماية من الهجرة ودولة العبيديّين كان امدها قريبا من مايتين وثمانين سنة ودولة صنهاجة دونهم من لدن تقليد مَعَدّ المعز امر افريقية لبلكين بن زيرى سنة ثمان وخمسين وثلثماية الى حين استيلاء الموحدين على القلعة وبجاية سنة سبع وخمسين وخمسماية ودولة الموحدين لهذا العهد تناهز مايتين وسبعين سنة وهكذا نسب الدول فى اعمارها على نسبة القايمين بها سنّة الله التى قد خلت فى عباده

فصل فى ان الاوطان الكثيرة القبايل والعصايب قل ان تستحكم فيها دولة

والسبب فى ذلك اختلاف الاراء والاهواء وان وراء كل راى منها وهوى عصبيّة تمانع دونها فيكثر الانتقاض على الدولة والخروج عليها فى كل وقت وان كانت ذات عصبيّة لان كل عصبيّة ممن تحت يدها تظنّ فى نفسها

Digitized by Google

منعة وقوة وانظر ما وقع من ذلك بافريقية والمغرب منذ
اول الاسلام ولهذا العهد فان ساكن هذه الاوطان من
البربر اهل قبايل وعصبيّات فلم يغن فيهم الغلب الاول
الذى كان لابن ابى سرح عليهم وعلى الفرنجه شيا وعاودوا
بعد ذلك الثورة والردّة مرّة بعد اخرى وعظم الاثخان من
المسلمين فيهم ولما استقرّ الدين عندهم عادوا الى الثورة
والخروج والاخذ بدين الخوارج مرّات عديدة قال ابن ابى
زيد ارتدّت البرابرة بالمغرب اثنى عشر مرّة ولم تستقرّ كلمة
الاسلام فيهم الا لعهد ولاية موسى بن نصير فما بعده وهذا
معنى ما ينقل عن عمر رضى الله عنه ان افريقية مفرقة
لقلوب اهلها اشارة الى ما فيها من كثرة العصايب والقبايل
الحامل لهم على عدم الاذعان والانقياد ولم يكن العراق
لذلك العهد بتلك الصفة ولا الشام انما كانت حاميتها
من فارس والروم والكافة دهماء (1) اهل مدن وامصار فلما غلبهم
المسلمون على الامر وانتزعوه من ايديهم لم يبق ممانع ولا
مشاقّ والبربر قبايلهم بالمغرب اكثر من ان تحصى وكلهم
بادية واهل عصايب وعشاير وكلما هلكت قبيلة عادت
الاخرى مكانها والى دينها من الخلاف والردّة فطال امر
العرب فى تمهيد الدولة بوطن افريقية والمغرب وكذلك

(1) Man.A. et B. وهما.

Digitized by Google

كان الامر بالشام لعهد بنى اسرائيل كان فيه من قبايل
فلسطين وكنعان وبنى عيصو وبنى مدين وبنى لوط وادوم
والارمن والعمالقة واكريكش (1) والنبط من جانب الجزيرة
والموصل ما لا يحصى كثرة وتنوّعا فى العصبيّة فصعب على
بنى اسرائيل تمهيد دولتهم ورسوخ امرهم واضطرب عليهم
الملك مرّة بعد اخرى وسرى ذلك الخلاف اليهم فاختلفوا
على سلطانهم وخرجوا عليه ولم يكن لهم ملك موطّد ساير
ايامهم الى ان غلبهم الفرس ثم يونان ثم الروم آخر امرهم
عند الجلا والله غالب على امره وبعكس هذا ايضا الاوطان
الخلوة من العصبيات يسهل تمهيد الدولة فيها ويكون
سلطانها وادعا لقلة الهرج والانتقاض ولا تحتاج الدولة فيها
الى كثير من العصبيّة كما هو الشأن فى مصر والشام لهذا
العهد اذ هى خلو من القبايل والعصبيّات كان لم يكن
الشام معدنا لهم كما قلناه فملك مصر فى غاية الدعة
والرسوخ لقلّة الخوارج واهل العصايب انما هو سلطان ورعيّة
ودولتها قايمة بملوك الترك وعصايبهم يغلبون على الامر
واحدا بعد واحد وينتقل الامر فيهم من منبت الى منبت
والخلافة مسماة للعباسى من اعقاب الخلفاء ببغداذ وكذا
شأن الاندلس لهذا العهد فان عصبيّة ابن احمر سلطانها

(1) Man. D. البرنطس.

Digitized by Google

لم تكن لاول دولتهم بقوية ولا كانت لها كثرة انما كانوا
اهل بيت من بيوت العرب اهل الدولة الاموية بقوا من
ذلك الفلّ وذلك ان اهل الاندلس لما انقرضت الدولة
العربيّة منهم وملكها البربر من لمتونة والموحدين سيموا
ملكتهم وثقلت وطاءتها عليهم فاشربت القلوب
بغضاهم ونكراهم وامكن الموحدون السادة فى آخر الدولة
كثيرا من الحصون للطاغية فى سبيل الاستظهار بهم على
شأنهم من تملّك حضرة مراكش فاجتمع من كان بقى بها
من اهل العصبيّة القديمة معادن من بيوت العرب تجافى
بهم المنبت عن الحضارة والامصار بعض الشئ ورسوخا فى
الجنديّة مثل ابن هود وابن الاحمر وابن مَرْدَنيش فقام ابن
هود بالامر ودعى بدعوة الخلافة العباسيّة بالمشرق وحمل
الناس على الخروج على الموحدين فنبذوا اليهم العهد واخرجوهم
واستقلّ ابن هود بالامر بالاندلس ثم سما ابن الاحمر للامر
وخالف ابن هود فى دعوته فدعا هو لابن ابى حفص صاحب
افريقية من الموحّدين وقام بالامر وتناوله بعصابة قليلة من
قرابته كانوا يسمّونهم الرؤساء ولم يحتج لاكثر منها لقلّة
العصايب بالاندلس وانها سلطان ورعيّة (ثم) استظهروا بعد
ذلك على الطاغية بمن يجيز اليه البحر من اعياص زناتة
فصاروا معه عصبة على الثاغرة والرباط ثم سما لصاحب

Digitized by Google

المغرب من ملوك زناتة امل فى الاستيلاء على الاندلس وصار اولئك الاعياص عصابة ابن الاحمر على الامتناع منه الى ان تأثّل امره ورسخ والفته النفوس وعجز الناس عن مطالبته واورثه اعقابه لهذا العهد فلا تظنّن انه بغير عصابة فليس كذلك وقد كان مبدؤه بعصابة الا انها قليلة وعلى قدر الحاجة فان وطن الاندلس لقلّة العصايب والقبايل فيه يستغنى عن كثرة العصبيّة فى التغلّب عليهم والله غنىّ عن العالمين

فصل فى ان من طبيعة الملك الانفراد بالمجد والتوغّل فى الترف وايثار الدعة والسكون

اما الانفراد بالمجد فلانّ المجد كما قدّمناه انما هو بالعصبيّة والعصبيّة متالّفة من عصبات كثيرة تكون واحدة منها اقوى من الاخر كلها فتغلبها وتستولى عليها حتى تصيرها جميعا فى ضمنها وبذلك يكون الاجتماع والغلب على الناس والدول وسرّه ان العصبيّة العامّة للقبيل هى مثل المزاج للمتكّون والمزاج انما يكون عن العناصر وقد تبيّن فى موضعه ان العناصر اذا اجتمعت متكافية فلا يقع منها مزاج اصلا بل لا بدّ يكون واحد منها غالبا على الاخر وبغلبته عليها يقع الامتزاج وكذلك العصبيّات لا بدّ ان تكون واحدة منها هى الغالبة على الكل حتى تجمعها وتولفها

Digitized by Google

وتصيرها عصبيّة واحدة شاملة لجميع العصبيّات وهى موجودة
فى ضمنها وتلك العصبيّة الكبرى انما تكون لقوم
اهل بيت ورياسة فيهم ولا بدّ ان يكون واحد منهم رئيسا
لهم غالبا عليهم فيتعيّن رئيسا للعصبيّات كلها لغلب منبته
بجميعها واذا تعيّن له ذلك (ومن) الطبيعة الحيوانيّة خلق
الكبر والانفة فيأنف حينئذ من المساهمة والمشاركة فى
استتباعهم والتحكّم فيهم ويجئ خلق التألّه الذى فى
طباع البشر مع ما تقتضيه السياسة من انفراد الحاكم
لفساد الكل باختلاف الحكّام لو كان فيهما الهة الا الله لفسدتا
فيجدع حينئذ انوف العصبيّات ويكبح شكايمهم عن ان
يسموا الى مشاركته فى التحكّم ويقرع عصبيّتهم
عن ذلك وينفرد به ما استطاع حتى لا يترك لاحد منهم
فى الامر ناقة ولا جملا فينفرد بذلك المجد بكليته ويدفعهم
عن مساهمته فيه وقد يتمّ ذلك للاول من ملوك الدولة
وقد لا يتمّ للثانى او الثالث على قدر ممانعة العصبيّات
وقوتها الا انه امر لا بدّ منه فى الدول سنّة الله فى عباده (واما)
التوغّل فى الترف فلان الامّة اذا تغلبت وملكت ما بايدى
اهل الملك قبلها كثر رياشها ونعمتها فتكثر عوايدهم
ويتجاوزون ضرورات العيش وخشونته الى نوافله ورقته
وزينته ويذهبون الى اتباع من قبلهم فى عوايدهم واحوالهم

Digitized by Google

PROLÉGOMÈNES d'Ebn-Khaldoun.

ويصير لتلك النوافل عوايد ضرورية فى تحصيلها وينزعون مع ذلك الى رقة الاحوال فى المطاعم والملابس والفرش والآنية ويتفاخرون فى ذلك ويفاخرون فيه غيرهم من الامم فى اكل الطيب ولبس الانيق وركوب الفاره ويناغى خلفهم فى ذلك سلفهم الى آخر الدولة وعلى قدر ملكهم يكون حظّهم من ذلك وترفهم فيه الى ان يبلغوا من ذلك الغاية التى للدول ان تبلغها بحسب قوتها وعوايد من قبلها سنّة الله فى خلقه (واما) ايثار الدعة والسكون فلان الامّة لا يحصل لها الملك الا بالمطالبة والمطالبة غايتها الغلب والملك واذا حصلت الغاية انقضى السعى اليها

عجبت لسعى الدهر بينى وبينها فلما انقضى ما بيننا سكن الدهر

فاذا حصل الملك اقصروا عن المتاعب التى كانوا يتكلّفونها فى طلبه وآثروا الراحة والسكون والدعة ورجعوا الى تحصيل ثمرات الملك من المبانى والمساكن والملابس فيبنون القصور ويجرون المياه ويغرسون الرياض ويستمتعون باحوال الدنيا ويوثرون الراحة على المتاعب ويتانّقون فى احوال الملابس والمطاعم والآنية والفرش ما استطاعوا ويالفون ذلك ويورثونه من بعدهم من اجيالهم ولا يزال ذلك يتزايد فيهم الى ان يتاذّن الله بامره

Digitized by Google

فصل فى انه اذا استحكمت طبيعة الملك من الانفراد بالمجد وحصول الترف والدعة اقبلت الدولة على الهرم

وبيانه من وجوه الاول انها تقتضى الانفراد بالمجد كما قلناه ومهما كان المجد مشتركا بين العصابة وكان سعيهم له واحدا كانت هممهم فى التغلّب على الغير والذبّ عن الحوزة اسوة فى طموحها وقوة شكايمها ومرماهم الى العز جميع فهم يستطيبون الموت فى بناء مجدهم ويوثرون الهلكة على فساده واذا انفرد الواحد منهم بالمجد قرع عصيهم وكبح من اعنّتهم واستأثر بالاموال دونهم فتكاسلوا عن العز (1) وفشل ريحهم وريموا المذلّة والاستعباد ثم ربى الجيل الثانى على ذلك يحسبون ما ينالهم من العطاء اجرا من السلطان لهم على الحماية والمعونة لا يجرى فى عقولهم سواه وقلّ ان يستأجر احد نفسه على الموت فيصير ذلك وهنا فى الدولة وخضدا من الشوكة وتقبل به على مناحى الضعف والهرم لفساد العصبيّة بذهاب الباس من اهلها الوجه الثانى ان طبيعة الملك تقتضى الترف كما قدّمناه فتكثر عوايدهم وتزيد نفقاتهم على اعطياتهم ولا يفى دخلهم بخرجهم فالفقير منهم يهلك والمترف يستغرق عطاءه بترفه ثم يزداد ذلك

(1) Man. A. et B. الغزو.

Digitized by Google

فى اجيالهم المتأخرة الى ان يقصر العطاء كله عن الترف وعوايده وتمسّهم الحاجة ويطالبهم ملوكهم بحصر نفقاتهم فى الغزو والحروب فلا يجدون وليجة عنها فيوقعون بهم العقوبات وينزعون ما فى ايدى الكثير منهم يستأثرون به عليهم او يوثرون به ابناءهم وصنايع دولتهم فيضعفون هم لذلك عن اقامة احوالهم ويضعف صاحب الدولة بضعفهم وايضا اذا كثر الترف فى الدولة وصار عطاوهم مقصرا عن حاجاتهم ونفقاتهم احتاج صاحب الدولة الذى هو السلطان الى الزيادة فى اعطياتهم حتى يسد خللهم ويزيح عللهم والجباية مقدارها معلوم لا يزيد ولا ينقص وان زادت بما يستحدث من الكوس فيصير مقدارها بعد الزيادة محدودا فاذا وزعت الجباية على الاعطيات وقد حدثت فيها الزيادة لكل واحد بما حدث من ترفهم وكثرة نفقاتهم نقص عدد الحامية حينئذ عمّا كان قبل زيادة الاعطيات ثم يعظم الترف وتكثر مقادير الاعطيات لذلك فينقص عدد الحامية وثالثا ورابعا الى ان يعود العسكر الى اقلّ الاعداد فتضعف الحامية لذلك وتسقط قوة الدولة ويتجاسر عليها من يجاورها من الدول او من تحت ايديها من العصايب (1) والقبايل ويتأذن الله فيها بالفناء الذى كتبه على خليقته وايضا فالترف مفسد للخلق بما يحصل

(1) Man. A. et B. العصبيات.

فى النفس من الشر والسفسفة وعوايدها كما يأتى فى فصل الحضارة فيذهب منهم خلال الخير التى كانت علامة على الملك ودليلا عليه ويتّصفون بما يناقضها من خلال الشر فيكون علامة على الادبار والانقراض بما جعل الله من ذلك فى خليقته وتاخذ الدولة مبادى العطب وتتضعضع احوالها وتنزل بها امراض مزمنة من الهرم الى ان يقضى عليها الوجه الثالث ان طبيعة الملك تقتضى الدعة كما ذكرناه واذا اتّخذوا الدعة والراحة مألفا وخلقا صار لهم ذلك طبيعة وجبلّة شأن العوايد كلها وايلافها فتربا اجيالهم الحادثة فى عضارة (1) العيش ومهاد الترف والدعة وينقلب خلق التوحّش وينسون عوايد البداوة التى كان بها الملك من شدّة البأس وتعوّد الافتراس وركوب البيداء وهداية القفر (2) فلا يفرق بينهم وبين السوقة من الحضر الا فى الثقافة والشارة فتضعف حمايتهم ويذهب بأسهم وينخضد شوكتهم ويعود وبال ذلك على الدولة بما تلبس به من ثياب الهرم ثم لا يزالون يتلوّنون (3) بعوايد الترف والحضارة والسكون والدعة ورقّة الحاشية فى جميع احوالهم وينغمسون فيها وهم فى ذلك يبعدون عن البداوة والخشونة وينسلخون عنها شيئا فشيئا

(1) Man. A. et B. غضادة.

(2) Man. D. هواية الفقر.

(3) Man. D. يتلوثون.

Digitized by Google

وينسون خلق البسالة التى كانت بها الحماية والمدافعة حتى يعودوا عيالا على حامية اخرى ان كانت لهم واعتبر ذلك فى الدولة التى اخبارها فى الصحف لديك تجد ما قلته لك من ذلك صحيحا من غير ريبة وربّما يحدث فى الدولة اذا طرقها هذا الهرم بالترف والراحة ان يتخيّر صاحب الدولة انصارا وشيعا من غير جلدتهم ممّن تعوّد الخشونة فيتّخذهم جندا يكونون اصبر على الحروب واقدر على معاناة الشدايد من الجوع والشظف ويكون ذلك دواء للدولة من الهرم الذى عساه يطرقها حتى يتأذّن الله فيها بامره وهذا كما وقع فى دولة الترك بالمشرق فان غالب جندها الموالى من الترك فيتخيّر ملوكهم من اولئك الممالك المجلوبين اليهم فرسانا وجندا فيكونون اجرا على الحرب واصبر على الشظف من ابناء المماليك الذين كانوا قبلهم وربوا فى ماء النعيم والسلطان وظلّه وكذلك فى دولة الموحدين بافريقية فان صاحبها كثيرا ما يتّخذ اجناده من زناتة والعرب ويستكثر منهم وبترك اهل الدولة المتعوّدين للترف فتستجد الدولة بذلك عمرا اخر سالما من الهرم والله وارث الارض ومن عليها

فصل فى ان الدولة لها اعمار طبيعيّة كالاشخاص

اعلم ان العمر الطبيعىّ للاشخاص على ما زعم الاطبّاء والمنجمون

Digitized by Google

ماية وعشرون سنة وهى سنو القمر الكبرى عند المنجميـن ويختلف العمر فى كل جيل بحسب القرانات فيزيد عن هذا وينقص منه فتكون اعمار بعض اهل القرانات ماية تامّة وبعضهم خمسين او ثمانين او سبعين على ما تقتضيه ادلّة القرانات عند الناظرين فيها واعمار اهل هذه الملّة ما بين الستّين الى السبعين كما فى الحديث ولا يزيد على العمر الطبيعىّ الذى هو ماية وعشرين الا فى الصور النادرة وعلى الاوضاع الغريبة من الفلك كما وقع فى شأن نوح عليه الصلاة والسلام وقليل من قوم عاد وثمود واما اعمار الدول ايضا وان كان يختلف بحسب القرانات الا ان الدولة فى الغالب لا تعدو اعمار ثلاثة اجيال والجيل هو عمر شخص واحد من العمر الوسط فيكون اربعين الذى هو انتهاء النموّ والنشؤ الى غايته قال تعالى حتى اذا بلغ اشدّه وبلغ اربعين سنة ولهذا قلنا ان عمر الشخص الواحد هو عمر الجيل ويويّده ما ذكرناه فى حكمة التيه الذى وقع لبنى اسرائيل وان المقصود بالاربعين فيه فناء الجيل الاحياء ونشاءة جيل اخر لم يعهدوا الذلّ ولا عرفوه فدلّ على اعتبار الاربعين فى عمر الجيل التى هى عمر الشخص الواحد وانما قلنا ان عمر الدولة فى الغالب لا يعدو ثلاثة اجيال لان الجيل الاول لم يزالوا على خلق البداوة وخشونتها وتوحّشها من شظف العيش والبسالة

Digitized by Google

والافتراس والاشتراك فى المجد فلا تزال بذلك سورة العصبيّة محفوظة فيهم فحدّهم مرهف وجانبهم مرهوب والناس لهم مغلوبون والجيل الثانى تحول حالهم بالملك والرفه من البداوة الى الحضارة ومن الشظف الى الترف والخصب ومن الاشتراك فى المجد الى انفراد الواحد به وكسل الباقين عن السعى فيه ومن عزّ الاستطالة الى ذلّ الاستكانة فتنكسر سورة العصبيّة بعض الشئ ويونس منهم المهانة والخضوع ويبقى لهم لكثير من ذلك بما ادركوا الجيل الاول وباشروا احوالهم وشاهدوا من اعتزازهم وسعيهم الى المجد وتراميهم الى المدافعة والحماية فلا يسعهم ترك ذلك بالكلية وان ذهب منه ما ذهب ويكونون على رجاء من مراجعة الاحوال التى كانت للجيل الاول او على ظنّ من وجودها فيهم واما الجيل الثالث فينسون عهد البداوة والخشونة كأن لم تكن ويفقدون حلاوة العزّ والعصبيّة بما هم فيه من ملكة القهر ويبلغ الترف فيهم غايته بما تبنكوه من النعيم وعضارة العيش فيصيرون عيالا على الدولة ومن جملة النساء والولدان المحتاجين للمدافعة عنهم وتسقط العصبيّة بالجملة وينسون الحماية والمدافعة والمطالبة ويلبسون على الناس فى الشارة والزىّ وركوب الخيل وحسن الثقافة يموّهون بها وهم فى الاكثر اجبن من النسوان على ظهورها فاذا

Digitized by Google

جاء المطالب لهم لم يقاوموا مدافعته فيحتاج صاحب الدولة
حينئذ الى الاستظهار بسواهم من اهل النجدة ويستكثر بالموالى
ويصطنع من يغنى عن الدولة بعض الغناء حتى يتاذّن الله
بانقراضها فتذهب الدولة بها حملت فهذه كما تراه ثلاثة
اجيال فيها يكون هرم الدولة وتخلّقها ولذلك كان انقراض
الحسب فى الجيل الرابع كما مرّ فى ان المجد والحسب
انّما هو فى اربعة آباء وقد اتيناك فيه ببرهان طبيعىّ ظاهر
مبنىّ على ما مهّدناه قبل من المقدّمات فتأمّله فلن يعدو
وجه الحقّ ان كنت من اهل الانصاف وهذه الاجيال
الثلاثة اعمارها ماية وعشرون سنة على ما مرّ ولا تعدو الدولة
فى الغالب هذا العمر بتقريب قبله او بعده الا ان عرض
لها عارض اخر من فقدان المطالب فيكون الهرم حاصلا
مستوليا والمطالب لم يحضرها ولو قد جاء الطالب لها وجد
مدافعا فاذا جاء اجلهم لا يستاخرون ساعة ولا يستقدمون
وهذا العمر للدولة بمثابة عمر الشخص من التزيّد الى سنّ
الوقوف ثم الى سّن الرجوع ولهذا يجرى على السنة الناس
فى المشهور ان عمر الدولة ماية سنة وهذا معناه فاعتبره واتّخذ
منه قانونا يصحّح لك عدد الآباء فى عمود النسب الذى تريده
من قبل معرفة السنين الماضية اذا كنت قد استربت
فى عدّتهم وكانت السنون الماضية منذ اولهم محصلة لديك

Digitized by Google

فعدّ لكل ماية من السنين ثلاثة من الاباء فان نفذت على هذا القياس مع نفوذ عددهم فهو صحيح وان نقصت عنه بجيل فقد غلط عددهم بزيادة واحد فى عمود النسب وان زادت بمثله فقد سقط واحد وكذلك تاخذ عدد السنين من عددهم اذا كان محصلا لديك صحيحا والله مقدّر الليل والنهار

فصل فى انتقال الدولة من البداوة الى الحضارة

اعلم ان هذه الاطوار طبيعية للدولة فان الغلب الذى يكون به الملك انما هو بالعصبيّة وما يتبعها من شدّة البأس وتعوّد الافتراس ولا يكون ذلك غالبا الا مع البداوة فطور الدولة من اولها بداوة ثم اذا حصل الملك يتبعه الرفه واتّساع الاحوال والحضارة انما هى تفنّن فى الترف واحكام الصنايع المستعملة فى وجوهه ومذاهبه من المطابخ والملابس والهبانى والفرش والآنية وساير عوايد المنزل واحواله فلكل واحد منها صنايع فى استجادته والتانّق فيه تختصّ به ويتلو بعضها بعضا وتكثر باختلاف ما تنزع اليه النفوس من الشهوات والملاذّ والتنعّم باحوال الترف وما تتلوّن به من العوايد فصار طور الحضارة واحوالها للدولة السالفة قبلهم فاحوالهم يشاهدون ومنهم فى الغالب ياخذون (ومثل) هذا

Digitized by Google

وقع للعرب لما كان الفتح وملكوا فارس والروم واستخدموا
بناتهم وابناءهم ولم يكونوا لذلك العهد فى شئ من
الحضارة فقد حكى انه قدم لهم المرفق فكانوا يحسبونه رقاعا
وعثروا على الكافور فى خزاين كسرى فاستعملوه فى عجينهم
ملحا وامثال ذلك فلما استعبدوا اهل الدول قبلهم واستعملوهم
فى مهنهم وحاجات منازلهم واختاروا منهم المهرة فى امثال
ذلك والقومة عليه افادوهم علاج ذلك والقيام على عمله
والتفنّن فيه مع ما حصل لهم من اتّساع العيش والتفنّن
فى احواله فبلغوا الغاية فى ذلك وتطوّروا بطور الحضارة
والترف فى الاحوال واستجادة المطاعم المشارب والملابس
والمبانى والاسلحة والفرش والآنية والغنا وساير الماعون
والخرثى وكذا احوالهم فى ايام المباهاة والولايم وليالى
الاعراس فاتوا من ذلك وراء الغاية (وانظر) ما نقله المسعودى
والطبرى وغيرهما فى اعراس المامون ببوران بنت الحسن
بن سهل وما بذل ابوها لحاشية المامون حين وافاه فى
خطبتها الى داره بفم الصلح وركب اليها فى السفين وما
انفق فى املاكها وما نحلها المامون وانفق فى عرسها
تقف من ذلك على العجب (فمنه) ان الحسن ابن سهل
نثر يوم الاملاك فى الصنيع الذى حضره حاشية المامون
فنثر على الطبقة الاولى منهم بنادق المسك ملتوتة على

Digitized by Google

الرقاع بالضياع والعقار مسوغة لمن حصلت فى يده يقع لكل واحد منهم ما ادّاه اليه الاتّفاق والبخت وفرق على الطبقة الثانية بدر الدنانير فى كل بدرة عشرة آلاف وفرق على الطبقة الثالثة بدر الدراهم كذلك بعد ان انفق فى مقامة المامون بداره اضعاف ذلك (ومنه) ان المامون اعطاها فى مهرها ليلة زفافها الف حصاة من الياقوت واوقد شموع العنبر فى كل واحدة ماية منّ وهو رطل وثلثان وبسط لها فرشا كان الحصير منها منسوجا بالذهب مكللا بالدرّ والياقوت وقال المامون حين راه قاتل الله ابا نواس كانه ابصر هذا حيث يقول فى صفة الخمر

كان صغرى وكبرى من فواقعها حصبا درّ على ارض من الذهب

واعدّ بدار الطبخ من الحطب لليلة الوليمة نقل ماية واربعين بغلا مدّة عام كامل ثلث مرّات فى كل يوم وفنى الحطب لليتئذ واوقدوا الجريد يصبّون عليه الزيت واوعز الى النواتية باحضار السفن لاجازة الخواصّ من الناس بدجلة من بغداذ الى قصر الملك بمدينة المامون لحضور الوليمة فكانت الحراقات المعدّة لذلك ثلاثين الفا اجازوا الناس فيها اخريات نهارهم وكثير من هذا وامثاله (وكذلك) عرس المامون بن ذى النون بطليطلة نقله ابن بسام فى كتاب الذخيرة وابن حيان بعد ان كانوا كلهم فى الطور الاول من

Digitized by Google

البداوة عاجزين عن ذلك جملة لفقدان اسبابه والقايمين
على صنايعه فى غضاضتهم وسذاجتهم يذكر ان الحجاج اولم
فى اختان ولده فاستحضر بعض الدهاقين يسأله عن ولايم
الفرس وقال له اخبرنى باعظم صنيع شهدته فقال نعم ايّها
الامير شهدت بعض مرازبة كسرى قد صنع لاهل فارس صنيعا
احضر فيه صحاف الذهب على اخونه الفضّة اربعا على كل
واحد ويحمله اربع وصايف ويجلس عليه اربع من الناس
فاذا طعموا اتبعوا اربعتهم المايدة بصحافها ووصايفها فقال
الحجاج يا غلام انحر الجزور واطعم الناس وعلم انه لا يستقلّ
بهذه الابهة وكذلك كانت (ومن هذا الباب) اعطية بنى
امية وجوايزهم فانما كان اكثرها الابل اخذا بمذاهب العرب
وبداوتهم ثم كانت الجوايز فى دولة بنى العباس والعبيديّين
ومن بعدهم ما علمت من احمال المال وتخوت الثياب
واعداد الخيل بمراكبها وهكذا كان شأن كتامة مع الاغالبة
بافريقية وبنى طغج بمصر وشأن لمتونة مع ملوك الطوايف
بالاندلس والموحدين كذلك وشأن زناتة مع الموحدين
وهلّم جرّا تنتقل الحضارة من الدول السالفة الى الدول
الخالفة فانتقلت حضارة الفرس للعرب بنى امية وبنى
العباس وانتقلت حضارة بنى امية بالاندلس الى ملوك
المغرب من الموحدين وزناتة لهذا العهد وانتقلت حضارة

Digitized by Google

PROLÉGOMÈNES d'Ebn-Khaldoun.

بنى العباس الى الديلم ثم الى الترك السلجوقية ثم الى الترك بمصر موالى بنى ايوب والى التتار بالعراقين وعلى قدر عظم الدولة يكون شأنها فى الحضارة اذ امور الحضارة من توابع الترف والترف من توابع الثروة والنعمة والثروة والنعمة من توابع الملك ومقدار ما يستولى عليه اهل الدولة فعلى نسبة الملك يكون ذلك كله فاعتبره وتفهمه تجده صحيحا فى العمران والدول والله وارث الارض ومن عليها

فصل فى ان الترف يزيد الدولة فى اوّلها قوة الى قوتها

والسبب فى ذلك ان القبيل اذا حصل لهم الملك والترف كثر التناسل والولد والعَمومّية فكثرت العصابة واستكثروا ايضا من الموالى والصنايع وربيت اجيالهم فى جوّ ذلك النعيم والرفه فازدادوا بهم عددا الى عددهم وقوة الى قوتهم بسبب كثرة العصايب حينئذ بكثرة العدد فاذا ذهب الجيل الاول والثانى واخذت الدولة فى الهرم لم يستقلّ اولئك الصنايع والموالى بانفسهم فى تأسيس الدولة وتمهيد ملكها لانّهم ليس لهم من الامر شى انّما كانوا عيالا على اهلها ومعونة لها فاذا ذهب الاصل لم يستقلّ الفرع بالرسوخ فيذهب ويتلاشى ولا تبقى الدولة على حالها من القوة (واعتبر) هذا بما وقع فى الدولة العربيّة فى الاسلام كان عدد

Digitized by Google

العرب كما قلناه لعهد النبوة والخلافة ماية وخمسين الفا او ما يقاربها من مضر وقحطان ولما بلغ الترف مبالغه فى الدولة وتوفّر نموهم بتوفّر النعمة واستكثر الخلفاء من الموالى والصنايع بلغ ذلك العدد الى اضعافه (يقال) ان المعتصم نازل عمورية لما افتتحها فى تسعماية الف ولا يبعد مثل هذا العدد ان يكون صحيحا اذ اعتبرت حاميتهم فى الثغور الدانية والقاصية شرقا وغربا الى الجند الحاملين سرير الملك والموالى والمصطنعين وقال المسعودى احصى بنو العباس بن عبد المطلب خاصّة ايام المامون للانفاق عليهم وكانوا ثلاثين الفا بين ذكران واناث فانظر مبالغ هذا العدد لاقلّ من مايتى سنة واعلم ان سببه الرفه والنعيم الذى حصل للدولة وربى فيه اجيالهم والا فعدد العرب لاول الفتح لم يبلغ هذا ولا قريبا منه والله الخلّاق العليم

فصل فى اطوار الدولة وكيف تختلف احوال اهلها فى البداوة باختلاف الاطوار

اعلم ان الدولة تنتقل فى اطوار مختلفة وحالات متجدّدة ويكسب القايمون بها فى كل طور خلقا من احوال ذلك الطور لا يكون مثله فى الطور الاخر لان الخلق تابع بالطبع لمزاج الحال الذى هو فيه وحالات الدولة واطوارها لا تعدو

Digitized by Google

فى الغالب خمسة (الاول) طور الظفر وغلب المدافع والهمانع والاستيلاء على الملك وانتزاعه من ايدى الدولة السالفة قبلها فيكون صاحب الدولة فى هذا الطور اسوة قومه فى اكتساب المجد وجباية المال والمدافعة عن الحوزة والحماية لا ينفرد دونهم بشئ لان ذلك هو مقتضى العصبيّة التى وقع بها الغلب وهى لم تزل بعد بحالها (الطور الثانى) طور الاستبداد على قومه والانفراد دونهم بالملك وكبحهم عن التطاول للمساهمة والمشاركة ويكون صاحب الدولة فى هذا الطور مغنيًا باصطناع الرجال واتّخاذ الموالى والصنايع والاستكثار من ذلك لجدع انوف اهل عصبيّته وعشيرته المقاسمين له فى نسبه الضاربين فى الملك بمثل سهمه فهو يدافعهم عن الامر ويصدّهم عن موارده ويردّهم على اعقابهم ان يخلصوا اليه حتى يقرّ الامر فى نصابه ويفرد اهل بيته بما يبنى من مجده فيعانى من مدافعتهم ومغالبتهم مثل ما عاناه الاولون فى طلب الامر واشدّ لانّ الاولين دافعوا الاجانب فكان ظهراوهم على مدافعتهم اهل العصبيّة باجمعهم وهذا يدافع الاقارب ولا يظاهره على مدافعتهم الا الاقلّ من الاباعد فيركب صعبا من الامر (الطور الثالث) طور الفراغ والدعة لتحصيل ثمرات الملك مما تنزع طباع البشر اليه من تحصيل المال وتخليد الآثار وبعد الصيت فيستفرغ وسعه فى

Digitized by Google

الجباية وضبط الدخل والخرج واحصاء النفقات والقصد فيها
وتشييد المبانى الحافلة والمصانع العظيمة والامصار المتّسعة
والهياكل المرتفعة واجازة الوفود من اشراف الامم ووجوه
القبايل وبثّ المعروف فى اهله هذا مع التوسعة على صنايعه
وحاشيته فى احوالهم بالمال والجاه واعتراض (1) جنوده وادرار
ارزاقهم وانصافهم فى اعطياتهم لكل هلال حتى يظهر اثر
ذلك عليهم فى ملابسهم وزيّهم وشكتهم ايام الزينة فيباهى
بهم الدول المسالمة ويرهب الدول المحاربة وهذا الطور آخر
اطوار الاستبداد من اصحاب الدول لانهم فى هذه الاطوار
كلها مستقلّون بارايهم بانون لعزّهم موضحون الطرق لمن
بعدهم (الطور الرابع) طور القنوع والمسالمة ويكون صاحب
الدولة فى هذا قانعا بما بنا اولوه سلما لانظاره من الملوك
واقتاله مقلّدا للماضين من سلفه يتبع آثارهم حذو النعل بالنعل
ويقتفى طرقهم باحسن مناهج الاقتداء ويرى ان فى الخروج
عن تقليدهم فساد امره وانهم لبصر بها بنوا من مجده
(الطور الخامس) طور الاسراف والتبذير ويكون صاحب الدولة
فى هذا الطور متلفا لما جمع اولوه فى سبيل الشهوات
والملاذّ والكرم على بطانتها وفى مجالسها واصطناع اخدان
السوء وخضراء الدمن وتقليدهم عظيمات الامور التى لا يستقلّون

(1) Man A. et B. اعراض.

Digitized by Google

بحملها ولا يعرفون ما ياتون وما يذرون منها مستفسدا لكبار
الاولياء من قومه وصنايع سلفه حتى يضطغنوا عليه ويتخاذلوا
عن نصرته مضيعا من جنده بما انفق اعطياتهم فى شهواته
وحجب عنهم وجه مباشرته وتفقّده فيكون مخربا لما كان
سلفه يوسّسون وهادما لما كانوا يبنون وفى هذا الطور تحصل
فى الدولة طبيعة الهرم ويستولى عليها المرض المزمن
الذى لا يكاد يخلص منه ولا يكون لها معه برء الى ان
تنقرض كما نبيّنه فى الاحوال التى نسردها والله خير الرازقين

فصل فى ان اثار الدولة كلها على نسبة قوتها فى اصلها

والسبب فى ذلك ان الآثار انما تحدث عن القوة التى
بها كانت اولا وعلى قدرها يكون الاثر فمن ذلك مبانى
الدولة وهياكلها العظيمة فانما تكون على نسبة قوة الدولة
فى اصلها لانّها لا تتمّ الا بكثرة الفعلة واجتماع الايدى على
العمل والتعاون فيه فاذا كانت الدولة عظيمة فسيحة الجوانب
كثيرة الممالك والرعايا كان الفعلة كثيرين جدا وحشروا من
آفاق الدولة واقطارها فتمّ العمل على اعظم هياكله الا
ترى الى مصانع قوم عاد وثمود وما قصّه القران عنها وانظر
بالمشاهدة ايوان كسرى وما اقتدر فيه الفرس حتى انه اعتزم
الرشيد على هدمه وتخريبه فتكاد عنه وشرع فيه ثم ادركه

Digitized by Google

العجز وقصّة استشارته يحيى بن خالد فى شأنه معروفة فانظر كيف تقتدر دولة على بناء لا تستطيع اخرى على هدمه مع بون ما بين الهدم والبناء فى السهولة تعرف من ذلك بون ما بين الدولتين وانظر الى بلاط الوليد بدمشق وجامع بنى امية بقرطبة والقنطرة التى على واديها وكذلك بناء الحنايا لجلب الماء الى قرطاجنة فى القناة الراكبة عليها وآثار شرشال بالمغرب والاهرام بمصر وكثير من هذه الآثار الماثلة للعيان تعلم منه اختلاف الدول فى القوة والضعف (واعلم) ان تلك الافعال للاقدمين انها كانت بالهندام وباجتماع الفعلة وكثرة الايدى عليها فبذلك شيّدت تلك الهياكل والمصانع ولا تتوهم ما تتوهّمه العامّة ان ذلك لعظم اجسام الاقدمين عن اجسامنا فى اطرافها واقطارها فليس بين البشر فى ذلك كبير بون كما نجد بين الهياكل والآثار ولقد ولع القصاص بذلك وتغالوا فيه وسطروا عن عاد وثمود والعمالقة والكنعانيّين فى ذلك اخبارا عريقة فى الكذب من اغربها ما يحكون من عوج بن عناق رجل من العمالقة (1) الذين قاتلهم بنو اسرئيل فى الشام زعموا انه كان لطوله يتناول السمك من البحر ويشويه فى الشمس ويزيدون الى جهلهم باحوال البشر الجهل باحوال الكواكب لما اعتقدوا ان

(1) Man.A. et B. الكنعانين.

Digitized by Google

للشمس حرارة وانها شديدة فيما قرب منها ولا يعلمون ان
الحرّ هو الضوء وان الضوء فيما قرب من الارض اكثر لانعكاس
الاشعّة من سطح الارض بمقابلة الاضواء فتتضاعف الحرارة
هنا لاجل ذلك واذا جاوزت مطارح الاشعّة المنعكسه
فلا حرّ هنالك بل يكون فيه البرد حيث مجارى السحب
وانما الشمس فى نفسها لا حارّة ولا باردة انما هو جسم بسيط
مضئ لا مزاج له وكذلك عوج بن عناق هو فيما ذكروه
من العمالقة او من الكنعانيّين الذين كانوا فريسة بنى اسرائيل
عند فتحهم الشام واطوال بنى اسرائيل وجثمانهم لذلك
العهد قريب من هياكلنا تشهد لذلك ابواب بيت
المقدس فانها وان خربت وجدّدت لم تزل المحافظة على
اشكالها ومقادير ابوابها وكيف يكون التفاوت بين عوج
وبين اهل عصره بهذا المقدار وانما مثار غلطهم فى هذا
انهم استعظموا آثار الامم ولم يفهموا حال الدول فى الاجتماع
والتعاون وما يحصل بذلك وبالهندام من الآثار العظيمة
فصرفوه الى قوة الاجسام وشدّتها بعظم هياكلها وليس
الامر كذلك (وقد) زعم المسعودى ونقله من الفلاسفة
مزعما لا مستند له الا التحكّم وهو ان الطبيعة التى هى جبلّة
الاجسام لما براء الله الخلق كانت فى تمام الكثرة ونهاية
القوة والكمال فكانت الاعمار اطول والاجسام اقوى لكمال

Digitized by Google

تلك الطبيعة فان طروء الموت انّما هو بانحلال القوى
الطبيعيّة فاذا كانت قوية كانت الاعمار ازيد فكان العالم فى
اوليّة شأنه تام الاعمار كامل الاجسام ثم لم يزل يتناقص
لنقصان المادّة الى ان بلغ هذه الحال التى هو عليها ثم
لا يزال يتناقص الى وقت الانحلال وانقراض العالم وهذا رأى
لا وجه له الا التحكّم كما تراه وليس له علّة طبيعيّة ولا سبب
برهانىّ ونحن نشاهد مساكن الاوّلين ابوابهم وطرقهم فيما احدثوه
من البنيان والهياكل والديار والمساكن كديار ثمود المنحوتة
فى الصلد من الصخر بيوتا صغارا وابوابا ضيّقة وقد اشار
النبى صلى الله عليه الى انّها ديارهم ونهى عن استعمال
مياههم وطرح ما عجن به واهريق وقال لا تدخلوا مساكن
الذين ظلموا انفسهم الا ان تكونوا باكين ان يصيبكم ما
اصابهم وكذلك ارض عاد ومصر والشام وساير بقاع الارض
شرقا وغربا والحقّ ما قررناه (ومن) آثار الدول ايضا حالها
فى العراسة والولايم كما ذكرناه فى وليمة بوران وصنيع الحجاج
وابن ذى النون وقد مرّ ذلك كله (ومن) آثارها ايضا عطايا
الدول وانها تكون على نسبتها ويظهر ذلك فيها ولو اشرفت
على الهرم فان الهمم التى لاهل الدولة تكون على نسبة قوة
ملكهم وغلبهم للناس والهمم لا تزال مصاحبة لهم الى انقراض
الدولة واعتبر ذلك بجوايز ابن ذى يزن لوفد قريش كيف

Digitized by Google

اعطاهم من ارطال الذهب والفضة والاعبد والوصايف عشرا
عشرا ومن كرش العنبر واحدة واضعف ذلك بعشرة امثاله
لعبد المطلب وانما ملكه يومئذ قرارة اليمن خاصّة تحت
استبداد فارس وانّما حمله على ذلك همّة نفسه بما كان
لقومه التبابعة من الملك فى الارض والغلب على الامم فى
العراقين والهند والمغرب وكان الصنهاجيّون بافريقية ايضا
اذا اجازوا الوفد من امراء زناتة الوافدين عليهم فانّما يعطونهم
المال احمالا والكساء تخوتا مملوة والحملان جنايب (1)
عديدة (وفى) تاريخ ابن الرقيق من ذلك اخبار كثيرة
(وكذلك) كان عطاء البرامكة وجوايزهم ونفقاتهم وكانوا اذا
اكسبوا معدما فانما هو الملك والولاية والنعمة اخر الدهر
لا العطاء الذى يستنفده يوم او بعض يوم واخبارهم فى
ذلك كثيرة مسطورة وهى كلها على نسبة الدول جارية
(وهذا) جوهر الصقلبى الكاتب قايد جيش العبيديّين لما
ارتحل الى فتح مصر استعدّ من القيروان بالف حمل من
المال ولا تنتهى اليوم دولة الى مثل هذا (وكذلك) وجد
بخطّ احمد بن محمد بن عبد الحميد عمل بما يحمل الى
بيت المال ببغداذ ايام المامون من جميع النواحى ونقلته
من كتاب جراب الدولة (غلّات) السواد سبعة وعشرون

(1) Man. A. et B. حقايب.

Digitized by Google

الف الف درهم مكرّرة مرّتين وسبعماية الف درهم وثمانون
الف درهم (ابواب) المال بالسواد اربعة عشر الف الف درهم
مرّتين وثمان ماية الف درهم مرّة ومن الحلل النجرانيّة مايتا
حلّة (1) ومن طين الختم مايتان واربعون رطلا (كسكر)
احد عشر الف الف درهم مرّتين وستماية الف درهم مرّة
(كور دجلة) عشرون الف الف درهم مرّتين وثمان ماية الف
درهم مرّة (الاهواز) خمسة وعشرون الف الف درهم مرّة ومن
السكر ثلاثون الف رطل (فارس) سبعة وعشرون الف الف
درهم مرّتين ومن ماء الورد ثلثون الف قارورة ومن الزبيب (2)
الاسود عشرون الف رطل (كرمان) اربعة آلاف الف درهم
مرّتين ومايتا الف درهم مرّة ومن المتاع اليمانى خمسماية
ثوب ومن التمر عشرون الف رطل ومن الكمون الف رطل
(مكران) اربعماية الف درهم مرّة (السند) وما يليه احد عشر
الف الف درهم وخمسماية الف درهم مرّة ومن العود الهندى
ماية وخمسون رطلا (سجستان) اربعة آلاف الف درهم مرّتين
ومن الثياب المعتّبة ثلثماية ثوب ومن الفانيذ عشرون الف
رطل (خراسان) ثمانية وعشرون الف الف درهم مرّتين ومن
نقر الفضّة الفا نقرة (3) ومن البراذين اربعة آلاف دابّة ومن

(1) Le m. A. et le m. B. ajoutent ثنتان.
(2) Man. A. et B. الزيت.
(3) Man. A. et B. ajoutent اثنان.

Digitized by Google

PROLÉGOMÈNES d'Ebn-Khaldoun.

الرقيق الف راس ومن الثياب سبعة وعشرون الف ثوب
ومن الاهليلج ثلاثة آلاف رطل (جرجان) اثنا عشر الف الف
درهم مرّتين ومن الابريسم الف شقّة (قومس) الف الف درهم
مرّتين وخمسماية الف ومن نقر الفضّة الف (طبرستان)
والرويان ونهاوند ستّة آلاف الف درهم مرّتين وثلاثماية الف
ومن الفرش الطبرية ستماية قطعة ومن الاكسية مايتان ثنتان
ومن الثياب خمسماية ثوب ومن المناديل ثلاثماية ومن
الجامات ثلاثماية (الرى) اثنا عشر الف الف درهم مرّتين
ومن العسل عشرون الف رطل (همدان) احد عشر الف
الف درهم مرّتين وثمانماية الف درهم مرّة ومن رُبّ
الرمانين الف رطل ومن العسل اثنا عشر الف رطل (مابين)
البصرة والكوفة عشرة آلاف الف درهم وسبعماية الف درهم
(ماسبدان) والربان اربعة آلاف الف درهم مرّتين (شهرزور)
ستّة آلاف الف درهم مرّتين (الموصل) وما اليها اربعة
وعشرون الف الف درهم مرّتين ومن العسل الابيض
عشرون الف رطل (اذربيجان) اربعة آلاف الف درهم
مرّتين (الجزيرة) وما يليها من اعمال الفرات اربعة وثلاثون
الف الف درهم مرّتين (الكرج) ثلاثماية الف درهم مرّة
(كيلان) خمسة آلاف الف درهم مرّتين ومن الرقيق الف
راس ومن العسل اثنا عشر الف زقّ ومن البزاة عشرة ومن

Digitized by Google

الاكسية عشرون (ارمينية) ثلاثة عشر الف الف درهم مرّتين
ومن البسط المحفورة عشرون ومن الرقم خمسماية وثمانون
رطلا ومن المايح (1) السورماهى عشرة آلاف رطل ومن الطريح
عشرة آلاف رطل ومن البغال مايتان ثنتان ومن البزاة
ثلاثون (قنسرين) اربعماية الف دينار وعشرون الف دينار
ومن الزبيب الف حمل (دمشق) اربعماية الف دينار وعشرون
الف دينار (الاردن) ستة وتسعون الف دينار (فلسطين) ثلثماية
الف دينار وعشرة آلاف دينار ومن الزيت ثلثماية الف رطل
(مصر) الفا الف دينار اثنان مرّتين وتسعماية الف دينار
وعشرون الف دينار (برقة) الف الف درهم مرّتين (افريقية)
ثلاثة عشر الف الف درهم مرّتين ومن البسط ماية وعشرون
(اليمن) ثلثماية الف دينار وسبعون الف دينار سوى المتاع
(الحجاز) ثلثماية الف دينار (واما الاندلس) فالذى ذكره
الثقات من مورّخيها ان الناصر عبد الرحمن ثامن ملوك
بنى امية المتلقّب بلقب الخلافة ترك فى بيوت امواله
عند الوفاة خمسة آلاف الف دينار مكرّرة مرّتين يكون جملتها
بالقناطير خمسماية قنطار (ورايت) فى بعض تواريخ الرشيد ان
المحمول الى بيت المال فى ايامه سبعة آلاف قنطار من
دنانير الذهب وخمسماية قنطار فى كل سنة (واما دولة

(1) Man. A. المالح. man. D. المسابح.

Digitized by Google

PROLÉGOMÈNES d'Ebn-Khaldoun.

العبيديّين) فرايت فى تاريخ ابن خلكان عند ما ذكر
الافضل امير الجيوش بن بدر الجمالى المستبدّ على خلفايهم
بمصر انه لما قتل وجد فى خزانته ستماية الف الف
دينار مكرّرة مرّتين ومايتان وخمسون اردبا من الدراهم وما
يناسب ذلك من ذخاير الفصوص واللآلى والاقمشة والامتعة
والمراكب والحمولة (واما) هذه الدول الحادثة التى ادركناها
فاعظمها دولة الترك بمصر وكان استفحالها ايام الناصر
محمد بن قلاون منهم وغلب عليه لاول دولته الاميران
بيبرس وسلار ثم خلعه بيبرس واستبدّ بكرسيه وسلار
رديف له فلما انتزع الناصر الملك من يده ونكب بعد
مدّة رديفه سلار واستصفى ذخيرته فوقفت على جريدة
احصايها ومنها نقلت من الياقوت البرهمانى والبلخش
اربعة ارطال ونصف ومن الزمرد تسعة عشر رطلا ومن فصوص
الماس وعين الهرّ ثلثماية قطعة كبار ومن الفصوص المختلفة
رطلان ومن اللؤلؤ المدور من زنة مثقال الى وزن حبّة الف
وماية وخمسون حبّة ومن الذهب العين الف الف دينار
مكرّرة مرّتين واربعماية الف مرّة وفسقية مملوءة بالذهب
صبيبا واكياس مملوءة ذهبا استخرجت من بين حايطين
ولم يعلم عدّتها ومن الدراهم الفا الف اثنان مكرّرة مرّتين
واحد وسبعون الفا ومن الحلى المصاغ اربعة قناطير الى ما

Digitized by Google

يناسب ذلك من الاقمشة والامتعة والمراكب والظهر والغلال
والسايمة والمماليك والجوارى والعقار (وبعدها) دولة بنى
مرين بالمغرب الاقصى ووقفت على جريدة فى خزانة
ملوكهم بخطّ صاحب المال عندهم حسون بن البواق ان
مخلف السلطان ابى سعيد ببيت ماله سبعماية قنطار
ونيف من دنانير الذهب وفى موجوده مما سوى ذلك ما
يناسبه وكان السلطان ابى الحسن ابنه من بعده اكثر من
ذلك (ولما) استولى على تلمسان وجد فى ذخاير سلطانها
ابى تاشفين من ملوك بنى عبد الواد ثلثماية قنطار ونيف
من الذهب ما بين مسكوك ومصوغ الى ما يناسب ذلك
ممّا سواه (واما) ملوك افريقية الموحدين فادركت السلطان
ابا بكر تاسع ملوكهم وقد نكب قايده واتابك عساكره
محمد بن الحكيم فاستصفى منه اربعين قنطارا من دنانير
الذهب ومدّ من الفصوص واللالى ونهب من فرش بيوته
قريب من ذلك الى ما يناسب ذلك من ساير المتملكات
(وحضرت) بمصر ايام الملك الظاهر ابى سعيد برقوق وقد
نكب استداداره الامير محمود وصادره فاخبرنى متولّى
مصادرته ان مبلغ ما استصفى منه من الذهب الف الف
دينار مكرّرة مرّتين وستماية الف الف دينار مرّة واما ما سوى
ذلك من الاقمشة والمراكب والانعام والغلال والظهر فعلى

Digitized by Google

نسبة ذلك (فاعتبر) ذلك فى نسبة الدول بعضها الى
بعض ولا تنكرن ما ليس بمعهود عندك ولا فى عصرك
شى من امثاله فتضيق حوصلتك عن ملتقط الممكنات
فكثير من الخواص اذا سمعوا امثال هذه الاخبار عن الدول
السالفة بادر بالانكار وليس ذلك من الصواب فان احوال
الوجود والعمران متفاوتة ومن ادرك منها رتبة سفلى او
وسطى فلا يحصر المدارك كلها فيها ونحن اذا اعتبرنا ما
ينقل لنا عن دولة بنى العباس وبنى امية والعبيديّين
وقايسنا الصحيح من ذلك والذى لا نشكّ فيه بالذى
نشاهده من هذه الدول التى هى اقلّ بالنسبة اليها وجدنا
بينها بونا وهو لما بينها من التفاوت فى اصل قوتها وعمران
ممالكها فالآثار كلها جارية على نسبة الاصل فى القوة كما
قدّمناه ولا يسعنا انكار ذلك عنها اذ كثير من هذه الاحوال
فى غاية الشهرة والوضوح بل فيها ما يلحق بالمستفيض
والمتواتر وفيها المعاين والمشاهد من آثار البناء وغيره فنحذ (1)
من الاحوال المنقولة مراتب الدول فى قوتها او ضعفها
وضخامتها وصغرها واعتبر ذلك بما نقصّه عليك من هذه
الحكاية المستظرفة وذلك انه ورد على المغرب لعهد
السلطان ابى عنان من ملوك بنى مرين رجل من مشيخة

(1) Man. A. et B. فحد. D. يتخذ.

Digitized by Google

طنجة يعرف بابن بطوطة كان رحل منذ عشرين سنة قبلها
الى المشرق وتقلّب فى بلاد العراق واليمن والهند ودخل
مدينة دلى حاضرة ملك الهند واتصل بملكها لذلك
العهد وهو السلطان محمد شاه وكان له منه
مكان واستعمله فى خطّة القضاء بمذهب المالكية فى
عمله ثم انقلب الى المغرب واتّصل بالسلطان ابى عنان
وكان يحدث عن شأن رحلته وما راى من العجايب
بممالك الارض واكثر ما كان يحدث عن دولة صاحب
الهند وياتى من احواله بما يستغربه السامعون مثل ان
ملك الهند اذا خرج للسفر احصى اهل مدينته من الرجال
والنساء والولدان وفرض لهم رزق ستة اشهر تدفع لهم من
عطايه وانه عند رجوعه من سفره يدخل فى يوم مشهود
يبرز فيه الناس كافة الى صحراء البلد ويطوفون به وينصب
امامه فى ذلك المحفل منجنيقات على الظهر يرمى بها
شكاير الدراهم والدنانير على الناس الى ان يدخل ايوانه وامثال
هذه الحكايات فتناجى الناس فى الدولة بتكذيبه ولقيت
انا يومئذ فى بعض الايام وزير السلطان فارس بن ودرار
البعيد الصيت ففاوضته فى هذا الشان واريته انكار اخبار
ذلك الرجل لما استفاض فى الناس من تكذيبه فقال
الوزير فارس اياك ان تستنكر مثل هذا من احوال الدول

Digitized by Google

بما انك لم تره فتكون كابن الوزير الناشئ فى السجن
وذلك ان وزيرا اعتقله سلطانه ومكث فى السجن سنين
ربى فيها ابنه فى ذلك المحبس فلما ادرك
وعقل سأل عن اللحمان التى كان يغتذى بها فاذا قال له
ابوه هذا لحم الغنم يقول وما الغنم فيصفها له ابوه بشياتها
ونعوتها فيقول يا ابت تراها مثل الفار فينكر عليه فيقول اين
الغنم من الفار وكذا فى لحم البقر والابل اذ لم يعاين فى
محبسه الا الفار فيحسبها كلها ابناء جنس للفار وهذا كثيرا
ما يعترى الناس فى الاخبار كما يعتريهم الوسواس فى الزيادة
عند قصد الاغراب كما قدّمناه اول الكتاب فليرجع الانسان
الى اصوله وليكن مهيمنا على نفسه ومميّزا بين طبيعة الممكن
والممتنع بصريح عقله ومستقيم فطرته فما دخل فى نطاق
الامكان قبله وما خرج عنه رفضه وليس مرادنا الامكان العقلى
المطلق فان نطاقه اوسع شئ فلا يفرض حدّا بين الواقعات
وانّما مرادنا الامكان بحسب المادّة التى للشئ فاذا نظرنا
اصل الشئ وجنسه وفصله ومقدار عظمه وقوته اجرينا الحكم
فى (1) نسبة ذلك على احواله وحكمنا بالامتناع على ما خرج
من نطاقه وقل ربّ زد لى علما

(1) Man. C. et D. من.

Digitized by Google

فصل فى استظهار صاحب الدولة على قومه واهل عصبيّته بالموالى والمصطنعين

اعلم ان صاحب الدولة انّما يتمّ امره كما قلناه بقومه فهم عصابته وظهراوه على شأنه وبهم يقارع الخوارج على دولته ومنهم يقلّد اعمال مملكته ووزارة دولته وجباية امواله لانّهم اعوانه على الغلب وشركاوه فى الامر ومساهموه فى ساير مهمّاته هذا ما دام الطور الاول للدولة كما قلناه فاذا جاء الطور الثانى وظهر الاستبداد عنهم والانفراد بالمجد ودافعهم عنه بالراح صاروا فى حقيقة الامر من بعض اعدايه واحتاج فى مدافعتهم عن الامر وصدّهم عن المشاركة الى اولياء اخرين من غير جلدتهم يستظهر بهم عليهم ويتولّاهم دونهم فيكونون اقرب عليه من سايرهم واخصّ به قربا واصطناعا واولى ايثارا وجاها لما انهم يستميتون دونه فى مدافعة قومه عن الامر الذى كان لهم والرتبة التى الفوها فى مشاركتهم فيستخلصهم صاحب الدولة حينئذ ويخصّهم بمزيد التكرمة والايثار ويقسم لهم ما للكثير من قومه ويقلّدهم جليل الاعمال والولايات من الوزارة والقيادة والجباية وما يختصّ به لنفسه ويكون خالصة له دون قومه من القاب المملكة لانهم حينئذ اولياء الاقربون ونصحاوه المخلصون وذلك حينئذ

موذن باهتضام الدولة وعلامة على المرض المزمن فيها لفساد العصبيّة التى كان بناء الغلب عليها ومرض قلوب اهل الدولة حينئذ من الامتهان وعداوة السلطان فيضطغنون عليه ويتربّصون به الدواير ويعود وبال ذلك على الدولة ولا يطمع فى برئها من هذا الداء لانه ما مضى يتأكّد فى الاعقاب الى ان يذهب رسمها واعتبر ذلك فى دولة بنى امية كيف كانوا يستظهرون فى حروبهم وولاية اعمالهم برجال العرب مثل عمرو بن سعد بن ابى وقاص وعبيد الله بن زياد بن ابى سفيان والحجاج ابن يوسف والمهلب بن ابى صفرة وخالد بن عبد الله القسرى وابى هبيرة وموسى ابن نصير وبلال بن ابى بردة بن ابى موسى الاشعرى ونصر بن سيار وامثالهم من رجالات العرب فلما صارت الدولة للانفراد بالمجد وكبح العرب عن التطاول للولايات صارت الوزارة للعجم والصنايع من البرامكة وبنى سهل بن نوبخت وبنى طاهر ثم بنى بويه وموالى الترك مثل بغا ووصيف واتامش وباكياك وابن طولون وابنائهم وغير هولاء من موالى العجم فتصير الدولة لغير من مهدها والعزّ لغير من اجتلبه سنّة الله فى عباده

Digitized by Google

فصل فى احوال الموالى والمصطنعين فى الدول

علم ان المصطنعين فى الدول يتفاوتون فى الدولة بتفاوت قديمهم وحديثهم فى الالتحام بصاحبها والسبب فى ذلك ان المقصود فى العصبيّة من المدافعة والمغالبة انما يتمّ بالنسب لاجل التناصر فى ذوى الارحام والقربى والتخاذل فى الاجانب والبعدا كما قدمناه والولاية والمخالطة بالرقّ او بالحلف تتنزّل منزلة ذلك لان امر النسب وان كان طبيعيّا فانما هو وهمّى والمعنى كان به الالتحام انما هو العشرة والمرافقة وطول الممارسة والصحبة بالمربا والرضاع وساير احوال الموت والحياة واذا حصل الالتحام بذلك جاءت النعرة والتناصر وهذا مشاهد بين الناس واعتبر فى الاصطناع فانه يحدث بين المصطنع ومن اصطنعه نسبة خاصّة من الوصلة تتنزّل هذه المنزلة وتوكد اللحمة وان لم يكن نسبيا فثمرات النسب موجودة فان كانت الولاية بين القبيل وبين اوليائهم قبل حصول الملك لهم كانت عروقها اوشج وعقايدها اصحّ ونسبها اصرح لوجهين احدهما انهم قبل الملك اسوة فى حالهم فلا يتميّز النسب عن الولاية الا عند الاقلّ منهم فينزلون منهم منزلة ذوى قرباهم واهل ارحامهم واذا اصطنعوهم بعد الملك كانت مرتبة الملك مميّزة للسيّد

Digitized by Google

عن الموالى ولاهل القرابة عن اهل الولاية والاصطناع لما تقتضيه
احوال الرياسة والملك من تميّز الرتب وتفاوتها فتتميّز
حالاتهم ويتنزلون منزلة الاجانب ويكون الالتحام بينهم
اضعف والتناصر لذلك ابعد وذلك انقص من الاصطناع
قبل الملك الوجه الثانى ان الاصطناع قبل الملك يبعد
اهله عن الدولة بطول الزمن ويخفى شأن تلك اللحمة
ويظنّ بها فى الاكثر النسب فيقوى حال العصبيّة واما
بعد الملك فيقرب العهد ويستوى فى معرفته الاكثر فتتبيّن
اللحمة وتتميّز عن النسب فتضعف العصبيّة بالنسبة الى
الولاية التى كانت قبل الدولة واعتبر ذلك فى الدول
والرياسات تجده فكل من كان اصطناعة قبل حصول
الرياسة والملك لمصطنعه تجده اشدّ التحاما به واقرب
قرابة اليه ويتنزّل منه منزلة ابنايه واخوانه وذوى رحمه ومن
كان اصطناعه بعد حصول الملك والرياسة لمصطنعه لا يكون
له من القرابة واللحمة ما للاوّلين وهذا مشاهد بالعيان حتى
ان الدولة فى آخر امرها ترجع الى استعمال الاجانب
واصطناعهم ولا ينبنى لهم مجد كما بناه المصطنعون قبل
الدولة لقرب العهد حينئذ باوّليتهم واشراف (1) الدولة على
الانقراض فيكونون منحطّين فى مهاوى الضعة وانما يحمل

(1) Man. C. et D. مشارفة.

Digitized by Google

صاحب الدولة على اصطناعهم والعدول اليهم عن اوليائهم الاقدمين وصنائعها الاولين ما يعتريهم فى انفسهم من العزّة على صاحب الدولة وقلّة الخضوع له ونظره بما ينظره قبيله واهل نسبه لتاكّد اللحمة منذ العصور المتطاولة بالمربى والاتّصال بآبائه وسلف قومه والانتظام مع كبراء اهل بيته فيحصل لهم بذلك دالة عليه واعتزاز فينافرهم بسببها صاحب الدولة ويعدل عنهم الى استعمال سواهم ويكون عهد استخلاصهم واصطناعهم قريبا فلا يبلغون رتب المجد ويبقون على حالهم من الخارجيّة وهكذا شأن الدول فى اواخرها واكثر ما يطلق اسم الصنايع والاولياء على الاولين واما هولاء المحدثون فخدم واعوان والله ولىّ المومنين

فصل فيما يعرض فى الدول من حجر السلطان والاستبداد عليه

اذا استقرّ الملك فى نصاب معيّن ومنبت واحد من القبيل القايمين بالدولة وانفردوا به ودفعوا ساير القبيل عنه وتداوله بنوهم واحد بعد واحد بحسب الترشيح فربّما حدث التغلّب على المنصب من وزرائهم وحاشيتهم وسببه فى الاكثر ولاية صبى صغير او مضعف من اهل المنبت (1) يترشّح للولاية بعد ابيه او يترشّح ذويه وخوله ويونس منه العجز

(1) Man. D. البيت.

Digitized by Google

عن القيام بالملك فيقوم به كافله من وزراء ابيه او حاشيته
ومواليه او قبيله ويورى بحفظ امره عليه حتى يونس منه
الاستبداد ويجعل ذلك ذريعة للملك فيحجب الصبى عن
الناس ويعوّده اللذّات التى يدعوه اليها ترف احواله ويسيمه
فى مراعيها متى امكنه وينسّيه النظر فى الامور السلطانيّة
حتى يستبدّ عليه وهو بما عوّده يعتقد ان حظّ السلطان من
الملك انما هو جلوس السرير واعطاء الصفقة وخطاب
التمويل والقعود مع النساء خلف الحجاب وان الحلّ والعقد
والامر والنهى ومباشرة الاحوال الملوكيّة وتفقّدها من النظر
فى الجيش والمال والثغور انّما هو للوزير ويسلم له فى ذلك
الى ان تستحكم له صبغة الرياسة والاستبداد ويتحوّل الملك
اليه ويورثه عشيرته وابناءه من بعده كما وقع لبنى بويه
والترك وكافور الاخشيدى وغيرهم بالمشرق وللمنصور ابن
ابى عامر بالاندلس وقد يتفطّن ذلك المحجور المغلب
لشانه فيحاول على الخروج من ربقة الحجر والاستبداد ويرجع
الملك الى نصابه ويضرب على يد المتغلّب عليه اما بقتل
او بدفع عن الرتبة فقط الا ان ذلك فى النادر الاقلّ لان
الدولة اذا اخذت فى تغلّب الوزراء والاولياء استمرّ لها ذلك
وقلّ ان تخرج عنه لان ذلك انّما يوجد فى الاكثر عن
احوال الترف ونشاءة ابناء الملك منغمسين فى نعيمه قد

Digitized by Google

نسوا عهد الرجوليّة والفوا اخلاق الدايات والاظار وربوا عليها فلا ينزعون الى رياسة ولا يعرفون استبداد من تغلّب انها هممهم فى (1) القنوع بالابهة والتفنّن فى اللذّات وانواع الترف وهذا التغلّب يكون للموالى والمصطنعين عند استبداد عشير الملك على قومهم وانفرادهم به دونهم وهو عارض للدولة ضرورىّ كما قدّمناه وهذان مرضان لا برء للدولة منهما الا فى الاقلّ النادر والله يوتى ملكه من يشاء

فصل فى ان المتغلّبين على السلطان لا يشاركونه فى اللقب الخاصّ بالملك

وذلك ان الملك والسلطان حصل لاوليه منذ اول الدولة بعصبيّة قومه وعصبيّته التى استتبعتهم حتى استحكمت له ولقومه صبغة الملك والغلب وهى لم تزل باقية وبها انحفظ رسم الدولة وبقاوها وهذا المتغلّب وان كان صاحب عصبيّة من قبيل الملك او الموالى والصنايع فعصبيّة مندرجة فى عصبية اهل الملك وتابعة لها وليس لها صبغة فى الملك وهو لا يحاول باستبداده انتزاع الملك ظاهرا وانّما يحاول انتزاع ثمراته من الامر والنهى والحلّ والعقد والابرام والنقض يوهم بذلك اهل الدولة انه متصرّف عن سلطانه منفذ فى

(1) Man. A. et B. هممهم القنوع.

Digitized by Google

ذلك من وراء الحجاب لاحكامه فهو يتجافى عن سمات الملك وشاراته والقابه جهده ويبعد نفسه عن التهمة بذلك وان حصل له الاستبداد لانه مستتر فى استبداده ذلك بالحجاب الذى ضربه السلطان واولوه على انفسهم من القبيل مذ اول الدولة ومغالط عنه بالنيابة ولو تعرّض لشئ من ذلك لنفسه غلبه اهل العصبيّة وقبيل الملك وحاولوا الاستيثار به دونه لانه لم يستحكم له صبغة فى ذلك تحملهم على التسليم له والانقياد فيهلك لاول وهلة وقد وقع مثل هذا لعبد الرحمن بن المنصور بن ابى عامر حين سما الى مشاركة هشام واهل بيته فى لقب الخلافة ولم يقنع بما قنع ابوه واخوه من الاستبداد بالحلّ والعقد والمراسم التابعة فطلب من هشام خليفته ان يعهد له بالخلافة فنقم ذلك عليه بنو مروان وساير قريش وبايعوا لابن عمّ الخليفة هشام ابن محمد بن عبد الجبّار بن الناصر وخرجوا عليهم وكان فى ذلك خراب دولة العامريّين وهلاك المؤيد خليفتهم واستبدل منه بسواه من اعياص الدولة الى آخرها واختلّت مراسم ملكهم والله خير الوارثين

فصل فى حقيقة الملك واصنافه

الملك منصب طبيعى للانسان لانا قد بيّنا ان البشر

Digitized by Google

لا يمكن حياتهم ووجودهم الّا باجتماعهم وتعاونهم على تحصيل
قوتهم وضروراتهم واذا اجتمعوا دعت الضرورة الى المعاملة
واقتضاء الحاجات ومدّ كل واحد منهم يده الى حاجته
ياخذها لما فى الطبيعة الحيوانيّة من الظلم والعدوان بعضهم
على بعض ويمانعه الاخر عنها بمقتضى الغضب والانفة
ومقتضى القوة البشرية فى ذلك فيقع التنازع المفضى
الى المقاتلة وهى تودى الى الهرج وسفك الدماء واذهاب
النفوس المفضى ذلك الى انقطاع وهو ممّا خصّه البرئ
تعالى بالمحافظة فاستحال بقاوهم فوضى دون حاكم يزع
بعضهم عن بعض واحتاجوا من اجل ذلك الى الوازع وهو
الحاكم عليهم وهو بمقتضى الطبيعة البشرية الملك القاهر
المتحكّم ولا بدّ فى ذلك من العصبيّة لما قدّمناه من ان
المطالبات كلها والمدافعات لا تتمّ الا بالعصبيّة وهذا
الملك كما تراه منصب شريف يتوجّه نحوه الطلبات
ويحتاج الى المدافعات ولا يتمّ شئ من ذلك الا بالعصبيّات
كما مرّ والعصبيّات متفاوتة وكل عصبيّة فلها تحكّم وتغلّب
على من يليها من قومها وعشيرتها وليس الملك لكل عصبيّة
وانّما الملك على الحقيقة لمن يستعبد الرعيّة ويجبى الاموال
ويبعث البعوث ويحمى الثغور ولا يكون فوق يده يد قاهرة
وهذا معنى الملك وحقيقته فى المشهور فمن قصرت به

Digitized by Google

عصبيّته عن بعضها مثل حماية الثغور وجباية الاموال او بعث البعوث فهو ملك ناقص لم تتمّ حقيقته كما وقع لكثير من ملوك البربر فى دولة الاغالبة بالقيروان ولملوك العجم صدر الدولة العباسيّة ومن قصرت به عصبيّته ايضا من لاستعلاء على جميع العصبيّات والضرب على ساير الايدى وكان فوقه حكم غيره فهو ملك ناقص لم تتمّ حقيقته وهولاء مثل امراء النواحى وروساء الجهات الذين تجمعهم دولة واحدة وكثيرا ما يوجد هذا فى الدول المتّسعة النطاق اعنى يوجد ملوك على قومهم فى النواحى القاصية يدينون بطاعة الدولة التى جمعتهم مثل صنهاجة مع العبيديّين وزناتة مع الامويّين تارة والعبيديّين اخرى ومثل ملوك العجم فى دولة بنى العباس ومثل امراء البربر وملوكهم مع الافرنجة قبل الاسلام ومثل ملوك الطوايف من الفرس مع الاسكندر وقومه اليونانيّين وكثير من هولاء فاعتبره تجده والله القاهر فوق عباده

فصل فى ان ارهاف الحدّ مضرّ بالملك ومفسد له فى الاكثر

اعلم ان مصلحة الرعية فى السلطان ليست فى ذاته وجسمه من حسن شكله او ملاحة وجهه او عظم جثمانه او اتّساع

Digitized by Google

علمه او جودة خطّه او ثقوب ذهنه انّما مصلحتهم فيه من حيث اضافته اليهم فان الملك والسلطان من الامور الاضافيّة وهى نسبة بين متنسبين فحقيقة السلطان انه المالك للرعيّة القايم بامورهم عليهم فالسلطان من له رعيّة والرعيّة من لها سلطان والصفة التى له من حيث اضافته اليهم هى التى تسمى الملكة وهى كونه يملكهم فاذا كانت هذه الملكة وتوابعها بمكان من الجودة حصل المقصود من السلطان على اتمّ الوجوه فانها ان كانت جميلة صالحة كان ذلك مصلحة لهم فان كانت سيّئة متعسّفة كان ذلك ضررا عليهم وهلاكا لهم ويعود حسن الملكة الى الرفق فان الملك اذا كان قاهرا باطشا بالعقوبات منقبا عن عورات الناس وتعديد ذنوبهم شملهم الخوف والذلّ ولاذوا منه بالكذب والمكر والخديعة فتخلّقوا بها وفسدت بصايرهم واخلاقهم وربّما خذلوه فى مواطن الحرب والمدافعات ففسدت الحماية بفساد النيات وربّما اجمعوا قتله لذلك فتفسد الدولة ويخرب السياج وان دام امره عليهم وقهره فسدت العصبيّة بما قلناه اولا ففسد السياج من اصله بالعجز عن الحماية واذا كان رفيقا بهم متجاوزا عن سيّئاتهم استناموا اليه ولاذوا به واشربوا محبّته واستماتوا دونه فى محاربة اعدائه فاستقام الامر من كل جانب (واما) توابع

Digitized by Google

PROLÉGOMÈNES d'Ebn-Khaldoun.

حسن الملكة فهى النعمة عليهم والمدافعة عنهم فالمدافعة بها
تتمّ حقيقة الملك وامّا النعمة عليهم والاحسان لهم فمن
جملة الرفق بهم والنظر لهم فى معاشهم وهى اصل كبير
فى التحبّب الى الرعية واعلم انه قل ما تكون ملكة الرفق
فيمن يكون يقظا شديد الذكاء من الناس فاكثر ما يوجد
الرفق فى الغفل او المتغفّل واقل ما فى اليقظ انه يكلّف الرعية
فوق طاقتهم لنفوذ نظره فيما وراء مداركهم واطّلاعه على عواقب
الامور فى مباديها بالهمّة فيهلكون لذلك قال صلى الله
عليه وسلم سيروا على سير اضعفكم (ومن) هذا الباب اشترط
الشارع فى الحاكم قلة الذكاء وماخذه من قصّة زياد بن
ابى سفيان لما عزله عمر عن العراق وقال عزلتنى يا امير
المومنين أَلعجز ام لخيانة فقال له عمر لم اعزلك لواحدة
منهما ولكن كرهت ان احمل فضل عقلك على الناس
فاخذ من هذا ان الحاكم لا يكون مفرط الذكاء والكيس مثل
زياد ابن ابى سفيان وعمرو بن العاصى لما يتبع ذلك من
التعسّف وسوء الملكة وحمل الوجود على ما ليس فى
طبيعته كما ياتى فى آخر هذا الكتاب والله خير المالكين
وتقرّر من هذا ان الكيس والذكاء عيب فى صاحب السياسة
لانه افراط فى الفكر كما ان البلادة افراط فى الجمود والطرفان
مذمومان من كل صفة انسانيّة والمحمود هو التوسّط كما فى

Digitized by Google

الكرم مع التبذير والبخل وكما فى الشجاعة مع الهوج والجبن وغير ذلك من الصفات الانسانيّة وبهذا يوصف الشديد الكيس بصفات الشيطان فيقال شيطان ومُتَشَيْطِن وامثال ذلك والله يخلق ما يشاء

فصل فى معنى الخلافة والامامة

لما كانت حقيقة الملك انه الاجتماع الضرورىّ للبشر ومقتضاه التغلّب والقهر اللذان هما من آثار الغضب والحيوانية كانت احكام صاحبه فى الغالب جايرة عن الحقّ مجحفة بمن تحت يده من الخلق فى احوال دنياهم لحمله اياهم فى الغالب على ما ليس فى طوقهم من اغراضه وشهواته ويختلف ذلك باختلاف المقاصد من الخلق والسلف منهم فتعسر طاعته لذلك وتجئ المعصية المفضية الى الهرج والقتل فوجب ان يرجع فى ذلك الى قوانين سياسيّة مفروضة يسلمها الكافة وينقادون الى احكامها كما كان ذلك للفرس وغيرهم من الامم واذا خلت الدولة من (1) مثل هذه السياسة لم يستتب امرها ولا يتمّ استيلاوها سنّة الله فى الذين خلوا من قبل فاذا كانت هذه القوانين مفروضة من العقلاء واكابر الدولة وبصايرها كانت سياسة عقليّة واذا كانت مفروضة من الله سبحانه وتعالى بشارع يقرّرها ويشرعها كانت سياسة دينيّة

(1) Man. A. اختلت الدولة فى. B. اختلقت.

Digitized by Google

نافعة فى الحياة الدنيا والآخرة وذلك ان الخلق ليس
المقصود بهم دنياهم فقط فانها كلها عبث وباطل اذ غايتها
الموت والفناء والله تعالى يقول افحسبتم انّما خلقناكم عبثا
فالمقصود بهم انما هو دينهم المفضى بهم الى السعادة فى
آخرتهم صراط الله الذى له ما فى السموات وما فى الارض
فجاءت الشرايع تحملهم على ذلك فى جميع احوالهم
من عبادة ومعاملة حتّى فى الملك الذى هو طبيعىّ
للاجتماع الانسانى فاجرته على منهج الدين ليكون الكل
محوطا بنظر الشرع فما كان منه بمقتضى القهر والتغلّب
واهمال القوة الغضبيّة فى مرعاها فجور وعدوان ومذموم عنده
كما هو فى مقتضى الحكمة السياسيّة وما كان منه بمقتضى
السياسة واحكامها من غير نظر الشرع فمذموم ايضا لانه
نظر بغير نور الله ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور
لان الشارع اعلم بمصالح الكافة فيما هو مغيب عنهم من
امور آخرتهم واعمال البشر كلها عايدة عليهم فى معادهم من
ملك او غيره قال صلى الله عليه وسلم انما هى اعمالكم
ترد عليكم واحكام السياسة انما تطلع على مصالح الدنيا فقط
يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا ومقصود الشارع بالناس صلاح
آخرتهم فوجب بمقتضى الشرايع حمل الكافة على الاحكام
الشرعيّة فى احوال دنياهم وآخرتهم وكان هذا الحكم لاهل

Digitized by Google

الشريعة وهم الانبياء ومن قام مقامهم وهم الخلفاء فقد تبيّن لك من ذلك معنى الخلافة وان الملك طبيعىّ هو حمل الكافة على مقتضى الغرض والشهوة والسياسىّ هو حمل الكافة على مقتضى النظر العقلىّ فى جلب المصالح الدنيويّة ودفع المضارّ والخلافة هى حمل الكافة على مقتضى النظر الشرعى فى مصالحهم الاخرويّة والدنيويّة الراجعة اليها اذ احوال الدنيا ترجع كلها عند الشارع الى اعتبارها بمصالح الآخرة فهى فى الحقيقة نيابة عن صاحب الشرع فى حراسة الدين وسياسة الدنيا به فافهم ذلك واعتبره فيما نورده عليك من بعد والله الحكيم العليم

فصل فى اختلاف الامّة فى حكم الخلافة وشروطها

واذ قد بيّنّا حقيقة هذا المنصب وانه نيابة عن صاحب الشريعة فى حفظ الدين وسياسة الدنيا به ويسمى خلافة وامامة والقايم به خليفة واماما وسمّاه المتاخّرون سلطانا حين فشا التعدّد فيه واضطرّوا بالتباعد وفقدان شروط المنصب الى عقد البيعة لكل متغلّب فاما تسميته اماما فتشبيها بامام الصلاة فى اتباعه والاقتداء به ولهذا يقال الامامة الكبرى واما تسميته خليفة فلكونه يخلف النبى فى امّته فيقال خليفة باطلاق وخليفة رسول الله واختلف فى تسميته خليفة الله فاجازه

Digitized by Google

بعضهم اقتباسا من الخلافة العامّة التى للادميّين فى قوله
تعالى انّى جاعل فى الارض خليفة وقوله جعلكم خلايف
الارض ومنع الجمهور منه لانّ معنى الاية ليس عليه وقد
نهى ابو بكر لما دعى به وقال لست خليفة الله ولكنّى
خليفة رسول الله ولان الاستخلاف انّما هو فى حقّ الغايب
واما الحاضر فلا (ثم) ان نصب الامام واجب قد عرف
وجوبه من الشرع باجماع الصحابة والتابعين لان اصحاب
رسول الله صلى الله عليه وسلم عند وفاته بادروا الى بيعة
ابى بكر رضى الله عنه وتسليم النظر اليه فى امورهم وكذا
فى كلّ عصر بعد ذلك ولم يترك الناس فوضى فى
عصر من الاعصار واستقرّ ذلك اجماعا دالّا على وجوب
نصب الامام وقد ذهب بعض الناس الى ان مدرك وجوبه
العقل وان الاجماع الذى وقع فانّما هو قضاء بحكم العقل
فيه قالوا وانّما وجب بالعقل لضرورة الاجتماع للبشر واستحالة
حياتهم ووجودهم متفرّدين ومن ضرورة الاجتماع التنازع
لازدحام الاغراض فما لم يكن الحاكم الوازع افضى ذلك
الى الهرج المؤذن بهلاك البشر وانقطاعهم مع ان حفظ
النوع من مقاصد الشرع الضروريّة وهذا المعنى بعينه هو الذى
لحظ الحكماء فى وجوب النبوات فى البشر وقد نبّهنا على
فساده وان احدى مقدّماته ان الوازع انّما يكون بشرع من

Digitized by Google

الله تسلم له الكافة تسليم ايمان واعتقاد وهو غير مسلم لان الوازع قد يكون بسطوة الملك وقهر الشوكة ولو لم يكن شرع كما فى امم المجوس وغيرهم ممن ليس له كتاب او لم تبلغه الدعوة او نقول يكفى فى رفع التنازع معرفة كل واحد بتحريم الظلم عليه بحكم العقل فادّعاوهم ان ارتفاع النزاع انّما يكون بوجود الشرع هناك ونصب الامام هنا غير صحيح بل كما يكون بنصب الامام يكون بوجود الروساء اهل الشوكة او بامتناع الناس عن التنازع والتظالم فلا ينتهض دليلهم العقلىّ المبنى على هذه المقدّمة فدلّ على ان مدرك وجوبه انّما هو بالشرع وهو الاجماع الذى قدّمناه وقد شذّ بعض الناس فقال بعدم وجوب هذا المنصب رأسا لا بالعقل ولا بالشرع منهم الاصم من المعتزلة وبعض الخوارج وغيرهم والواجب عند هولاء امضاء احكام الشرع فاذا تواطأت الامّة على العدل وتنفيذ احكام الله لم تحتج الى امام ولا يجب نصبه وهولاء محجوجون بالاجماع والذى حملهم على هذا المذهب انّما هو الفرار عن الملك ومذاهبه من الاستطالة والتغلب والاستمتاع بالدنيا لما راوا الشريعة ممتلئة بذمّ ذلك والنعى على اهله ومرغبة فى رفضه (واعلم) ان الشرع لم يذمّ الملك لذاته ولاحظر القيام به وانّما ذمّ المفاسد الناشئة عنه من القهر والظلم والتمتّع باللذات ولا شكّ فى ان هذه مفاسد محظورة

Digitized by Google

وهى من توابعه كما اثنى على العدل والنصفة واقامة مراسم الدين والذبّ عنه واوجب بازايها الثواب وهى كلها من توابع الملك فاذن انّها وقع الذمّ للملك على صفة وحال دون اخرى ولم يذمّه لذاته ولا طلب تركه كما ذمّ الشهوة والغضب من المكلفين وليس مراده تركهما بالكلّيّة لداعية الضرورة اليهما وانّما المراد تصريفهما على مقتضى الحقّ وقد كان لداود وسليمان صلوات الله عليهما الملك الذى لم يكن لغيرهما وهما من انبياء الله واكرم الخلق عنده ثم نقول لهم ان هذا الفرار عن الملك بعدم وجوب هذا المنصب لا يغنيكم شيئا فانكم موافقون على وجوب اقامة احكام الشريعة وذلك لا يحصل الا بالعصبيّة والشوكة والعصبيّة مقتضية بطبعها للملك فيحصل الملك ولو لم ينصب امام وهو عين ما فررتم عنه واذا تقرّر ان هذا المنصب واجب بالاجماع فهو من فروض الكفاية وراجع الى اختيار اهل الحلّ والعقد فيتعيّن عليهم نصبه وتجب على الخلق جميعا طاعته لقوله تعالى اطيعوا الله والرسول واولى الامر منكم ولا يجوز عقد هذا المنصب لاثنين معا وعليه جمهور العلماء وقوفا مع ظواهر الاحاديث التى دلّت على ذلك فى صحيح مسلم في كتاب الامارة منه وذهب اخرون الى ان ذلك انما هو فى البلد الواحد او فى حال تقاربهما

Digitized by Google

واما عند التباعد وقصور الامام عن البلد الشاسع فيجوز
نصب اخر هنالك للقيام بالمصالح ومن المشاهير الذين
نقل عنهم ذلك الاستاذ ابو اسحق الاسفراينى شيخ المتكلّمين
ومال اليه امام الحرمين فى كتاب الارشاد وربّما يظهر من
آراء الاندلسيّين والمغاربة الجنوح الى ذلك فقد كان العلماء
بالاندلس متواقرين وبايعوا لبنى امية ولقبوا الناصر عبد الرحمن
منهم وابناءه بامير المومنين التى هى سمة الخلافة كما ياتى
وكذا الموحدون بعدهم بالمغرب وقد ردّ بعضهم ذلك
بالاجماع وهو غير ظاهر اذ لو كان هناك اجماع لم يخالفه
الاستاذ ابو اسحق ولا امام الحرمين فهم اقعد بمعرفة الاجماع
نعم ردّ على الامام المازرى والنووى وقوفا مع ظواهر الاحاديث
كما قلناه وربّما احتجّ لذلك بعض المتاخرين بدليل التمانع
الذى فى التنزيل وهو قوله تعالى لو كان فيهما آلهة الا الله
لفسدتا ولا ينهض الاستدلال على ذلك بالاية الكريمة لان
دلالتها عقليّة نبّهنا الله عليها ليحصل لنا التوحيد الذى امرنا
باعتقاده بدليل عقلى فيكون ارسخ ومطلوبنا فى باب
الامامة المنع من نصب امامين وهو شرعىّ تكليفىّ فلا يتمّ
الاستدلال بها الا ان يقرّرها شرعية بزيادة مقدمة اخرى
وهى ان التعدّد ينشاء عنه الفساد ونحن ممنوعون مما يجرّ اليه
ويصير الاستدلال حينئذ شرعيّا والله اعلم (واما) شروط هذا

Digitized by Google

المنصب فهى اربعة العلم والعدالة والكفاية وسلامة الحواس والاعضاء ممّا يوثر فى الراى (1) والعمل واختلف فى شرط خامس وهو النسب القرشىّ فامّا اشتراط العلم فظاهر لانه امّا يكون منفذا لاحكام الله اذا كان عالما وما لم يعلمها لا يصحّ تقديمه لها ولا يكفى من العلم الا ان يكون مجتهدا لانّ التقليد نقص والامامة تستدعى الكمال فى الاوصاف والاحوال واما العدالة فلانه منصب دينىّ ينظر فى ساير المناصب التى هى شرط فيها فكان اولى باشتراطها فيه ولا خلاف فى انتفاء العدالة فيه بفسق الجوارح من ارتكاب المحظورات وامثالها وفى انتفايها بالبدع الاعتقاديّة خلف واما الكفاية فهو ان يكون جريًا على اقامة الحدود واقتحام الحروب بصيرا بها كفيلا بحمل الناس عليها عارفا بالعصبيّة واحوال الدهاء قويا على معاناة السياسة ليصحّ له بذلك ما جعل اليه من حماية الدين وجهاد العدو واقامة الاحكام وسياسة الدنيا وتدبير المصالح واما سلامة الحواسّ والاعضاء من النقص والعطلة كالجنون والعمى والصمم والخرس وما يوثر فقده من الاعضاء فى العمل كفقد اليدين والرجلين والانثيين فتشترط السلامة منها كلها لتأثير ذلك فى تمام عمله وقيامه بما جعل اليه وان كان انّما يشين فى المنظر فقط كفقدان احدى

(1) Man. B. et C. الرى. A. المراى.

Digitized by Google

هذه الاعضاء فتشترط السلامة منه شرط كمال (ويلتحق) بفقدان
الاعضاء المنع من التصرّف وهو ضربان ضرب يلحق بهذه
فى اشتراط السلامة منه شرط وجوب وهو القهر والعجز عن
التصرّف جملة بالاسر وشبهه وضرب لا يلحق بهذه وهو
الحجر باستيلاء بعض اعوانه عليه من غير عصيان ولا مشاقّة
فينتقل النظر فى حال هذا المستولى فان جرى على حكم
الدين والعدل وحميد السياسة جاز اقراره والا استنصر
المسلمون بمن يقبض يده عن ذلك ويدفع علّته حتى
ينفذ فعل الخليفة (واما) النسب القرشى فلاجماع الصحابة
يوم السقيفة على ذلك واحتجّت قريش على الانصار لما
همّوا يومئذ ببيعة سعد بن عبادة وقالوا منّا امير ومنكم امير
بقوله صلى الله عليه وسلّم الايمّة من قريش وبان النبى
صلى الله عليه وسلم اوصانا بان نحسن الى محسنكم ونتجاوز
عن مسيئكم ولو كانت الامارة فيكم لم تكن الوصيّة بكم
فحجّوا الانصار ورجعوا عن قولهم منّا امير ومنكم امير وعدلوا
عمّا كانوا همّوا به من بيعة سعد لذلك وثبت ايضا فى
الصحيح لا يزال هذا الامر فى قريش وامثال هذه الادلّة
كثير الا انه لما ضعف امر قريش وتلاشت عصبيّتهم بما
نالهم من الترف والنعيم وبما انفقتهم الدولة فى ساير اقطار
الارض عجزوا لذلك عن حمل الخلافة وتغلب عليهم

Digitized by Google

الاعاجم وصار الحل والعقد لهم فاشتبه ذلك على كثير
من المحققين حتى ذهبوا الى نفى اشتراط القرشيّة وعوّلوا
على ظواهر فى ذلك مثل قوله صلى الله عليه وسلم اسمعوا
واطيعوا وان ولى عليكم عبد حبشىّ ذو زبيبة وهذا لا تقوم به
حجّة فى ذلك فانه خرج مخرج التمثيل والفرض للمبالغة فى
ايجاب السمع والطاعة ومثل قول عمر لو كان سالم مولى
ابى حذيفة حيّا لوليته او لما داخلتنى فيه الظنّة وهو ايضا
لا يفيد ذلك لما علمت ان مذهب الصحابىّ ليس
بحجّة وايضا فمولى القوم منهم وعصبيّة الولاء حاصلة بسالم
من قريش وهى الفايدة فى اشتراط النسب ولما استعظم عمر
امر الخلافة وراى شروطها كانّها مفقودة فى ظنّه عدل الى
سالم لتوفرّ شروط الخلافة عنده فيه حتى من الولاء المفيد
للعصبيّة كما نذكر ولم يبق الا صراحة النسب فراءه غير
محتاج اليه اذا الفايدة فى النسب انّما هى العصبيّة وهى
حاصلة من الولاء وكان ذلك حرصا من عمر على النظر
للمسلمين وتقليد امرهم لمن لا تلحقه به لايمة ولا عليه فيه
عهدة (ومن) القايلين بنفى اشتراط القرشيّة القاضى ابو بكر
الباقلانى لما ادرك علية عصبيّة قريش من الشلاشى
والاضمحلال واستبداد ملوك العجم على الخلفاء فاسقط شرط
القرشيّة وان كان موافقا لراى الخوارج لما راى عليه حال

Digitized by Google

الخلفاء لعهده وبقى الجمهور على القول باشتراطها وصحّة
الامامة للقرشىّ ولو كان عاجزا عن القيام بامور المسلمين
ويردّ عليهم سقوط شرط الكفاية التى بها يقوى على امره
لانه اذا ذهبت الشوكة بذهاب العصبيّة فقد ذهبت الكفاية
واذا وقع الاخلال بشرط الكفاية تطرّق ذلك ايضا الى العلم
والدين وسقط اعتبار شروط هذا المنصب وهو خلاف الاجماع
(ولنتكلم) الآن فى حكمة اشتراط النسب ليتحقّق به الصواب
فى هذه المذاهب فنقول ان الاحكام الشرعيّة كلها لا بدّ لها
من مقاصد وحكم تشتمل عليها وتشرع لاجلها ونحن اذا
بحثنا عن الحكمة فى اشتراط النسب القرشىّ ومقصد
الشارع منه لم يقتصر فيه على التبرّك بوصلة النبى صلى
الله عليه وسلم كما هو المشهور وان كانت تلك الوصلة
موجودة والتبرّك بها حاصلا لكن التبرّك ليس من المقاصد
الشرعيّة كما علمت فلا بدّ اذن من مصلحة فى اشتراط
النسب هى المقصودة فى مشروعيّته واذا سبرنا وقسمنا لم
نجدها الا اعتبار العصبيّة التى تكون بها الحماية والمطالبة
ويرتفع الخلاف والفرقة بوجودها لصاحب المنصب فتسكن
اليه الملّة واهلها وينتظم حبل الالفة فيها وذلك ان قريشا
كانوا انف مضر واصلهم واهل الغلب منهم وكان لهم على
ساير مضر العزّة بالكثرة والعصبيّة والشرف فكان ساير العرب

Digitized by Google

PROLÉGOMÈNES d'Ebn-Khaldoun.

يعرفون لهم ذلك ويستكينون لغلبهم فلو قد جعل الامر فى
سواهم لتوقع افتراق الكلمة بمخالفتهم وعدم انقيادهم ولا يقدر
غيرهم من قبايل مضر ان يردّهم عن الخلاف ولا يحملهم
على الكره فتفترق الجماعة وتختلف الكلمة والشارع محذر
من ذلك حريص على اتّفاقهم ورفع التنازع والشتات
بينهم لتحصل اللحمة والعصبيّة وتحسن الحماية بخلاف
ما اذا كان الامر فى قريش لانهم قادرون على سوق الناس
بعصا الغلب الى ما يراد منهم فلا يخشى من احد خلاف
عليهم ولا فرقة لانهم كفيلون حينئذ بدفعها ومنع الناس
منها فاشترط نسبهم القرشى فى هذا المنصب وهم اهل
العصبيّة القويّة ليكون ابلغ فى انتظام الملّة واتّفاق (1) الجماعة
واذا انتظمت كلمتهم انتظمت بانتظامها كلمة مضر اجمع فاذعن
لهم ساير العرب وانقادت الامم سواهم الى احكام الملّة
ووطيئت جنودهم قاصية البلاد كما وقع فى ايام الفتوحات
واستمرّ بعدها فى الدولتين الى ان اضمحلّ امر الخلافة
وتلاشت عصبيّة العرب ويعلم ما كان لقريش من الكثرة
والتغلّب على بطون مضر من مارس اخبار العرب وسيرهم
وتفطّن لذلك من احوالهم وقد ذكر ذلك ابن اسحق فى
كتاب السير وغيره واذا ثبت ان اشتراط القرشية انّما هو

(1) Man.A. et B. اتقان.

Digitized by Google

لرفع التنازع بما كان لهم من العصبيّة والغلب وعلمنا ان الشارع
لا يخصّ الاحكام بجيل ولا عصر ولا امّة علمنا ان ذلك انما هو
من الكفاية فرددناه اليها وطردنا العلّة المشتملة على المقصود
من القرشيّة وهى وجود العصبيّة فاشترطنا فى القايم بامور
المسلمين ان يكون من قوم اولى عصبيّة قويّة غالبة على من
معها بعصرها ليستتبعوا من سواهم وتجتمع الكلمة على حسن
الحماية ولا يعمّ ذلك فى الاقطار والآفاق كما كان فى
القرشيّة اذ الدعوة الاسلاميّة التى كانت لهم عامّة وعصبيّة
العرب كانت وافية بها فغلبوا ساير الامم وانما يخصّ لهذا
العهد كل قطر بمن تكون له فيه العصبيّة الغالبة واذا نظرت
سرّ الله فى الخلافة لم يعدّ هذا لانه سبحانه انّما جعل
الخليفة نايبا عنه فى القيام بامور عباده ليحملهم على
مصالحهم ويرجعهم عن مضارّهم وهو مخاطب بذلك
ولا يخاطب بالامر من لا قدرة له عليه الا ترى ما ذكره الامام
ابن الخطيب فى شأن النساء وانّهن فى كثير من الاحكام
الشرعيّة جعلن تبعا للرجال ولم يدخلن فى الخطاب بالوضع
وانّما دخلن عنده بالقياس وذلك لما لم يكن لهنّ من الامر
شئ وكان الرجال قوّامين عليهنّ اللهمّ الا فى العبادات التى
كل واحد فيها قايم على نفسه فخطابهنّ فيها بالوضع
لا بالقياس ثم ان الوجود شاهد بذلك فانه لا يقوم بامر

Digitized by Google

امّة او جيل لا من غلب عليهم وقلّ ان يكون الامر الشرعىّ مخالفا للامر الوجودىّ والله تعالى اعلم

فصل فى مذاهب الشيعة فى حكم الامامة

اعلم ان الشيعة لغة هم الصحب والاتباع ويطلق فى عرف الفقهاء والمتكلّمين من الخلف والسلف على اتباع على وبنيه رضى الله عنهم ومذهبهم جميعا متّفقين عليه ان الامامة ليست من المصالح العامّة التى تفوض الى نظر الامّة ويتعيّن القايم بها بتعيينهم بل هى ركن الدين وقاعدة الاسلام ولا يجوز للنبى اغفاله ولا تفويضه الى الامّة بل يجب عليه تعيين الامام لهم ويكون معصوما من الكباير والصغاير وان عليا رضى الله عنه هو الذى عيّنه صلوات الله عليه بنصوص ينقلونها ويولونها على مقتضى مذهبهم لا يعرفها جهابذة السنّة ولا نقلة الشريعة بل اكثرها موضوع او مطعون فى طريقه وبعيد عن تاويلاتهم الفاسدة وتنقسم هذه النصوص عندهم الى جلىّ وخفىّ فالجلى مثل قوله من كنت مولاه فعلى مولاه قالوا ولم تطرد هذه الولاية الا فى على ولهذا قال له عمر اصبحت مولى كل مومن ومومنة ومنها قوله صلى الله عليه وسلم اقضاكم على ولا معنى للامامة الّا القضاء باحكام الله وهو المراد باولى الامر الواجبة طاعتهم من الله

Digitized by Google

بقوله اطيعوا الله واطيعوا الرسول واولى الامر منكم والمراد الحكم والقضا ولهذا كان حكما فى قضيّة الامامة يوم السقيفة دون غيره ومنها قوله من يبايعنى على روحه وهو وصى وولى هذا الامر من بعدى فلم يبايعه الا على (ومن) الخفىّ عندهم بعث النبى صلى الله عليه وسلم عليا لقراءة سورة براءة فى الموسم حين انزلت فانه بعث بها اولا ابا بكر ثم اوحى اليه ليبلغه رجل عنكم او من قومك فبعث عليا ليكون القارئ المبلغ قالوا وهذا يدلّ على تقديم على وايضا فلم يعرف انه قدّم احدا على على واما ابو بكر وعمر فقد قدّم عليهما فى غزاتين اسامة بن زيد مرّة وعمرو بن العاص اخرى وهذه كلّها عندهم ادلّة شاهدة بتعيين على للخلافة دون غيره فمنها ما هو غير معروف ومنها ما هو بعيد عن تأويلهم (ثم) منهم من يرى ان هذه النصوص تدلّ على تعيين على وتشخيصه وكذلك ينتقل منه الى من بعده وهولاء الاماميّة ويتبرّون من الشيخين حين لم يقدّموا عليا ويبايعوه بمقتضى هذه النصوص ويغمصون فى امامتهما ولا نلتفت الى نقل القدح فيهما من غلاتهم فهو مردود عندنا وعندهم (ومنهم) من يقول ان هذه الادلّة انما اقتضت تعيين على بالوصف لا بالشخص والناس مقصرون حيث لم يضعوا الوصف موضعه وهولاء هم الزيديّة ولا يتبرّون من

Digitized by Google

الشيخين ولا يغمصون فى امامتهما مع قولهم بان عليا افضل منهما لكنّهم يجوّزون امامة المفضول مع وجود الافضل (ثم اختلفت) هولاء الشيعة فى مساق الخلافة بعد على (فمنهم) من ساقها فى ولد فاطمة بالنصّ عليهم واحدا بعد واحد على ما نذكر بعد وهولاء يسمون الاماميّة نسبة الى مقالتهم باشتراط معرفة الامام وتعيينه فى الايمان وهى اصل مذاهبهم (ومنهم) من ساقها الى ولد فاطمة لكن بالاختيار من الشيعة وبشرط ان يكون الامام منهم عالما زاهدا جوادا شجاعا ويخرج داعيا الى امامته وهولاء هم الزيديّة نسبة الى صاحب المذهب وهو زيد بن على بن الحسين السبط وقد كان يناظر اخاه محمد الباقر على اشتراط الخروج فى الامام فيلزمه الباقر ان لا يكون ابوهما زيد العابدين اماما لانه لم يخرج ولا تعرّض للخروج وكان مع ذلك ينعى عليه مذاهب المعتزلة واخذه اياها عن واصل بن عطا ولما ناظر الاماميّة زيدا فى امامة الشيخين وراوه يقول بامامتهما ولا يتبرّاء منهما رفضوه ولم يجعلوه من الايمّة وبذلك سمّوا رافضة (ومنهم) من ساقها بعد على او ابنيه السبطين على اختلافهم فى ذلك الى اخيهما محمد بن الحنفيّة ثم الى ولده وهم الكيسانيّة نسبة الى كيسان مولاه وبين هذه الطوايف اختلافات تركناها اختصارا (وفيهم) طوايف يسمون

Digitized by Google

الغلاة تجاوزوا حدود العقل والايمان فى القول بالاهيّة هولاء
الايمّة اما على انه بشر اتّصف بصفات الالوهيّة وان الاله
حل فى ذاته البشريّة وهو قول بالحلول يوافق مذاهب
النصارى فى عيسى عليه الصلاة والسلام ولقد حرق على
رضى الله عنه بالنار من ذهب الى ذلك فيه منهم وسخط
محمد بن الحنفية المختار بن ابى عبيد لما بلغه مثل
ذلك عنه فصرح بلعنه والبراءة منه وكذلك فعل جعفر
الصادق بمن بلغه مثل ذلك عنه (ومنهم) من يقول ان
كمال الامام لا يكون لغيره فاذا مات انتقل روحه الى امام
اخر ليكون فيه ذلك الكمال وهو قول بالتناسخ (ومن هولاء
الغلاة) من يقف عند واحد من الايمّة لا يتجاوزه الى غيره
بحسب من تعيّن لذلك عندهم وهولاء الواقفيّة فبعضهم
يقول هو حىّ لم يمت الا انه غايب عن اعين الناس
ويستشهدون لذلك بقضيّة الخضر قيل مثل ذلك فى
على رضى الله عنه وانه فى السحاب والرعد صوته والبرق
سوطه وقالوا مثله فى محمد ابن الحنفيّة وانه فى جبل
رضوى من ارض الحجاز قال شاعرهم كثير

الا ان الايمّة من قريش ولاة الحقّ اربعة سواء
على والثلاثة من بنيه هم الاسباط ليس بهم خفاء
فسبط سبط ايمان وبرّ وسبط غيّبته كربلاء
وسبط لا يذوق الموت حتّى يقود الجيش يقدمه اللواء
تغيب لا يرى فيهم زمانا برضوى عنده عسل وماء

Digitized by Google

وقال مثله غلاة الامامية وخصوصا الاثنى عشرية. منهم يزعمون ان الثانى عشر من ايمتهم وهو محمد بن الحسن العسكرى ويلقبونه المهدى دخل فى سرداب بدارهم بالحلة وتغيب حين اعتقل مع امه وغاب هنالك وهو يخرج آخر الزمان فيملاء الارض عدلا يشيرون بذلك الى الحديث الواقع فى كتاب الترمذى فى المهدى وهم الى الآن ينتظرونه ويسمونه المنتظر لذلك ويقفون فى كل ليلة بعد صلاة المغرب بباب هذا السرداب وقد قربوا مركبا فيهتفون باسمه ويدعونه للخروج حتى تشتبك النجوم ثم ينفضون ويرجون الامر الى الليلة القابلة وهم على ذلك لهذا العهد (وبعض) هولاء الواقفية يقول ان الامام الذى مات يرجع الى حياته الدنيا ويستشهدون لذلك بما وقع فى القران الكريم من قصة اهل الكهف والذى مر على قرية وقتيل بنى اسرائيل حين ضرب بعظام البقرة التى امروا بذبحها ومثل ذلك من الخوارق التى وقعت فى طريق المعجزة فلا يصح الاستشهاد بها فى غير موضعها وكان من هولاء السيد الحميرى ومن شعره فى ذلك

اذا ما المرء شاب له قذال ... وعلله المواشط بالخضاب
فقد ذهبت بشاشته واودى ... فقم يا صاح نبك على الشباب
فليس بعايد ما فات منه ... الى احد الى يوم الاياب
الى يوم يؤب الناس فيه ... الى دنياهم قبل الحساب
اديين بان ذلك دين حق ... وما انا فى النشور بذى ارتياب
كذاك الله اخبر عن اناس ... حيوا من بعد درس فى التراب

Digitized by Google

وقد كفانا مؤنة هولاء الغلاة ايمّة الشيعة فانهم لا يقولون بها ويبطلون احتجاجاتهم عليها (فاما الكيسانيّة) فساقوا الامامة من بعد محمد بن الحنفيّة الى ابنه ابى هاشم وهولاء الهاشميّة ثم افترقوا فمنهم من ساقها بعده الى اخيه علّى ثم الى ابنه الحسن بن على واخرون زعموا ان ابا هاشم لما مات بارض الشراة منصرفا من الشام اوصى الى محمد بن على بن عبد الله ابن عباس واوصى محمد الى ابنه ابراهيم المعروف بالامام واوصى ابراهيم الى اخيه عبد الله بن الحارثيّة الملقب بالسفّاح واوصى هو الى اخيه عبد الله ابى جعفر الملقب بالمنصور وانتقلت فى ولده بالنصّ والعهد واحد بعد واحد الى آخرهم وهذا مذهب الهاشميّة القايمين بدولة بنى العباس وكان منهم ابو مسلم وسليمان بن كثير وابو سلمة الخلال وغيرهم من شيعة العباسيّة وربّما يعضدون ذلك بان حقّهم فى هذا الامر يصل اليهم من العباس لانه كان حيّا عند الوفاة وهو اولى بالوراثة بعصبيّة العموميّة (1) (واما الزيديّة) فساقوا الامامة على مذاهبهم فيها وانها باختيار ايمّة الحل والعقد لا بالنصّ فقالوا بامامة على ثم ابنه الحسن ثم اخيه الحسين ثم ابنه على زين العابدين ثم ثم ابنه زيد بن على وهو صاحب هذا المذهب وخرج

(1) Man. C. بعصبه. D. بعصابة العمومة.

Digitized by Google

بالكوفة داعيا الى الامامة فقتل وصلب بالكناسة وقال الزيديّة
بامامة ابنه يحيى من بعده فمضى الى خراسان وقتل
بالجوزجان بعد ان اوصى الى محمد بن عبد الله بن حسن
بن الحسن السبط ويقال له النفس الزكيّة فخرج بالحجاز
وتلقّب بالمهدى وجاءت عساكر المنصور فهزم وقتل وعهد
بالامر الى اخيه ابراهيم فقام بالبصرة ومعه عيسى بن زيد بن
على فزحف اليهم المنصور فى عساكره او قوّاده فهزم
وقتل ابراهيم وعيسى وكان جعفر الصادق قد اخبرهم بذلك
كله وهى معدودة فى كراماته وذهب اخرون منهم الى ان
الامام بعد محمد بن عبد الله النفس الزكيّة هو محمد بن
القاسم بن على بن على بن عمر وعمر هو اخو زيد بن على
فخرج محمد بن القاسم بالطالقان فقبض عليه وسيق الى
المعتصم فحبسه ومات فى محبسه وقال اخرون من
الزيديّة ان الامام بعد يحيى بن زيد هو اخوه عيسى الذى
حضر مع ابراهيم بن عبد الله فى قتاله مع المنصور ونقلوا
الامامة فى عقبه واليه انتسب داعى الزنج كما نذكره فى
اخبارهم وقال اخرون من الزيديّة ان الامام بعد محمد بن
عبد الله اخوه ادريس الذى فرّ الى المغرب ومات هنالك
وقام بامره ابنه ادريس بن ادريس واختطّ مدينة فاس وكان
من بعده عقبه ملوكا بالمغرب الى ان انقرضوا كما نذكر فى

Digitized by Google

اخبارهم وبقى امر الزيديّة بعد ذلك غير منتظم وكان منهم
الداعى الذى ملك طبرستان وهو الحسن بن زيد بن
محمد بن اسمعيل بن الحسن ابن زيد بن الحسن السبط
واخوه محمد بن زيد (ثم) قام بهذه الدعوة فى الديلم
الناصر الاطروش منهم واسلموا على يده وهو الحسن ابن
على بن الحسن بن على بن عمر وعمر اخو زيد بن على
فكانت لبنيه فى طبرستان دولة وتوصل الديلم من سببهم
الى الملك والاستبداد على الخلفاء ببغداذ كما نذكر فى
اخبارهم (واما الاماميّة) فساقوا الامامة من على الوصىّ الى
ابنه الحسن بالوصيّة ثم الى اخيه الحسين ثم الى ابنه
على زين العابدين ثم الى ابنه محمد الباقر ثم الى ابنه
جعفر الصادق ومن هنا افترقوا فرقتين فرقة ساقوها الى ابنه
موسى الكاظم وهم الاثنى عشريّة لوقوفهم عند الثانى عشر
من الايمّة وقولهم بغيبته الى آخر الزمن كما مرّ (واما
الاسماعليّة) فقالوا بامامة اسمعيل الامام بالنصّ من ابيه جعفر
الصادق وفايدة النصّ عليه عندهم وان كان قد مات قبل
ابيه انّما هى بقاء الامامة فى عقبه كقصّة هرون مع موسى
صلوات الله عليهما قالوا ثم انتقلت الامامة من اسمعيل الى
ابنه محمد المكتوم وهو اول الايمّة المستورين لان الامام عندهم
قد لا تكون له شوكة فيستتر وتكون دعاته ظاهرين اقامة

Digitized by Google

للحجّة على الخلق واذا كانت له شوكة ظهر واظهر دعوته قالوا وبعد محمد المكتوم ابنه جعفر المصدق وبعده ابنه محمد الحبيب وهو آخر المستورين وبعده ابنه عبيد الله المهدى الذى ظهر داعيته ابو عبد الله الشيعى فى كتامة وتابعه الناس على دعوته ثم اخرجه من معتقله بسجلماسة وملك القيروان والمغرب وملك بنوه من بعده مصر كما هو معروف فى اخبارهم ويسمى هولاء الاسماعيليّة نسبة الى القول بامامة اسمعيل ويسمون ايضا الباطنيّة نسبة الى قولهم بالامام الباطن اى المستور ويسمون ايضا الملحدة لها فى ضمن مقالاتهم من الالحاد ولهم مقالات قديمة ومقالات جديدة دعا اليها الحسن ابن محمد الصباح فى آخر المائة الخامسة وملك حصونا بالشام والعراق ولم تزل دعوته فيها الى ان توزّعها الهلاك بين ملوك الترك بمصر وملوك الططر بالعراق فانقرضت ومقالات هذا الصباح فى دعوته مذكورة فى كتاب الملل والنحل للشهرستانى (واما الاثنى عشريّة) وربّما خصّوا باسم الاماميّة عند المتاخّرين منهم فقالوا بامامة موسى الكاظم بن جعفر لوفاة اخيه الاكبر اسمعيل الامام فى حياة ابيهما جعفر فنصّ على امامة موسى هذا ثم ابنه على الرضا الذى عهد اليه المامون ومات قبله فلم يتم له امر ثم ابنه محمد التقى ثم ابنه على الهادى ثم ابنه الحسن

Digitized by Google

العسكرى ثم ابنه محمد المهدى المنتظر الذى قدّمنا ذكره وفى كل واحد من هذه المقالات للشيعة اختلاف كثير الا ان هذه اشهر مذاهبهم ومن اراد استيعابها ومطالعتها فعليه بكتب الملل والنحل لابن حزم والشهرستانى وغيرهما ففيها بيان ذلك والله يضلّ من يشاء ويهدى من يشاء

فصل فى انقلاب الخلافة الى الملك

اعلم ان الملك غاية طبيعيّة للعصبيّة ليس وقوعه عنها باختيار انما هو بضرورة الوجود وترتيبه كما قلناه من قبل وان الشرايع والديانات وكل امر يحمل عليه الجمهور فلا بدّ فيه من العصبيّة اذ المطالبة لا تتمّ الا بها كما قدّمناه فالعصبيّة ضروريّة للملّة وبوجودها يتمّ امر الله منها وفى الصحيح ما بعث الله نبيا الّا فى منعة من قومه ثم وجدنا الشارع قد ذمّ العصبيّة وندب الى اطراحها وتركها فقال انّ الله اذهب عنكم غيّة الجاهليّة وفخرها بالآباء انتم بنو آدم وآدم من تراب وقال تعالى ان اكرمكم عند الله اتقاكم ووجدناه ايضا قد ذمّ الملك واهله ونعى على اهله احوالهم من الاستمتاع بالخلاف والاسراف فى غير القصد والتنكّب عن صراط الله وانّما حضّ على الالفة فى الدين وحذّر من الخلاف والفرقة واعلم ان الدنيا واحوالها كلها عند الشارع

Digitized by Google

مطية للآخرة ومن فقد المطية فقد الوصول وليس مراده فيما
ينهى عنه او يذمّه من افعال البشر او يندب الى تركه اهماله
بالكلية او اقتلاعه من اصله وتعطيل القوى التى نشأ عليها
بالكلية انما قصده تصريفها فى اغراض الحقّ جهد الاستطاعة
حتى تصير المقاصد كلها حقّا وتتّحد الوجهة كما قال
صلى الله عليه وسلم من كانت هجرته الى الله ورسوله
فهجرته الى الله ورسوله ومن كانت هجرته الى دنيا يصيبها
او امراة يتزوّجها فهجرته الي ما هاجر اليه فلم يذمّ الغضب
وهو يقصد نزعه من الانسان فانه لو زالت منه قوة الغضب
لفقد منه الانتصار للحقّ وبطل الجهاد واعلاء كلمة الله وانّما
يذمّ الغضب للشيطان والاغراض الذميمة فاذا كان الغضب
فى الله ولله كان ممدوحا وهو من شمائله صلى الله عليه
وسلم وكذا ذمّ الشهوات ايضا ليس المراد ابطالها بالكليّة
فان من بطلت شهوته كان نقصا فى حقّه وانّما المراد
تصريفها فيما ابيح له باشتماله على المصالح ليكون الانسان
عبدا متصرّفا طوع الاوامر الآلهيّة وكذا العصبيّة حيث ذمّها
الشرع (1) وقال لن تنفعكم ارحامكم ولا اولادكم فانّما مراده حيث
تكون العصبيّة على الباطل واحواله كما كانت فى
الجاهليه وان (2) يكون لاحد فخر بها او حقّ على احد لان

(1) Man. D. الشارع. (2) *Ibid.* الا.

Digitized by Google

ذلك مجان من افعال العقلاء وغير نافع فى الآخرة التى
هى دار القرار فاما اذا كانت العصبيّة فى الحقّ واقامة امر
الله فامر مطلوب ولو بطل لبطلت الشرايع اذ لا يتمّ قوامها
الا بالعصبيّة كما قلناه من قبل وكذا الملك لما ذمّه الشارع
لم يذمّ منه الغلب بالحقّ وقهر الكافة على الدين ومراعاة
المصالح وانّما ذمّه لما فيه من التغلّب بالباطل وتصريف
الادميّين طوع الاغراض والشهوات كما قلناه فلو كان الملك
مخلصا فى غلبه للناس انه لله ويحملهم على عبادة الله
وجهاد عدوّه لم يكن ذلك مذموما وقد قال سليمان صلوات
الله وسلامه عليه ربّ هب لى ملكا لا ينبغى لاحد من بعدى
لما علم من نفسه انه بمعزل عن الباطل فى النبوة والملك
(ولما) لقى معاوية عمر بن الخطاب رضى الله عنهما عند
قدومه الى الشام فى ابهة الملك وزيّه من العديد والعدّة
استنكر ذلك وقال اكسروية يا معاوية قال يا امير المومنين
انا فى ثغر تجاه العدوّ وبنا الى مباهاتهم بزينة الحرب
والجهاد حاجة فسكت ولم يخطئه لما احتجّ عليه بمقصد
من مقاصد الحقّ والدين فلو كان القصد رفض الملك من
اصله لم يقنعه هذا الجواب فى تلك الكسرويّة وانتحالها
بل كان يحرص على خروجه منها بالجملة وانّما اراد عمر
بالكسرويّة ما كان عليه اهل فارس فى ملكهم من ارتكاب

Digitized by Google

الباطل والبغى وسلوك سبله والغفلة عن الله واجابه معاوية
بان القصد بذلك ليس كسرويّة فارس وباطلهم وانّما
قصده بها وجه الله تعالى فسكت وهكذا شأن الصحابة فى
رفض الملك واحواله ونسيان عوايده حذرا من التباسها
بالباطل فلما استحضر رسول الله صلى الله عليه وسلم
استخلف ابا بكر رضى الله عنه على الصلاة اذ هى اهمّ امور
الدين وارتضاه الناس للخلافة وهى حمل الكافة على احكام
الشريعة ولم يجر للملك ذكر لما انه مظنّة الباطل ونحلة
يومئذ لاهل الكفر واعداء الدين فقام بذلك ابو بكر ما شاء
الله متبعا سنن صاحبه وقاتل اهل الردّة حتى اجتمع العرب
على الاسلام ثم عهد الى عمر فاتبع اثره وقاتل الامم فغلبهم
واذن للعرب فى انتزاع ما بايديهم من الدنيا والملك
فغلبوهم عليه وانتزعوه منهم ثم صارت الى عثمان ثم الى
على والكل متبرّؤن من الملك منكبون عن طرقه واكّد
ذلك لديهم ما كانوا عليه من عضاضة الاسلام وبداوة
العرب فقد كانوا ابعد الامم عن احوال الدنيا وترفها لا من
حيث دينهم الذى يدعوهم الى الزهد فى النعيم ولا من حيث
بداوتهم ومواطنهم وما كانوا عليه من خشونة العيش وشظفه
الذى الفوه فلم تكن امّة اسغب (1) عيشا من مضر لما كانوا

(1) Man. D. اشعث.

Digitized by Google

بالحجاز فى ارض غير ذى زرع ولا ضرع وكانوا ممنوعين من
الارياف وحبوبها لبعدها واختصاصها بمن وليها من ربيعة
واليمن فلم يكونوا يتطاولون الى خصبها ولقد كانوا كثيرا ما
ياكلون العقارب والخنافس ويفخرون باكل العلهز وهو وبر
الابل يموهونه بالحجارة فى الدم ويطبخونه وقريب من هذا
حال قريش فى مطاعمهم ومساكنهم حتى اذا اجتمعت
عصبيّة العرب على الدين بما اكرمهم الله به من نبوة محمد
صلى الله عليه وسلم زحفوا الى امم فارس والروم وطلبوا ما
كتب الله لهم من الارض بوعد الصدق فابتزوا ملكهم
واستباحوا دنياهم فزخرت بحار الرفه لديهم حتى كان الفارس
الواحد يقسم له فى بعض الغزوات ثلثين الفا من الذهب
او نحوها فاستولوا من ذلك على ما لا ياخذه الحصر وهم مع
ذلك على خشونة عيشهم فكان عمر رضى الله عنه يرقع
ثوبه بالجلد وكان على ما يقول يا صفراء ويا بيضاء غرّى
غيرى وكان ابو موسى يتجافى عن اكل الدجاج لانه لم
يعهد للعرب لقلتها يومئذ وكانت المناخيل مفقودة عندهم
بالجملة وانما ياكلون الحنطة بنخالها ومكاسبهم مع هذا اتمّ
ما كانت لاحد من اهل العالم (قال) المسعودى فى ايام
عثمان اقتنى الصحابة الضياع والمال فكان له يوم قتل عند
خازنه خمسون ومائة الف دينار والف الف درهم وقيمة

Digitized by Google

ضياعه بوادى القرى وحنين وغيرهما مايتا الف دينار وخلف
ابلا وخيلا كثيرة (وبلغ) الثمن الواحد من متروك الزبير
بعد وفاته خمسين الف دينار وخلف الف فرس والف امة
(وكانت) غلّة طلحة من العراق الف دينار كل يوم ومن
ناحية الشراة اكثر من ذلك (وكان) على مربط عبد الرحمن
ابن عوف الف فرس وله الف بعير وعشرة الآف من الغنم
وبلغ الربع من متروكه بعد وفاته اربع وثمانين الف (وخلف)
زيد بن ثابت من الفضّة والذهب ما كان يكسر بالفوس غير
ما خلف من الاموال والضياع بهاية الف دينار (وبنى) الزبير داره
بالبصرة وكذلك بنى بهصر والكوفة والاسكندرية (وكذلك)
بنى طلحة داره بالكوفة وشيّد داره بالمدينة وبناها بالجص
والاجرّ والساج (وبنى) سعد بن ابى وقاص داره بالعقيق
ورفع سمكها واوسع فضاها وجعل على اعلاها شرفات (وبنى)
المقداد داره بالمدينة وجعلها مجصّصة الظاهر والباطن (وخلف)
يعلى بن منبة خمسين الف دينار وعقارا وغير ذلك ما قيمته
ثلثماية الف درهم انتهى كلام المسعودى فكانت مكاسب
القوم كما تراه ولم يكن ذلك منعيا عليهم فى دينهم اذ هى
اموال حلال لانها غنايم وفئ ولم يكن تصرّفهم فيها باسراف
انّها كانوا على قصد فى احوالهم كما قلناه فلم يكن ذلك
بقادح وان كان الاستكثار من الدنيا مذموما فانّها يرجع الى ما

Digitized by Google

اشرنا اليه من الاسراف والخروج به عن القصد واذا كان حالهم
قصدا ونفقاتهم فى سبل الحق ومذاهبه كان ذلك الاستكثار
عونا لهم على طريق الحق واكتساب الدار الآخرة فلما تدرّجت
البداوة والغضاضة الى نهايتها وجاءت طبيعة الملك التى
هى مقتضى العصبيّة كما قلناه وحصل التغلّب والقهر كان
حكم ذلك الملك عندهم حكم الرفه والاستكثار من الاموال
فلم يصرفوا ذلك التغلّب فى باطل ولا خرجوا به عن
مقاصد الديانة ومذاهب الحقّ (ولما) وقعت الفتنة بين
على ومعاوية وهى مقتضى العصبيّة كان طريقهم فيها الحقّ
والاجتهاد ولم يكونوا فى محاربتهم لغرض دنيوىّ او لايثار
باطل او لاستشعار حقد كما يتوهمه متوهم او ينزع اليه ملحد
وانما اختلف اجتهادهم فى الحقّ وخالف كل واحد
نظر صاحبه باجتهاده فى الحقّ فاقتتلوا عليه وان كان
المصيب عليا فلم يكن معاوية قايما فيها بقصد الباطل وانما
قصد الحقّ واخطاء والكل كانوا فى مقاصدهم على حقّ ثم
اقتضت طبيعة الملك الانفراد بالمجد واستيثار الواحد به ولم
يكن لمعاوية ان يدفع ذلك عن نفسه وقومه فهو امر
طبيعىّ ساقته العصبيّة بطبيعتها واستشعرته بنو امية ومن لم
يكن على طريقة معاوية فى اقتضاء الحقّ من اتباعهم
فاعصوصبوا عليه واستماتوا دونه ولو قد حملهم معاوية على

Digitized by Google

غير تلك الطريقة وخالفهم فى الانفراد بالامر لوقع فى افتراق الكلمة التى كان جمعها وتاليفها اهمّ عليه من امر ليس وراءه كبير مخالفة (وقد) كان عمر بن عبد العزيز يقول اذا راى ابا القاسم بن محمد بن ابى بكر لو كان لى من الامر شئ لوليته الخلافة ولو اراد ان يعهد اليه لفعل لكنّه كان يخشى من بنى امية اهل الحل والعقد كما ذكرناه فلا يقدر ان يحول الامر عنهم ليلا تقع الفرقة وهذا كله انما حمل عليه منازع الملك التى هى مقتضى العصبيّة فالملك اذا حصل وفرضنا ان الواحد انفرد به وصرفه فى مذاهب الحقّ ووجوهه لم يكن فى ذلك نكير عليه وقد انفرد سليمان وابوه داود صلوات الله عليهما بملك بنى اسرائيل لما اقتضته طبيعة الملك فيهم من الانفراد به وكانوا ما علمت من النبوة والحقّ وكذلك عهد معاوية الى يزيد خوفا من افتراق الكلمة بما كانوا بنو امية لم يرضوا تسليم الامر لهن سواهم فلو قد عهد الى غيره اختلفوا عليه مع ان ظنّهم كان به صالحا ولا يرتاب احد فى ذلك ولا يظنّ بمعاوية غيره فلم يكن ليعهد اليه وهو يعتقد ما كان عليه من الفسق حاش لله لمعاوية من ذلك وكذلك كان مروان بن الحكم وابنه وان كانوا ملوكا فلم يكن مذهبهم فى الملك مذهب اهل البطالة والبغى انّما كانوا متحرّين

Digitized by Google

لمقاصد الحقّ جهدهم الا فى ضرورة تحملهم على بعضها
مثل خشية افتراق الكلمة الذى هو اهمّ لديهم من كل مقصد
يشهد لذلك ما كانوا عليه من الاتباع والاقتداء وما علم
السلف من احوالهم فقد احتجّ مالك فى الموطا بعمل عبد
الملك واما مروان فكان من الطبقة الاولى من التابعين
وفضله معروف ثم تدرّج الامر فى ولده عبد الملك وكانوا
من الدين بالمكان الذى كانوا عليه وتوسّطهم عمر بن عبد
العزيز ونزع الى طريقة الخلفاء الاربعة والصحابة جهده ولم
يهمل ثم جاء خلفهم واستعملوا طبيعة الملك فى اغراضهم
الدنيويّة ومقاصدهم ونسوا ما كان عليه سلفهم من تحرّى
القصد فيها واعتماد الحقّ فى مذاهبها فكان ذلك ممّا
دعى الناس الى ان نعوا عليهم افعالهم وادالوا بالدعوة العباسية
منهم وولى رجالها الامر فكانوا من العدالة بمكان وصرّفوا
الملك فى وجوه الحقّ ومذاهبه ما استطاعوا حتى جاء بنو
الرشيد من بعده وكان منهم الصالح والطالح ثم افضى الامر
الى بنيهم فاعطوا الملك والترف حقّه وانغمسوا فى الدنيا
وباطلها ونبذوا الدين وراءهم ظهريا فتاذّن الله بخربهم وانتزع
الامر من ايدى العرب جملة وامكن سواهم منه والله لا يظلم
مثقال ذرّة ومن تامّل سير هولاء الخلفاء والملوك واختلافهم
فى تحرّى الحقّ من الباطل علم صحّة ما قلناه وقد حكى

Digitized by Google

PROLÉGOMÈNES d'Ebn-Khaldoun.

المسعودى مثله فى احوال بنى امية عن ابى جعفر المنصور
وقد حضر عمومته وذكروا بنى امية (فقال) اما عبد الملك
فكان جبارا لا يبالى بما صنع واما سليمان فكان همّه بطنه
وفرجه واما عمر فكان اعور بين عميان وكان رجل القوم
هشام قال ولم يزل بنو امية ضابطين لها مهد لهم من السلطان
يحوطونه ويصونون ما وهب الله لهم منه مع تسنّمهم معالى
الامور ورفضهم ادانيها حتى افضى الامر الى ابنايهم المترفين
فكانت همّتهم قصد الشهوات وركوب اللذّات من معاصى
الله جهلا باستدراجه وامنا لمكره مع اطراحهم صيانة الخلافة
واستخفافهم بحقّ الرياسة وضعفهم عن السياسة فسلبهم الله
العزّ والبسهم الذلّ ونفى عنهم النعمة (ثم) استحضر عبد الله
بن مروان فقصّ عليه خبره مع ملك النوبة لما دخل ارضه
فارّا امام بنى العباس قال اقمت مليا ثم اتانى ملكهم
فقعد على الارض وقد بسطت له فرش ذات قيمة فقلت
ما منعك عن القعود على ثيابنا قال انى ملك وحقّ لكل
ملك ان يتواضع لعظمة الله اذا رفعه الله ثم قال لى لم
تشربون الخمر وهى محرمة عليكم فى كتابكم قلت فعل
ذلك عبيدنا واتباعنا قال فلم تطؤن الزرع بدوابّكم
والفساد محرم عليكم فى كتابكم قلت فعل ذلك
عبيدنا واتباعنا بجهلهم قال فلم تلبسون الديباج والذهب

Digitized by Google

والحرير وهو محرم عليكم فى كتابكم قلت ذهب منّا الملك
وانتصرنا بقوم من العجم دخلوا فى ديننا فلبسوا ذلك
على الكره منّا فاطرق نيكث بيده فى الارض ويقول عبيدنا
واتباعنا واعاجم دخلوا فى ديننا ثم رفع راسه الىّ وقال ليس
كما ذكرت بل انتم قوم استحللتم ما حرّم الله واتيتم ما
عنه نهيتم وظلمتم فيما ملكتم فسلبكم الله العزّ والبسكم
الذل بذنوبكم ولله نقمة لم تبلغ غايتها فيكم وانا خايف ان
يحلّ بكم العذاب انتم ببلدى فينالنى معكم وانّما الضيافة
ثلاث فتزوّد ما احتجت اليه وارتحل عن ارضى فتعجّب المنصور
واطرق فقد تبيّن لك كيف انقلبت الخلافة الى الملك
وان الامر كان فى اوله خلافة ووازع كل احد فيها من نفسه
وهو الدين فكانوا يوثرونه على امور دنياهم وان افضت الى
هلاكهم وحدهم دون الكافة (فهذا) عثمان لما حصر فى الدار
جاءه الحسن والحسين وعبد الله بن عمر وابن جعفر وامثالهم
يريدون المدافعة عنه فابى ومنع من سلّ السيوف بين
المسلمين مخافة للفرقة وحفظا للالفة التى بها حفظ الكلمة
ولو ادى الى هلاكه (وهذا) علىّ اشار عليه المغيرة لاول ولايته
باستبقاء الزبير ومعاوية وطلحة على اعمالهم حتى يجتمع
الناس على بيعته وتتّفق الكلمة وله بعد ذلك ما شاء من
امره وكان ذلك من سياسة الملك فابى فرارا من الغشّ

Digitized by Google

الذى ينافيه الاسلام وغدى عليه المغيرة من الغداة فقال اشرت عليك بالامس بها اشرت ثم عدت الى نظرى فعلمت انه ليس من الحقّ والنصيحة وان الحقّ فيها رايته انت فقال على لا والله بل اعلم انك نصحتنى بالامس وغششتنى اليوم ولكن منعنى ممّا اشرت به ذايد (1) الحقّ وهكذا كانت احوالهم فى اصلاح دينهم بفساد دنياهم ونحن

نرقع دنيانا بتمزيق ديننا فلا ديننا يبقى ولا ما نرقع

فقد رايت كيف صار الامر الى الملك وبقيت معانى الخلافة من تحرّى الدين ومذاهبه والجرى على منهاج الحقّ ولم يظهر التغيّر الا فى الوازع الذى كان دينا ثم انقلب عصبيّة وسيفا وهكذا كان الامر لعهد معاوية ومروان وابنه عبد الملك والصدر الاول من خلفاء بنى العباس الى الرشيد وبعض ولده ثم ذهبت معانى الخلافة ولم يبق الا اسمها وصار الامر ملكا بحتا وجرت طبيعة التغلب الى غايتها واستعملت فى اغراضها من القهر والتحكّم فى الشهوات والملاذّ وهذا كما كان الامر لخلف بنى عبد الملك ولمن جاء بعد المعتصم والمتوكل من بنى العباس واسم الخلافة باقيا فيهم لبقاء عصبيّة العرب والخلافة والملك فى الطورين ملتبس بعضها ببعض ثم ذهب رسم الخلافة واثرها بذهاب عصبيّة العرب

(1) Man. A. زايد. B. زيد.

Digitized by Google

وفناء جيلهم وتلاشى احوالهم وبقى الامر ملكا بحتا كما كان الشان فى ملوك العجم بالمشرق يدينون بطاعة الخليفة تبرّكا والملك بجميع القابه ومناحيه لهم وليس للخليفة منه شئ وكذلك فعل ملوك زناتة بالمغرب مثل صنهاجة مع العبيديّين ومغراوة وبنى يفرن ايضا مع خلفاء بنى امية بالاندلس والعبيديّين بالقيروان فقد تبيّن ان الخلافة قد وجدت بدون الملك اولا ثم التبست معانيها واختلطت ثم انفرد الملك حيث افترقت عصبيّته من عصبية الخلافة والله مقدّر الليل والنهار

فصل فى معنى البيعة

اعلم ان البيعة هى العهد على الطاعة كان المبايع يعاهد اميره على انه يسلّم له النظر فى امر نفسه وامور المسلمين لا ينزعه فى شئ من ذلك ويطيعه فيما يكلّفه به من الامر على المنشط والمكره وكانوا اذا بايعوا الامير وعقدوا عهده جعلوا يدهم فى يده توكيدا للعهد فاشبه ذلك فعل البايع والمشترى فسمّى بيعة مصدر باع وصارت البيعة مصافحة بالايدى هذا مدلولها فى عرف اللغة ومعهود الشرع وهو المراد فى الحديث فى بيعة النبى صلى الله عليه وسلم بيعة العقبه وعند الشجرة وحيث ما ورد هذا اللفظ ومنه بيعة الخلفاء ومنه ايمان البيعة لانّ الخلفاء كانوا يستحلفون على

Digitized by Google

هذا العهد ويستوعبون الايمان كلها لذلك فسمّى هذا الاستيعاب ايمان البيعة وكان الاكراه فيها اغلب ولهذا لما افتى مالك رضى الله عنه بسقوط يمين المكره انكرها الولاة عليه وراوها قادحة فى ايمان البيعة ووقع ما وقع من محنة الامام رضى الله عنه (واما) البيعة المشهورة لهذا العهد فهى تحيّة الملوك الكسرويّة من تقبيل الارض او اليد او الرجل او الذيل اطلق عليها اسم البيعة التى هى العهد على الطاعة مجازا لما كان هذا الخضوع فى التحيّة والتزام الآداب من لوازم الطاعة وتوابعها وغلب فيه حتى صار حقيقة عرفيّة استغنى بها عن مصافحة ايدى الناس التى هى الحقيقة فى الاصل لما فى المصافحة لكل احد من التنزّل والابتذال المنافيين للرياسة وصون المنصب الملوكى الا فى الاقلّ ممن يقصد التواضع من الملوك فياخذ به نفسه مع خواصّه ومشاهير اهل الدين من رعيته فافهم معنى البيعة فى العرف فانه اكيد على الانسان معرفته لما يلزمه من حقّ سلطانه وامامه ولا تكون افعاله عبثا ومجانا واعتبر ذلك من افعاله مع الملوك والله القوى العزيز

فصل فى ولاية العهد

اعلم انّا قدّمنا الكلام فى الامامة ومشروعيّتها لما فيها من

Digitized by Google

المصلحة وان حقيقتها النظر فى مصالح الامّة لدينهم
ودنياهم فهو وليهم والامين عليهم ينظر لهم ذلك فى حياته
وتبع ذلك ان ينظر لهم بعد مماته ويقيم لهم من يتولّى
امورهم كما كان هو يتولّاها ويثقون بنظره لهم فى ذلك
كما وثقوا به فيما قبل وقد عرف ذلك من الشرع
باجماع الامّة على جوازه وانعقاده اذا وقع فعهد ابو بكر الى
عمر بمحضر الصحابة واجازوه واوجبوا على انفسهم به طاعة
عمر رضى الله عنهم اجمعين وكذلك عهد عمر فى الشورى
الى الستّة من بقية العشرة وجعل لهم ان يختاروا للمسلمين
ففوّض ذلك بعضهم الى بعض حتى افضى الى عبد
الرحمن بن عوف فاجتهد وناظر المسلمين فوجدهم متّفقين
على عثمان وعلى وآثر عثمان بالبيعة على ذلك لموافقته
اياه على لزوم الاقتداء بالشيخين فى كل ما يعن دون اجتهاده
فانعقد امر عثمان لذلك واوجبوا طاعته والملاء من الصحابة
حاضرون للاولى والثانية ولم ينكره واحد منهم فدل على انهم
متّفقون على صحّة هذا العهد عارفون بمشروعيّته والاجماع
حجّة كما عرف ولا يتهم الامام فى هذا الامر وان عهد الى
ابيه وابنه لانه مأمون على النظر لهم فى حياته فاحرى ان
لا يتحمّل فيها تبعة بعد مماته خلافا لمن قال باتهامه فى
الولد والوالد ولمن خصّص التهمة فى الولد دون الوالد فانه

Digitized by Google

بعيد عن الظنّة فى ذلك كله لا سيّما اذا كانت هناك
داعية تدعو اليه من ايثار مصلحة او توقّع مفسدة فتنتفى
الظنّة عند ذلك راسا كما وقع فى عهد معاوية لابنه
يزيد وان كان فعل معاوية مع وفاق الناس له حجّة فى الباب
والذى دعى معاوية الى ايثار ابنه يزيد بالعهد دون من
سواه انما هو مراعاة المصلحة فى اجتماع الناس واتّفاق
اهوايهم باتّفاق اهل الحل والعقد عليه حينئذ من بنى امية
اذ بنو امية يومئذ لا يرضون سواه وهم عصابة قريش واهل
الملّة اجمع واهل الغلب منهم فآثره بذلك دون غيره
ممن يظنّ انه اولى بها وعدل الى المفضول عن الفاضل
حرصا على الاتّفاق واجتماع الاهواء الذى شأنه اهمّ عند
الشارع ولا يظنّ بمعاوية غير هذا فعدالته وصحابته مانعة
ممّا سوى ذلك وحضور اكابر الصحابة لذلك وسكوتهم
عنه دليل على انتفاء الريب فيه فليسوا ممّن تاخذه فى
الحقّ هوادة وليس معاوية ممّن تاخذه العزّة فى قبول الحقّ
فانهم كلهم اجلّ من ذلك وعدالتهم مانعة منه وفرار عبد
الله بن عمر من ذلك محمول على تورّعه عن الدخول فى شئ
من الامور مباحا كان او محظورا كما هو معروف عنه ولم يبق
فى المخالفة لهذا العهد الذى اتّفق عليه الجمهور الا ابن
الزبير وندور المخالف معروف ثم انه وقع مثل ذلك من

Digitized by Google

بعد معاوية من الخلفاء الذين كانوا يتحرّون الحقّ ويعملون
به مثل عبد الملك وسليمان من بنى امية والسفّاح
والمنصور والمهدى والرشيد من بنى العباس وامثالهم ممّن
عرفت عدالتهم وحسن رايهم للمسلمين والنظر لهم ولا
يعاب عليهم ايثار ابنائهم واخوانهم وخروجهم عن سنن الخلفاء
الاربعة فى ذلك فشأنهم غير شأن اولئك الخلفاء فانهم
كانوا على حين لم تحدث طبيعة الملك وكان الوازع دينيا
فعند كل احد وازع من نفسه فعهدوا الى من يرتضيه الدين
فقط وآثروه على غيره ووكّلوا كل احد ممن يسمو الى ذلك
الى وازعه واما من بعدهم من لدن معاوية فكانت العصبيّة
قد اشرفت على غايتها من الملك والوازع الدينى قد
ضعف واحتيج الى الوازع السلطانى والعصبانى فلو قد عهد
الى غير من ترتضيه العصابة لردّت ذلك العهد وانتقض امره
سريعا وصارت الجماعة الى الفرقة والاختلاف سال رجل عليا
رضى الله عنه ما بال الناس اختلفوا عليك ولم يختلفوا على
ابى بكر وعمر فقال لان ابا بكر وعمر كانا واليين على
مثلى وانا اليوم والٍ على مثلك يشير الى وازع الدين افلا
ترى الى المامون لما عهد الى على بن موسى بن جعفر
الصادق وسماه الرضى كيف انكرت العباسيّة ذلك
ونقضوا بيعته وبايعوا لعمّه ابراهيم بن المهدى وظهر من

Digitized by Google

PROLÉGOMÈNES d'Ebn-Khaldoun.

الهرج والخلاف وانقطاع السبل وتعدّد الثوّار والخوارج ما كاد
ان يصطلم الامر حتى بادر المامون من خراسان الى بغداذ
وردّ امرهم لمعاهده فلا بدّ من اعتبار ذلك فى العهد فالعصور
تختلف باختلاف ما يحدث فيها من الامور والقبايل
والعصبيّات وتختلف باختلافها المصالح ولكلّ منها حكم
يخصّه لطفا من الله بعباده واما ان يكون القصد بالعهد
حفظ التراث على الابناء فليس من المقاصد الدينيّة اذ هو امر
من الله يختصّ به من يشاء فينبغى ان تحسن النية فيه ما
امكن خوفا من العبث بالمناصب الدينيّة والملك لله يؤتيه
من يشاء من عباده (وعرض) هنا امور تدعو الضرورة الى بيان
الحقّ فيها فالاولى منها ما حدث فى يزيد من الفسق
ايام خلافته فايّاك ان تظنّ بمعاوية رضى الله عنه انه علم
ذلك من يزيد فانه اعدل عن ذلك وافضل بل قد كان
يعذله ايام حياته فى سماع الغناء ونهاه عنه وهو اقلّ من ذلك
وكانت مذاهبهم فيه مختلفة ولما حدث فى يزيد ما حدث
من الفسق اختلف الصحابة يومئذ فى شأنه فمنهم من راى
الخروج عليه ونقض بيعته من اجل ذلك كما فعل الحسين
وعبد الله بن الزبير رضى الله عنهما ومن اتبعهما فى ذلك
ومنهم من اباه لما فيه من اثارة الفتنة وكثرة القتل مع
العجز عن الوفاء به لان شوكة يزيد يومئذ هى عصبيّة بنى

Digitized by Google

امية وجمهور اهل الحلّ والعقد من قريش وتستتبع عصبيّة
مضر اجمع فهى اعظم من كل شوكة ولا تطاق مقاومتهم
فاقصروا عن يزيد بسبب ذلك واقاموا على الدعاء بهدايته
او الراحة منه وهذا كان شأن جمهور المسلمين والكل مجتهدون
ولا نكير على احد من الفريقين فمقاصدهم فى البرّ وتحرّى
الحقّ معروفة وفّقنا الله للاقتداء بهم والثانى هو شأن العهد
من النبى صلى الله عليه وسلم وما يدّعيه الشيعة من وصيّته
لعلىّ رضى الله عنه وهو امر لم يصحّ ولا نقله احد من ايمّة
النقل والذى وقع فى الصحيح من طلب الدواة والقرطاس
لكتب الوصية وان عمر منع من ذلك فدليل واضح على
انه لم يقع وكذا قول عمر رضى الله عنه حين طعن وسئل
فى العهد فقال ان اعهد فقد عهد من هو خير منّى يعنى
ابا بكر وان اترك فقد ترك من هو خير منّى يعنى النبى
صلى الله عليه وسلم والصحابة حاضرون موافقون له على
ان النبى صلى الله عليه وسلم لم يعهد وكذلك قول على
للعباس رضى الله عنهما حين دعاه الى الدخول على النبى
صلى الله عليه وسلم يسالانه عن شأنهما فى العهد فابى
على من ذلك وقال انه ان منعنا منها فلا نطمع فيها آخر
الدهر وهذا دليل على ان عليا علم انه لم يوص ولا عهد
لاحد وشبهة الامامية فى ذلك انّما هى كون الامامة من

Digitized by Google

اركان الايمان كما يزعمون وليس كذلك وانّما هى من
المصالح العامّة المفوّضة الى نظر الخلق ولو كانت من اركان
الايمان لكان شأنها شأن الصلاة ولكان يستخلف فيها كما
استخلف ابا بكر فى الصلاة ولكان يشتهر كما اشتهر امر
الصلاة واحتجاج الصحابة على خلافة ابى بكر بقياسها على
الصلاة فى قولهم ارتضاه رسول الله صلى الله عليه وسلم
لديننا افلا نرضاه لدنيانا دليل على ان الوصية به لم تقع ويدلّ
ذلك ايضا على ان امر الامامة والعهد بها لم يكن مهمّا
كما هو اليوم وشأن العصبيّة المراعاة فى الاجتماع والافتراق
فى مجارى العادة لم يكن يومئذ بذلك الاعتبار لان امر
الدين والاسلام كان كله بخوارق العادة من تاليف القلوب
عليه واستمالة الناس دونه وذلك من اجل الاحوال التى
كانوا يشاهدونها فى حضور الملائكة لنصرهم وتردّد
خبر السماء بينهم وتجدّد خطاب الله فى كل حادثة يتلى
عليهم فلم يحتج الى مراعاة العصبيّة لها شمل الناس من
صبغة الانقياد والاذعان وما يستفزّهم من تتابع هذه المعجزات
الخارقة والاحوال الالهيه الواقعة والملائكة المتردّدة التى وجموا
لها ودهشوا من تتابعها فكان امر الخلافة والملك والعهد
والعصبيّه وساير هذه الانواع مندرجا فى ذلك العباب كما
وقع فلما انحسر ذلك الهدد بذهاب تلك المعجزات

Digitized by Google

ثم بفناء القرون الذين شاهدوها فاستحالت تلك الصبغة
قليلا قليلا وذهبت آثار الخوارق وصار الحكم للعادة كما كان
فاعتبر امر العصبيّة ومجارى العوايد فيها ينشاء عنها من
المصالح والمفاسد واصبحت الخلافة والملك والعهد بهما
من المهمّات الاكيدة كما زعموه ولم يكن ذلك من قبل
فانظر كيف كانت الخلافة لعهد النبى صلى الله عليه
وسلم غير مهمّة فلم يعهد فيها ثم تدرّجت الاهمّيّة ازمان
الخلفاء بعض الشئ بما دعت الضرورة اليه فى الحماية (1)
والجهاد وشأن الردّة والفتوحات فكانوا بالخيار فى الفعل
والترك كما ذكرنا عن عمر رضى الله عنه ثم صارت اليوم
من اهمّ الامور للالفة على الحماية والقيام بالمصالح فاعتبرت
فيها العصبيّة التى هى سرّ الوازع عن الفرقة والتخاذل ومنشاء
الاجتماع والتوافق الكفيل بمقاصد الشريعة واحكامها والامر
الثالث شأن الحروب الواقعة فى الاسلام بين الصحابة
والتابعين واعلم ان اختلافهم انّما يقع فى الامور الدينية وينشاء عن
الاجتهاد فى الادلّة الصحيحة والمدارك المعتبرة والمجتهدون
اذا اختلفوا عن الادلّة فان قلنا ان الحقّ فى المسائل
الاجتهاديّة واحد من الطرفين ولم يصادفه فهو مخطئ فان
جهته لا تتعيّن باجماع فيبقى الكل على احتمال الاصابة

(1) Man. A. et B. الجماعة.

Digitized by Google

ولا يتعيّن المخطئ منها والتأثيم مدفوع عن الكل اجماعا وان قلنا
ان الكل حقّ وكل مجتهد مصيب فاحرى بنفى الخطاء والتأثيم
وغاية الخلاف الذى بين الصحابة والتابعين انه خلاف
اجتهادى فى مسائل دينيّة ظنّيّة وهذا حكمه والذى وقع من
ذلك فى الاسلام انّما هى واقعة علىّ مع معاوية ومع
الزبير وطلحة وعايشة وواقعة الحسين مع يزيد وواقعة ابن
الزبير مع عبد الملك (واما واقعة على) فان الناس عند مقتل
عثمان كانوا مفترّقين فى الامصار فلم يشهدوا بيعة على
والذين شهدوا فمنهم من بايع (1) ومنهم من توقّف حتى
يجتمع الناس ويتّفقوا على امام كسعد وسعيد وابن عمر
واسامة بن زيد والمغيرة بن شعبة وعبد الله بن سلام وقدامة
من مظعون وابى سعيد الخدرى وكعب بن عجرة وكعب
بن مالك والنعمان بن بشير وحسان بن ثابت
ومسلمة بن مخلد وفضالة بن عبيد وامثالهم من اكابر
الصحابة والذين كانوا فى الامصار عدلوا عن بيعته ايضا الى
الطلب بدم عثمان وتركوا الامر فوضى حتى تكون
شورى بين المسلمين فيمن يولونه وظنّوا بعلى هوادة فى
السكوت عن نصر عثمان من قاتليه لا فى المهالات (2)
عليه فحاش لله ولقد كان معاوية اذا صرّح بملامته انّما

(1) Man. A. et B. تابع.

(2) Man. A. المحالاة. B. المهالة.

Digitized by Google

يوجّهها عليه فى سكوته فقط ثم اختلفوا بعد ذلك فراى
على ان بيعته قد انعقدت ولزمت من تاخّر عنها باجماع (1)
من اجتمع عليها بالمدينة دار النبى صلى الله عليه وسلم
وموطن الصحابة وارجاء الامر في المطالبة بدم عثمان الى
اجتماع الناس واتّفاق الكلمة فيتمكّن حينئذ من ذلك وراى
الاخرون ان بيعته لم تنعقد لافتراق الصحابة اهل الحلّ
والعقد بالآفاق ولم يحضر الا القليل ولا تكون البيعة الا باتّفاق
اهل الحلّ والعقد ولا تلزم لعقد من تولاها من غيرهم او من
القليل منهم وان المسلمين حينئذ فوضى فيطالبون اولا بدم
عثمان ثم يجتمعون على امام وذهب الى هذا معاوية وعمرو
بن العاص وامّ المومنين عايشة والزبير وابنه عبد الله وطلحة
وابنه محمّد وسعد وسعيد والنعمان بن بشير ومعاوية بن
جديج ومن كان على رايهم من الصحابة الذين تخلّفوا عن
بيعة على بالمدينة كما ذكرنا الا ان اهل العصر الثانى من
بعدهم اتّفقوا على انعقاد بيعة على ولزومها للمسلمين اجمعين
وتصويب رايه فيما ذهب اليه وتعيين الخطاء فى جهة
معاوية ومن كان على رايه وخصوصا طلحة والزبير
لانتقاضهما على على بعد البيعة له فيما نقل مع دفع
التأثيم عن كل واحد من الفريقين كالشأن فى المجتهدين

(1) Man. C. et D. باجتماع.

Digitized by Google

وصار ذلك اجماعا من اهل العصر الثانى على احد قولى
اهل العصر الاول كما هو معروف ولقد سئل على رضى الله
عنه عن قتلى الجمل وصفّين فقال والذى نفسى بيده
لا يموتن احد من هولاء وقلبه نقى الا ادخله الله الجنّة يشير
الى الفريقين نقله الطبرى وغيره فلا يقعن عندك ريب
فى عدالة احد منهم ولا قدح بشئ من ذلك فهم من علمت
وافعالهم واقوالهم انّما هى عن المستندات وعدالتهم مفروغ
منها عند اهل السنّة الا قولا للمعتزلة فيمن قاتل عليا لم
يلتفت اليه احد من اهل الحقّ ولا عرج عليه واذا نظرت
بعين الانصاف عذرت الناس اجمعين فى الاختلاف فى
شأن عثمان واختلاف الصحابة من بعده وعلمت انها كانت
فتنة ابتلى بها الامّة بينا المسلمون قد اذهب الله عدوّهم
وملكهم ارضهم وديارهم ونزلوا الامصار على حدودهم بالبصرة
والكوفة والشام ومصر وكان اكثر العرب قد نزلوا هذه
الامصار حفاة لم يستكثروا من صحبة النبى صلى الله عليه
وسلم ولا هذبتهم سيره وآدابه ولا ارتاضوا بخلقه مع ما كان
فيهم فى الجاهليّة من الجفاء والعصبيّة والتفاخر والبعد عن
سكينة الايمان واذا بهم عند استفحال الدولة قد اصبحوا فى
ملكة المهاجرين والانصار من قريش وكنانة وثقيف وهذيل
واهل الحجاز ويثرب السابقين الاولين الى الايمان فاستنكفوا

Digitized by Google

من ذلك وغصّوا به لما يرون لانفسهم من التقدّم بانسابهم وكثرتهم ومصادمة فارس والروم مثل قبايل بكر بن وايل وعبد القيس من ربيعة وقبايل كندة والازد من اليمن وقبايل تميم وقيس من مضر وامثالهم فصاروا الى الغضّ من قريش والانفة عليهم والتمريض فى طاعتهم والتعلّل فى ذلك بالتظلّم منهم والاستعداء عليهم والطعن فيهم بالعجز عن السرية والعدول فى القسم عن السويّة (1) وفشت القالة (2) بذلك وانتهت الى اهل المدينة وهم من علمت فاعظموه وابلغوه عثمان فبعث الى الامصار من يكشف الخبر بعث ابن عمر ومحمد بن مسلمة واسامة بن زيد وامثالهم فلم ينكروا على الامراء شيئا ولا راوا عليهم طعنا وادوا ذلك كما علموه فلم ينقطع الطعن من اهل الامصار وما زالت الشناعات تكثر والاشاعات تنمو ورمى الوليد ابن عقبة وهو على الكوفة بشرب الخمر وشهد عليه جماعة منهم وحدّه عثمان وعزله ثم جاء الى المدينة من اهل الامصار يسألون عزل العمّال وشكوا الى على وعايشة والزبير وطلحة وعزل لهم عثمان بعض العمّال فلم ينقطع بذلك السنتهم بل وفد سعيد بن العاص وهو على الكوفة فلما رجع اعترضوه بالطريق وردّوه معزولا ثم انتقل الخلاف بين عثمان ومن معه من

(1) Man. A. et B. التسوية.

(2) Man. A. et B. القايلة.

Digitized by Google

الصحابة بالمدينة ونقموا عليه امتناعه من العزل فابى
الا ان يكون عن جرحة ثم نقلوا النكير الى غير ذلك من
افعاله وهو متمسّك بالاجتهاد وهم ايضا كذلك ثم تجمّع
قوم من الغوغا وجاؤا الى المدينة يظهرون طلب النصفة من
عثمان وهم يضمرون خلاف ذلك من قتله وفيهم من
البصرة والكوفة ومصر وقام معهم فى ذلك على وعايشة
والزبير وطلحة وغيرهم يحاولون تسكين الامور ورجوع عثمان
الى رأيهم فيها وعزل لهم عامل مصر وانصرفوا قليلا ثم
رجعوا وقد لبسوا بكتاب مدلّس يزعمون انهم لقوه فى يد
حامله الى عامل مصر بان يقتلهم وحلف عثمان على ذلك
فقالوا مكّنا من مروان فهو كاتبك فحلف مروان فقال
عثمان ليس فى الحكم اكثر من هذا فحاصروه بداره ثم
بيتوه على حين غفلة من الناس وقتلوه وانفتح باب الفتنة
فلكل من هولاء عذر فيما وقع وكلهم كانوا مهتمّين بامر الدين
ولا يضيعون شيأ من تعلّقاته ثم نظروا بعد هذا الواقع واجتهدوا
والله مطلع على احوالهم وعالم بهم ونحن لا نظنّ بهم الا خيرا
لما شهدت به احوالهم ومقالات الصادق فيهم (واما الحسين)
فانه لما ظهر فسق يزيد عند الكافة من اهل عصره ودعت
شيعة اهل البيت بالكوفة الحسين ان ياتيهم فيقوموا بامره
فراى الحسين ان الخروج على يزيد متعيّن من اجل فسقه

Digitized by Google

لا سيّما على من له القدرة على ذلك وظنّها من نفسه باهليّته وشوكته فاما الاهليّة فكانت كما ظنّ وزيادة واما الشوكة فغلط يرحمه الله فيها لان عصبيّة مضر كانت فى قريش وعصبيّة قريش فى عبد مناف وعصبيّة عبد مناف انما كانت فى بنى امية تعرف ذلك لهم قريش وساير الناس ولا ينكرونه وانّما نسى ذلك اول الاسلام لما شغل الناس من الذهول بالخوارق وامر الوحى وتردّد الملائكة لنصر المسلمين فاغفلوا امور عوايدهم وذهبت عصبيّة الجاهليّة ومنازعها ونسيت ولم يبق الا العصبيّة الطبيعية فى الحماية والدفاع ينتفع بها فى اقامة الدين وجهاد المشركين والدين فيها محكم والعادة معزولة حتى اذا انقطع امر النبوة والخوارق المهولة تراجع الحكم بعض الشئ للعوايد فعادت العصبيّة كما كانت ولمن كانت واصبحت مضر اطوع لبنى امية من سواهم بما كان لهم من ذلك قبل فتبيّن لذلك غلط الحسين الا انه فى امر دنياوىّ لا يضرّه الغلط فيه واما الحكم الشرعى فلم يغلط فيه لانه منوط بظنّه وكان ظنّه القدرة على ذلك ولقد عذله ابن عباس وابن الزبير وابن عمر وابن الحنفيّة اخوه وغيرهم فى مسيره الى الكوفة وعلموا غلطه فى ذلك ولم يرجع عمّا هو بسبيله لما اراده الله (واما) غير الحسين من الصحابة الذين كانوا بالحجاز ومع يزيد

Digitized by Google

بالشام والعراق ومن التابعين لهم فراوا ان الخروج على يزيد
وان كان فاسقا لا يجوز لما ينشاء عنه من الهرج والدماء
فاقصروا عن ذلك ولم يبايعوا الحسين ولا انكروا عليه
ولا اثموه لانه مجتهد وهو اسوة المجتهدين ولا يذهب بك
الغلط ان تقول بتأثيم هولاء لمخالفة الحسين وقعودهم عن
نصره فانهم اكثر الصحابة وكانوا مع يزيد ولم يروا الخروج
عليه وقد كان الحسين يستشهد بهم وهو يقاتل بكربلاء
على فضله وحقّه ويقول سئلوا جابر بن عبد الله وابا سعيد
وانس بن مالك وسهل بن سعد وزيد بن ارقم وامثالهم
ولم ينكر عليهم قعودهم عن نصره ولا تعرّض لذلك لعلمه
انه عن اجتهاد منهم كما كان فعله هو عن اجتهاد منه
وكذلك لا يذهب بك الغلط ان تقول بتصويب قتله
لما كان عن اجتهاد وان كان هو على صواب اجتهاد ويكون
ذلك كما يحد الشافعى والمالكى الحنفى على شرب
النبيذ واعلم ان الامر ليس كذلك وقتاله لم يكن عن
اجتهاد هولاء وان كان خلافه عن اجتهادهم وانّما انفرد بقتاله
يزيد واصحابه ولا تقولن ان يزيد وان كان فاسقا ولم يجز
هولاء الخروج عليه فافعاله عندهم نافذة صحيحة واعلم انه
انّما ينفذ من افعال الفاسق ما كان مشروعا وقتال البغاة من
شرطه ان يكون مع الامام العادل وهو مفقود فى مسئلتنا فلا

Digitized by Google

يجوز قتال الحسين مع يزيد ولا ليزيد بل هى من فعلاته الموكّدة
لفسقه والحسين فيها شهيد مثاب وهو على حقّ واجتهاد
والصحابة الذين كانوا مع يزيد على حقّ ايضا واجتهاد وقد
غلط القاضى ابو بكر بن العربى المالكى فى هذا فقال فى
كتابه المسمى بالقواصم والعواصم ما معناه ان الحسين قتل
بشرع جدّه وهو غلط حمله عليه الغفلة عن اشتراط الامام
العادل فى قتال اهل الآراء (وامّا ابن الزبير) فانه راى فى
خروجه ما راه الحسين وظنّ كما ظنّ وغلطه فى امر
الشوكة اعظم لان بنى اسد لا يقاومون بنى امية فى جاهليّة
ولا اسلام والقول بتعيين الخطاء فى جهة مخالفه كما كان
فى جهة معاوية مع على لا سبيل اليه لان الاجماع هنالك
قضى لنا به ولم نجده هاهنا واما يزيد فعيّن خطاوه فسقه
وعبد الملك صاحب ابن الزبير اعظم الناس عدالة
وناهيك فى عدالته احتجاج مالك بفعله وعدول ابن
عباس وابن عمر الى بيعته عن ابن الزبير وهم معه بالحجاز
مع ان الكثير من الصحابة كانوا يرون ان بيعة ابن الزبير
لم تنعقد لانه لم يحضرها اهل الحلّ والعقد كبيعة مروان
وابن الزبير على خلاف ذلك والكل مجتهدون محمولون
على الحقّ فى الظاهر وان لم يتعيّن فى جهة منهما والقتل
الذى نزل به بعد تقرير ما قررناه يجرى على قواعد الفقه

Digitized by Google

وقوانينه مع انه شهيد مثاب باعتبار قصده وتحرّيه الحقّ هذا هو الذى ينبغى ان يحمل عليه افعال السلف من الصحابة والتابعين فهم خيار الامّة واذا جعلناهم عرضة القدح فمن الذى يختصّ بالعدالة والنبى صلى الله عليه وسلم يقول خير الناس قرنى ثم الذى يلونهم مرّتين او ثلاثا ثم يفشوا الكذب فجعل الخيريّة وهو العدالة مختصّة بالعصر الاول والذى يليه فاياك ان تعوّد نفسك او لسانك التعرّض لاحد منهم ولا يوسوس قلبك بالريب فى شئ مما وقع منهم والتمس لهم مذاهب الحقّ وطرفه ما استطعت فهم اولى الناس بذلك وما اختلفوا الا عن بينة وما قَتَلوا ولا قُتِلوا الا فى سبيل جهاد واظهار حقّ واعتقد مع ذلك ان اختلافهم رحمة لمن بعدهم من الامّة ليقتدى كل احد بمن يختاره منهم ويجعله امامه وهاديه ودليله فافهم ذلك وتبيّن حكم الله فى خلقه واكوانه

فصل فى الخطط الدينيّة الخلافيّة

لما تبيّن ان حقيقة الخلافة نيابة عن صاحب الشرع فى حفظ الدين وسياسة الدنيا فصاحب الشرع متصرّف فى الامرين اما فى الدين فبمقتضى التكاليف الشرعيّة الذى هو مامور بتبليغها وحمل الناس عليها واما سياسة الدنيا فبمقتضى

Digitized by Google

رعايته مصالحهم فى العمران البشرى وقد قدّمنا ان هذا العمران ضرورى للبشر وان رعاية مصالحه كذلك لئلا يفسد ان اهملت وقدّمنا ان الملك وسطوته كافٍ فى حصول هذه المصالح نعم انها تكون اكمل اذا كانت بالاحكام الشرعيّة لانه اعلم بهذه المصالح فقد صار الملك يندرج تحت الخلافة اذا كان اسلاميّا ويكون من توابعها وقد ينفرد اذا كان فى غير الملّة وله على كل حال مراتب خادمة ووظايف تابعة تتعيّن خططا وتتوزّع على رجال الدولة وظايف فيقوم كل واحد بوظيفته حسبما يعيّنه الملك الذى تكون يده عالية عليهم فيتمّ بذلك امره ويحسن قيامه بسلطانه (واما) المنصب الخلافى وان كان الملك يندرج تحته بهذا الاعتبار الذى ذكرناه فتصرّفه الدينى يختصّ بخطط ومراتب لا تعرف الا للخلفاء الاسلاميّين (فلنذكر) الخطط الدينيّة المختصّة بالخلافة ونرجع الى الخطط الملوكيّة السلطانيّة فاعلم ان الخطط الدينيّة الشرعيّة من الصلاة والقضاء والفتيا والجهاد والحسبة كلها مندرج تحت الامامة الكبرى التى هى الخلافة وكانها الامّ الكبير والاصل الجامع وهذه كلها متفرّعة عنها وداخلة فيها لعموم نظر الخلافة وتصرّفها فى ساير احوال الملّة الدينيّة والدنيويّة وتنفيذ احكام الشرع فيها على العموم (فاما امامة الصلاة) فهى ارفع هذه الخطط

Digitized by Google

كلها وارفع من الملك بخصوصه المندرج معها تحت الخلافة ولقد يشهد لذلك استدلال الصحابة فى شأن ابى بكر رضى الله عنه باستخلافه فى الصلاة على استخلافه فى السياسة فى قولهم ارتضاه رسول الله صلى الله عليه وسلم لديننا افلا نرضاه لدنيانا فلولا ان الصلاة ارفع من السياسة لما صحّ القياس واذا ثبت ذلك فاعلم ان المساجد فى المدينة صنفان مساجد عظيمة كثيرة الغاشية معدّة للصلوات المشهودة (1) واخرى دونها مختصّة بقوم او محلّة وليست للصلوات العامّة (فاما) المساجد العظيمة فامرها راجع الى الخليفة او الى من يفوّض اليه من سلطان او وزير او قاض فينصب لها الامام فى الصلوات الخمس والجمعة والعيدين والخسوفين والاستسقاء وتعين ذلك انما هو من طريق الاولى والاستحسان ولئلا يفتات (2) الرعايا عليه بشئ من النظر فى المصالح العامّة وقد يقول بالوجوب فى ذلك من يقول بوجوب اقامة الجمعة فيكون نصب الامام لها عنده واجبا (واما) المساجد المختصّة بقوم او محلّة فامرها راجع الى الجيران ولا يحتاج الى نظر خليفة ولا سلطان واحكام هذه الولاية وشروطها والمولى فيها معروفة فى كتب الفقه ومبسوطة فى كتب الاحكام السلطانية للماوردى وغيره فلا

(1) Man. A. et B. المشهورة.

(2) Man. D. يتفاوت.

Digitized by Google

نطول بذكره (وقد) كان الخلفاء الاولون لا يقلّدونها لغيرهم
من الناس وانظر من طعن من الخلفاء فى المسجد عند
الأيذان بالصلاة وترصدهم بذلك فى اوقاتها يشهد لك
ذلك بمباشرتهم لها وانهم لم يكونوا يستخلفون فيها
وكذا كان حال الدولة الاموية من بعدهم استيثارا بها
واستعظاما لرتبتها (يحكى) عن عبد الملك انه قال لحاجبه
قد جعلت لك حجابة بابى الا عن ثلاثة صاحب الطعام
فانه يفسد بالتأخير والاذن بالصلاة فانه داعٍ الى الله والبريد
فان فى تاخيره فساد القاصية فلها جاءت طبيعة الملك
وعوارضه من الغلظة والترفّع عن مساواة الناس فى دينهم
ودنياهم استنابوا فى الصلاة وكانوا يستاثرون بها فى الاحيان
وفى الصلوات العامّة كالعيدين والجمعة اشادة وتنويها فعل
ذلك كثير من خلفاء بنى العباس والعبيديّين صدر دولتهم
(واما الفتيا) فللخليفة تصفّح اهل العلم والتدريس وردّ الفتيا
الى من هو اهل لها واعانته على ذلك ومنع من ليس
باهل لها وزجره لانها من مصالح المسلمين فى اديانهم
فتجب عليه مراعاتها لئلا يتعرّض لذلك من ليس له
باهل فيضلّ الناس وللمدرّس الانتصاب لتعليم العلم وبثّه
والجلوس لذلك فى المساجد فان كانت من المساجد
العظام التى للسلطان الولاية عليها والنظر فى ايمّتها كما مرّ

Digitized by Google

PROLÉGOMÈNES d'Ebn-Khaldoun.

فلا بدّ من استيذانه فى ذلك وان كانت من مساجد العامّة فلا يتوقّف ذلك على اذن على انه ينبغى ان يكون لكل احد من المفتيين والمدرّسين زاجر من نفسه يمنعه من التصدّى لما ليس له باهل فيضلّ به المستهدى ويزلّ به المسترشد وفى الاثر اجراؤكم على الفتوى اجراؤكم على جراثيم جهنم فللسلطان فيهم لذلك من النظر ما توجبه المصلحة من اجازة او ردّ (واما القضاء) فهو من الوظايف الداخلة تحت الخلافة لانه منصب الفصل بين الناس فى الخصومات حسما للتداعى وقطعا للتنازع الا انه بالاحكام الشرعيّة المتلقاة من الكتاب والسنّة فكان لذلك من وظايف الخلافة ومندرجا فى عمومها وكان الخلفاء فى صدر الاسلام يباشرونه بانفسهم ولا يجعلون القضاء فى شئ الى سواهم واول من دفعه الى غيره وفوّض فيه عمر رضى الله عنه فولى ابا الدردا معه بالمدينة وولى شريحا بالبصرة وولى ابا موسى الاشعرى بالكوفة وكتب له فى ذلك الكتاب المشهور الذى تدور عليه احكام القضاء وهى مستوفاة فيه (اما بعد) فان القضاء فريضة محكمة وسنّة متبعة فافهم اذا ادلى اليك فانه لا ينفع تكلّم بحقّ لا نفاذ له واس بين الناس فى وجهك وعدلك ومجلسك حتى لا يطمع شريف فى حيفك ولا ييأس ضعيف من عدلك البينة على

Digitized by Google

من ادّعى واليمين على من انكر والصلح جايز بين المسلمين
الا صلحا احلّ حراما او حرّم حلالا ولا يمنعنك قضاء قضيته
امس فراجعته اليوم فيه عقلك وهديت فيه لرشدك ان
ترجع الى الحقّ فان الحقّ قديم ومراجعة الحقّ خير من
التمادى فى الباطل الفهم فيما تلجلج فى صدرك مما
ليس فى كتاب ولا سنّة ثم اعرف الامثال والاشباه وقس
الامور بنظايرها واجعل لمن ادّعى حقّا غايبا او بينة امدا
ينتهى اليه فان احضر بينة اخذت له بحقّه والا استحللت
القضيّة عليه فان ذلك انفى للشكّ واجلى للعمى
المسلمون عدول بعضهم فى بعض الا مجلودا فى حدّ او
مجربا عليه شهادة زور او ظنينا (1) فى ولاء او نسب فان الله
سبحانه عفى عن الايمان ودراء بالبينات واياك والقلق
والضجر والتاذّى بالخصوم فان استقرار الحقّ فى مواطن
الحقّ يعظم الله به الاجر ويحسن به الذكر والسلام انتهى
كتاب عمر وانّما كانوا يقلّدون القضاء لغيرهم وان كان ممّا
يتعلق بهم لقيامهم بالسياسة العامّة وكثرة اشغالها من
الجهاد والفتوحات وسدّ الثغور وحماية البيضة ولم يكن
ذلك ممّا يقوم به غيرهم لعظيم العناية به فاستخفوا امر
القضاء فى الواقعات بين الناس واستخلفوا فيه من يقوم به

(1) Man. A. et C. ظنيا. D. ضنينا.

Digitized by Google

PROLÉGOMÈNES d'Ebn-Khaldoun.

تخفيفا عن انفسهم وكانوا مع ذلك انّما يقلّدونه اهل
عصبيتهم بالنسب او الولاء ولا يقلّدونه لمن بعد عنهم فى
ذلك وامّا احكام هذا المنصب وشروطه فمعروفة فى كتب
الفقه وخصوصا كتب الاحكام السلطانيّة لان القاضى انّما
كان له فى عصر الخلفاء الفصل بين الخصوم فقط ثم دفع
لهم بعد ذلك امور اخرى على التدريج بحسب اشتغال
الخلفاء والملوك بالسياسة الكبرى واستقرّ منصب القضاء
آخر الامر على انه يجمع مع الفصل بين الخصوم استيفاء
بعض الحقوق العامّة للمسلمين بالنظر فى اموال المحجور
عليهم من المجانين واليتامى والمفلسين واهل السفه وفى
وصايا المسلمين واوقافهم وتزويج الايامى عند فقد الاولياء
على راى من يراه والنظر فى مصالح الطرقات والابنية
وتصفّح الشهود والامناء والنوّاب واستيفاء العلم والخبرة فيهم
بالعدالة والجرح ليحصل له الوثوق بهم وصارت هذه كلها
من تعلّقات وظيفته وتوابع ولايته (وقد) كان الخلفاء من قبل
يجعلون للقاضى النظر فى المظالم وهى وظيفة ممتزجة
من سطوة السلطنة ونصفة القضاء وتحتاج الى علو يد وعظيم
رهبة يقمع المظالم من الخصمين ويزجر المتعدّى وكان يمضى
ما عجز القضاة او غيرهم عن امضايه ويكون نظره فى
البينات والتعزير واعتماد الامارات والقراين وتاخير الحكم

Digitized by Google

الى استجلاء الحق وحمل الخصمين على الصلح واستحلاف
الشهود وذلك اوسع من نظر القاضى وكان الخلفاء الاولون
يباشرونها بانفسهم الى ايام المهتدى من بنى العباس وربّما
كانوا يجعلونها لقضاتهم كما فعل على رضى الله عنه مع
قاضيه ابى ادريس الخولانى وكما فعله المامون ليحيى ابن
اكثم والمعتصم لابن ابى داود وربّما كانوا يجعلون للقاضى
قيادة الجهاد فى عساكر الصوايف وكان يحيى ابن
اكثم يخرج ايام المامون بالصايفة الى ارض الروم
وكذا منذر بن سعيد قاضى عبد الرحمن الناصر من
بنى امية بالاندلس وكانت تولية هذه الوظايف
انّما تكون للخلفاء او من يجعلون ذلك له من وزير
مفوّض او سلطان متغلّب (وكان) ايضا النظر فى الجرايم
واقامة الحدود مختصّا فى الدولة العباسية والاموية بالاندلس
والعبيدية بمصر والمغرب راجعا الى صاحب الشرطة وهى
وظيفة اخرى دينية كانت من الوظايف الشرعيّة فى تلك
الدول يوسع النظر فيها عن احكام القضاء قليلا فيجعل للتهمة
فى الحكم مجالا ويفرض العقوبات الزاجرة قبل
ثبوت الجرايم ويقيم الحدود الثابتة فى محلّها ويحكم فى
القود والقصاص ويقيم التعزير والتاديب فى حقّ من لم
ينته الى الجريمة ثم تنوسى شأن هاتين الوظيفتين فى الدول

Digitized by Google

التى تنوسى فيها امر الخلافة فصار امر المظالم راجعل الى السلطان كان له تفويض من الخليفة او لم يكن وانقسمت وظيفة الشرطة قسمين منهما وظيفة التهم على الجرايم واقامة حدودها ومباشرة القطع والقصاص حيث يتعيّن ونصب لذلك فى هذه الدول حاكم يحكم فيها بموجب السياسة دون مراجعة الاحكام الشرعيّة ويسمى تارة باسم الوالى وتارة باسم الشرطة وبقى قسم التعازير واقامة الحدود فى الجرايم الثابتة شرعا فجمع للقاضى مع ما تقدّم وصار ذلك من توابع وظيفته وولايته واستقرّ الامر لهذا العهد على ذلك وخرجت هذه الوظيفة عن اهل عصبيّة الدولة لان الامر لما كان خلافة دينية وهذه الخطّة من مراسم الدين فكانوا لا يولون فيها الا من اهل عصبيّتهم من العرب ومواليهم بالحلف او الرقّ او بالاصطناع ممّن يوثق بكفايته وغنايه فيما يدفع اليه ولما انقرض شأن الخلافة وظهورها وصار الامر كله ملكا وسلطانا صارت هذه الخطط الدينيّة بعيدة عنه بعض الشئ لانها ليست من القاب الملك ولا مراسمه ثم خرج الامر جملة عن العرب وصار الملك لسواهم من امم الترك والبربر فازدادت هذه الخطط الخلافيّة بعدا عنهم بمنحاها وعصبيّتها وذلك ان العرب كانوا يرون ان الشريعة دينهم والنبى صلى الله عليه وسلم منهم واحكامه

Digitized by Google

وشرايعه نحلتهم بين الامم وطريقهم وغيرهم لا يرون ذلك
انّما يولونها جانبا من التعظيم لما دانوا بالملّة فقط فصاروا
يقلدونها من غير عصابتهم ممن كان تأهّل لها فى دول
الخلفاء السالفة وكان اولئك المتاهّلون بما اخذهم ترف
الدول منذ مئين من السنين قد نسوا عهد البداوة وخشونتها
والتبسوا بالحضارة فى عوايد ترفهم ودعتهم وقلّة الممانعة عن
انفسهم وصارت هذه الخطط فى الدول الملوكيّة من بعد
الخلفاء مختصّة بهذا الصنف من المستضعفين فى اهل
الامصار ونزل اهلها عن مراتب العزّ لفقد الاهليّة بانسابهم
وما هم عليه من الحضارة فلحقهم من الاحتقار ما يلحق
الحضر المنغمسين فى الترف والدعة البعدا عن عصبيّة
الملك الذين هم عيال على الحامية وصار اعتبارهم فى
الدولة من اجل قيامها بالملّة واخذها باحكام الشريعة لها
انهم الحاملون للاحكام المفتون بها ولم يكن ايثارهم فى
الدولة حينئذ اكراما لذواتهم وانما هو لما يتلمّح من التجمّل
بمكانهم فى مجالس الملك لتعظيم الرتب الشرعيّة ولم
يكن لهم فيها من الحلّ والعقد شئ وان حضروه فحضور
رسمى لا حقيقة وراءه اذ حقيقة الحلّ والعقد انّما هو لاهل
القدرة عليه فمن لا قدرة له عليه فلا حلّ ولا عقد لديه اللهمّ
اخذ الاحكام الشرعية عنهم وتلقى الفتاوى منهم فنعم والله

Digitized by Google

الموفّق (وربّما) يظنّ بعض الناس ان الحقّ فيما وراء ذلك
وان فعل الملوك فيما فعلوه من اخراج الفقهاء والقضاة عن
الشورى مرجوح وقد قال صلى الله عليه وسلم العلماء ورثة
الانبياء فاعلم ان ذلك ليس كما ظنّه وحكم الملك
والسلطان انّما يجرى على ما تقتضيه طبيعة العمران والا كان
بعيدا عن السياسة وطبيعة العمران فى هولاء لا تقتضى لهم
بشئ من ذلك لان الشورى والحلّ والعقد انما يكون
لصاحب عصبيّة يقتدر بها على حلّ او عقد او فعل او ترك
واما من لاعصبيّة له ولا يملك من امر نفسه شيًا ولا من
حمايتها وانما هو عيال على غيره فاى مدخل له فى الشورى
او اى معنى يدعو الى اعتباره فيها اللهمّ شوراه فيما يعلمه
من الاحكام فموجودة فى الاستفتاء خاصّة واما شوراه فى
السياسة فهو بعيد عنها لفقدانه العصبيّة والقيام على معرفة
احوالها واحكامها وانّما اكرامهم من تبرّعات الملوك والامراء
الشاهدة لهم بجميل الاعتقاد فى الدين وتعظيم من ينسب
اليه باى جهة انتسب واما قوله صلى الله عليه وسلم
العلماء ورثة الانبياء فاعلم ان الفقهاء فى الاغلب لهذا العهد
وما احتقّ به انّما حملوا الشريعة اقوالا فى كيفية الاعمال
فى العبادات وكيفية القضاء فى المعاملات ينصّونها على
من يحتاج الى العمل بها هذه غاية اكابرهم ولا يتّصفون

Digitized by Google

الا بالاقلّ منها وفى بعض الاحوال والسلف رضي الله عنهم
واهل الدين والورع من المسلمين حملوا الشريعة اتّصافا بها
وتحقيقا (1) بمذاهبها فمن حملها اتّصافا وتحقيقا (2) دون
نقل فهو من الوارثين مثل اهل رسالة القشيرى ومن اجتمع
له الامران فهو العالم وهو الوارث على الحقيقة مثل فقهاء
التابعين والسلف والايمّة الاربعة ومن اقتفى طريقهم وجاء
على اثرهم واذا انفرد واحد من الامّة باحد الامرين فالعابد
احقّ بالوراثة من الفقيه الذى ليس بعابد لانّ العابد ورث
صفة والفقيه الذى ليس بعابد لم يرث شيًا انما هو صاحب
اقوال ينصّها علينا فى كيفيّات العمل وهولاء اكثر فقهاء
عصرنا الا الذين امنوا وعملوا الصالحات وقليل ما هم (العدالة)
وهى وظيفة دينية تابعة للقضاء ومن موارد تصريفه وحقيقة هذه
الوظيفة القيام عن اذن القاضى بالشهادة بين الناس فيما لهم
وعليهم تحمّلا عند الاشهاد واداء عند التنازع وكتابا فى
السجلّات يحفظ به حقوق الناس واملاكهم وديونهم وساير
معاملاتهم وانّما قلنا عن اذن القاضى لان الناس قد اختلطوا
وخفى التعديل والجرح الا على القاضى فكانه انما ياذن
لمن ثبت عنده عدالته ليحفظ على الناس امورهم ومعاملاتهم
وشرط هذه الوظيفة الاتّصاف بالعدالة الشرعيّة والبراءة من

(1) Man. C. تحقّقا.

(2) Man. تحقّقا.

Digitized by Google

PROLÉGOMÈNES d'Ebn-Khaldoun.

الجرح ثم القيام بكتاب السجلّات والعقود من جهة رعايتها وانتظام فصولها ومن جهة الاحكام شروطها الشرعية وعقودها فيحتاج حينئذ الى ما يتعلّق بذلك من الفقه ولاجل هذه الشروط وما يحتاج اليه من المران على ذلك والممارسة له اختصّ ذلك ببعض العدول وصار الصنف القايمون به كأنّهم مختصّون بالعدالة وليس كذلك وانّما العدالة من شروط اختصاصهم بالوظيفة ويجب على القاضى تصفّح احوالهم والكشف عن سيرهم رعاية لشرط العدالة فيهم وان لا يهمل ذلك لما يتعيّن عليه من حفظ حقوق الناس فالعهدة عليه فى ذلك كله وهو ضامن دركه واذا تعيّن هولاء لهذه الوظيفة عمّت الفايدة بهم فى تعديل من تخفى عدالته على القضاة بسبب اتّساع الامصار واشتباه الاحوال واضطرار القضاة الى الفصل بين المتنازعين بالبيّنات الموثوقة فيعوّلون غالبا فى الوثوق بها على هذا الصنف ولهم فى ساير الامصار دكاكين ومصاطب يختصّون بالجلوس فيها ليتعاهدهم اصحاب المعاملات للاشهاد وتقييده بالكتاب وصار مدلول هذه اللفظة مشتركا بين هذه الوظيفة التى يتبيّن مدلولها وبين العدالة الشرعيّة التى هى اخت الجرح وقد يتواردان ويفترقان والله سبحانه اعلم (الحسبة والسكّة) اما الحسبة فهى وظيفة دينيّة من باب

Digitized by Google

الامر بالمعروف والنهى عن المنكر الذى هو فرض على القايم بامور المسلمين يعيّن لذلك من يراه اهلا له فيتعيّن فرضه عليه ويتّخذ الاعوان على ذلك ويبحث عن المنكرات ويعزّر ويؤدّب على قدرها ويحمل الناس على المصالح العامّة فى المدينة مثل المنع من المضايقة فى الطرقات ومنع الحمّالين واهل السفن من الاكثار فى الحمل والحكم على اهل المبانى المتعيّنة للسقوط بهدمها وازالة ما يتوقّع من ضررها على السابلة والضرب على ايدى المعلّمين بالمكاتب وغيرها فى الابلاغ فى ضربهم للصبيان المتعلّمين ولا يتوقّف حكمه على تنازع او استعداء بل له النظر والحكم فيما يصل الى علمه من ذلك ويرفع اليه وليس له ايضا الحكم فى الدعاوى مطلقا بل فيما يتعلّق بالغشّ والتدليس فى المعايش وغيرها وفى المكاييل والموازين وله ايضا حمل الماطلين على الانصاف وامثال ذلك مما ليس فيه سماع بينة ولا نفاذ حكم وكانّها احكام ينزّه عنها القضاء لعمومها وسهولة اغراضها فتدفع الى صاحب هذه الوظيفة ليقوم بها فوضعها على ذلك ان تكون خادمة لمنصب القضاء وقد كانت فى كثير من الدول الاسلاميّة مثل العبيديّين بمصر والمغرب والامويّين بالاندلس داخلة فى عموم ولاية القاضى يولى فيها باختياره ثم لما انفردت وظيفة السلطان عن الخلافة وصار

Digitized by Google

PROLÉGOMÈNES d'Ebn-Khaldoun.

نظره عاما فى امور السياسة فاندرجت فى وظايف الملك
وانفردت بالولاية (واما السكّة) فهى النظر فى النقود المتعامل
بها بين المسلمين وحفظها مما يداخلها من الغشّ او النقص
ان كانت يتعامل بها عددا وما يتعلّق بذلك ويوصل اليه
من جميع الاعتبارات ثم فى وضع علامة السلطان على تلك
النقود بالاستجادة والخلوص ترسم تلك العلامة فيها من
خاتم حديد اتّخذ لذلك ونقش فيه نقوش خاصّة به
فتوضع على الدينار او الدرهم بعد ان يقدر ويضرب عليه
بالمطرقة حتى ترتسم فيه تلك النقوش وتكون علامة على
جودته بحسب الغاية التى وقف عندها السبك والتخليص
فى متعارف اهل القطر (1) ومذهب الدولة الحاكمة فان
السبك والتخليص فى النقود لا يقف عند غاية وانّما ترجع
غايته الى الاجتهاد فاذا اتّفق اهل افق او قطر على غاية من
التخليص وقفوا عندها وسموه اماما وعيارا يعتبرون به نقودهم
وينتقدونها بمماثلته فان نقص عن ذلك كان زيفا والنظر
فى ذلك كله لصاحب هذه الوظيفة وهى دينية بهذا الاعتبار
فتندرج تحت الخلافة ولقد كانت تدخل فى عموم ولاية
القضاء ثم انفردت لهذا العهد بالولاية كما وقع فى الحسبة
(هذا) آخر الكلام فى الوظايف الخلافيّة وبقيت منها وظايف

(1) Man. A. et B. النظر.

Digitized by Google

ذهبت بذهاب ما ينظر فيه واخرى صارت سلطانيّة فوظيفة الامارة والوزارة والحرب والخراج صارت سلطانيّة نتكلّم عليها فى مكانها بعد ووظيفة الجهاد بطلت ببطلانه الا فى قليل من الدول يمارسونه ويدرجون احكامه فى غالب السلطانيات وكذا نقابة الانساب التى يتوصّل بها الى الخلافة او الحقّ فى بيت المال وقد بطلت لدثور الخلافة ورسومها وبالجملة فقد اندرجت (1) رسوم الخلافة ووظايفها فى رسوم الملك والسياسة فى ساير الدول لهذا العهد والله مصرّف الامور بحكمه

فصل فى اللقب بامير المومنين وانه من سمات الخلافة

وهو محدث منذ عهد الخلفاء وذلك انه لما بويع ابو بكر رضى الله عنه كان الصحابة وساير المسلمين يسمّونه خليفة رسول الله ولم يزل الامر على ذلك الى ان هلك فلما بويع لعمر رضى الله عنه بعهده اليه كانوا يدعونه خليفة خليفة رسول الله وكانّهم استثقلوا هذا اللقب لطوله وكثرة اضافاته وانه يتزيّد فيما بعد دايما الى ان ينتهى الى الهجنة ويذهب منه التهييز بتعدّد المضافات وكثرتها فلا يعرف فكانوا يعدلون عن هذا اللقب الى سواه مما يناسبه ويدعى

(1) Man. A. et B. اندرست.

Digitized by Google

به مثله وكانوا يسمون قوّاد البعوث باسم الامير وهو فعيل
من الامارة وقد كان الجاهلية يدعون النبى صلى الله عليه
وسلم امير مكة وامير الحجاز وكان الصحابة ايضا يدعون
سعد ابن ابى وقاص امير المسلمين لامارته على جيش
القادسية وهو معظم المسلمين يومئذ واتّفق ان بعض الصحابة
نادى عمر رضى الله عنه باسم امير المومنين فاستحسنه الناس
واستصوبوه ودعوه به يقال اول من دعاه بذلك عبد الله بن
جحش وقيل عمرو بن العاص والمغيرة ابن شعبة وقيل بريد
جاء بالفتح من بعض البعوث ودخل المدينة وهو يسأل عن
عمر ويقول اين امير المومنين وسمعها اصحابه فاستحسنوه
وقالوا اصبت والله اسمه انه امير المومنين حقّا فدعوه به
وذهب لقبا له فى الناس وتوارثه الخلفاء من بعده سمة
لا يشاركهم فيها احد سواهم ساير دولة بنى امية (ثم) ان
الشيعة خصّوا عليّا رضى الله عنه باسم الامام نعتا له بالامامة
التى هى اخت الخلافة وتعريضا بمذهبهم فى انه احقّ
بامامة الصلاة من ابى بكر كما هو مذهبهم وبدعتهم فخصّوه
بهذا اللقب ولمن يسوقون اليه منصب الخلافة من بعده
فكان كلهم يسمى بالامام ما داموا يدعون لهم فى الخفاء
حتى اذا يستولون على الدولة يحوّلون اللقب فيمن بعده
الى امير المومنين كما فعله شيعة بنى العباس فانهم ما زالوا

Digitized by Google

يدعون ايمّتهم بالامام الى ابراهيم الذى جهروا بالدعا له
وعقدوا الرايات للحرب على امره فلما هلك دعى اخوه
السفّاح بامير المومنين .وكذا الرافضة بافريقية ما زالوا يدعون
الايمّة من ولد اسمعيل بالامام حتى انتهى الامر لعبيد الله
المهدى وكانوا ايضا يدعونه بالامام ولابنه ابى القسم من
بعده فلما استوثق لهما الامر دعوا من بعدهما امير المومنين
وكذا الادارسة بالمغرب كانوا يدعون ادريس بالامام وابنه
ادريس الاصغر كذلك وهكذا شأنهم وتوارث الخلفاء هذا
اللقب بامير المومنين وجعلوه سمة لمن يملك الحجاز
والشام والعراق المواطن التى هى ديار العرب ومراكز الدولة
واصل الملّة والفتح وازداد لذلك فى عنفوان الدولة وبذخها لقب
اخر للخلفاء يتميّز به بعضهم عن بعض لما فى امير المومنين
من الاشتراك بينهم فاستحدث ذلك بنو العباس حجابا
لاسمائهم الاعلام عن امتهانها فى السنة السوقة وصونا لها عن
الابتذال فتلقّبوا بالسفّاح والمنصور والهادى والمهدى والرشيد
الى آخر الدولة واقتفى اثرهم فى ذلك العبيديون بافريقية
ومصر وتجافى بنو امية عن ذلك اما بالمشرق قبلهم فجريا مع
الغضاضة والسذاجة لان العروبية ومنازعها لم تفارق حينئذ
ولم يتحوّل عنهم شعار البداوة الى شعار الحضارة واما
بالاندلس فتقليدا لسلفهم مع ما عملوه من انفسهم من

Digitized by Google

القصور عن ذلك بالقصور عن الخلافة التى استاثر بها بنو
العباس ثم بالعجز عن ملك الحجاز اصل العرب والهلّة
والبعد عن دار الخلافة التى هى مركز العصبيّة وانهم انّما منعوا
بامارة القاصية انفسهم من مهالك بنى العباس حتى اذا جاء
عبد الرحمن الآخر منهم وهو الناصر بن الامير عبد الله بن محمد
بن عبد الرحمن الاوسط لاول الماية الرابعة واشتهر ما نال
الخلافة بالمشرق من الحجر واستبداد الموالى وعيثهم فى
الخلفاء بالعزل والاستبدال والقتل والسهل ذهب عبد الرحمن
هذا الى مثل مذاهب الخلفاء بالمشرق وافريقية وتسمّى
بامير المومنين وتلقّب بالناصر لدين الله واخذت من بعده عادة
ومذهبا لقن عنه ولم يكن لابائه وسلف قومه واستمرّ الحال
على ذلك الى ان انقرضت عصبيّة العرب اجمع وذهب
رسم الخلافة وتغلّب الموالى من العجم على بنى العباس
والصنايع على العبيديّين بالقاهرة وصنهاجة على امر افريقية
وزناتة على المغرب وملوك الطوايف بالاندلس على امر
بنى امية واقتسموه وافترق امر الاسلام فاختلفت مذاهب
الملوك بالمغرب والمشرق فى الاختصاص بالالقاب بعد ان
تسموا جميعا باسم السلطان فاما ملوك المشرق من العجم
فكان الخلفاء يخصّونهم بالقاب تشريفيّة يستشعر منها
انقيادهم وطاعتهم وحسن ولايتهم مثل شرف الدولة وعضد

Digitized by Google

الدولة وركن الدولة ومعزّ الدولة ونصير الدولة ونظام الملك وبهاء الملك وذخيرة الملك وامثال هذه وكان العبيديّون ايضا يخصّون بها امراء صنهاجة فلما استبدّوا على الخلفاء قنعوا بهذه الالقاب وتجافوا عن القاب الخلافة ادبا معها وعدولا عن سماتها المختصّة بها شأن المتغلّبين المستبدّين كما قلناه قبل ونزع المتاخّرون من اعاجم المشرق حتى قوى استبدادهم على الملك وعلا كعبهم فى الدولة والسلطان وتلاشت عصبيّة الخلافة واضمحلّت بالجملة الى انتحال الالقاب الخاصّة بالملك مثل الناصر والمنصور زيادة الى القاب كانوا يختصّون بها قبل هذا الانتحال مشعرة بالخروج عن ربقة الولاء والاصطناع بما اضافوها الى الدين فقط فيقولون صلاح الدين اسد الدين نور الدين (واما ملوك الطوايف بالاندلس) فاقتسموا القاب الخلافة وتوزّعوها لقوة استبدادهم عليها بما كانوا من قبيلها وعصبيّتها فتلقّبوا بالناصر والمنصور والمعتمد والمظفّر وامثالها كما قال ابن شرف ينعى عليهم ذلك

مما يزهدنى فى ارض اندلس اسماء معتمد فيها ومعتضد
القاب مملكة فى غير موضعها كالهرّ يحكى انتفاخا صورة الاسد

وقد مرّ ذكرها (واما صنهاجة) فاقتصروا على الالقاب التى كان خلفاء العبيديّين يلقبونهم بها للتنويه مثل نصير الدولة

Digitized by Google

وسيف الدولة ومعزّ الدولة واتّصل لهم ذلك لما ادالوا من
دعوة العبيديّين بدعوة العباسيّين ثم بعد الشقّة بينهم وبين
الخلافة ونسوا عهدها فنسوا هذه الالقاب واقتصروا على اسم
السلطان وكذا شأن مغراوة بالمغرب لم ينتحلوا شيًا من هذه
الالقاب الا اسم السلطان جريا على مذاهب البداوة والغضاضة
(ولما) محى اسم الخلافة وتعطّل دستها وقام بالمغرب من
قبائل البربر يوسف بن تاشفين ملك لمتونة فملك
العدوتين وكان من اهل الخير والاقتداء نزعت همّته الى
الدخول فى طاعة الخليفة تكميلا لمراسم دينه فخاطب
المستظهر العباسى واوفد عليه ببيعته عبد الله بن العربى
وابنه القاضى ابا بكر من مشيخة اشبيلية يطلبان توليته اياه
على المغرب وتقليده ذلك فانقلبوا اليه بعهد الخليفة له
على المغرب واستشعار زيّهم فى لبوسه ورايته وخاطبه فيه
بامير المسلمين تشريفا له واختصاصا فاتّخذها لقبا ويقال انه
كان دعى له بامير المسلمين من قبل ادبا مع رتبة الخلافة
لما كان عليه هو وقومه المرابطون من انتحال الدين واتباع
السنّة (وجاء المهدى) على اثرهم داعيا الى الحقّ اخذا
بمذاهب الاشعرية ناعيا على اهل المغرب عدولهم عنها الى
تقليد السلف فى ترك التأويل لظواهر الشريعة وما يؤل اليه
ذلك كما هو معروف من مذهب الاشعرية وسمى اتباعه

Digitized by Google

الموحّدين تعريضا بذلك النكير وكان يرى راى اهل البيت
فى الامام المعصوم وانه لا بدّ منه فى كل زمان يحفظ بوجوده
نظام هذا العالم فسمى بالامام اوّلا لما قلناه من مذهب
الشيعة فى القاب خلفائهم واردف بالمعصوم اشارة الى مذهبه
فى عصمة الامام وتنزّه عنده اتباعه عن امير المومنين اخذا
بمذاهب المتقدّمين من الشيعة ولها فيها من مشاركة الاغمار
والولدان من اعقاب اهل الخلافة يومئذ بالمشرق والمغرب
ثم انتحل عبد المومن ولى عهده اللقب بامير المومنين وجرى
عليه من بعده خلفاء بنى عبد المومن وآل ابى حفص بافريقية
من بعدهم استيثارا به عن سواهم لما دعى اليه شيخهم
المهدى من ذلك وانه صاحب الامر واولياوه من بعده
كذلك دون كل احد لانتفاء عصبيّة قريش وتلاشيها فكان
ذلك دأبهم (ولها) انتقض الامر بالمغرب وانتزعه زناتة
ذهب اوّلوهم مذاهب البداوة والسذاجة واتباع لمتونة فى
انتحال اللقب بامير المسلمين ادبا مع رتبة الخلافة التى
كانوا على طاعتها لبنى عبد المومن اولا ولبنى ابى حفص
من بعدهم ثم نزع المتاخّرون منهم الى اللقب بامير المومنين
وانتحلوه لهذا العهد استبلاغا فى منازع الملك وتتميما
لمذاهبه وسماته والله غالب على امره

Digitized by Google

فصل فى شرح اسم البابا والبطرك فى الملّة النصرانية واسم الكوهن عند اليهود

اعلم ان الملّة لا بدّ من قايم بها عند غيبة النبى يحملهم على احكامها وشرايعها ويكون كالخليفة فيهم للنبى فيما جاءهم به من التكاليف والنوع الانسانى ايضا بما تقدّم من ضرورة السياسة فيه للاجتماع البشرى لا بدّ لهم من شخص يحملهم على مصالحهم ويزعهم عن مفاسدهم بالقهر وهو المسمى بالملك والملّة الاسلاميّة لما كان الجهاد فيها مشروعا لعموم الدعوة وحمل الكافة على دين الاسلام طوعا وكرها اتخذت فيها الخلافة والملك لتوجّه الشوكة من القايمين بها اليهما معا (واما) ما سوى الملّة الاسلامية فلم تكن دعوتهم عامّة ولا الجهاد عندهم مشروعا الا فى المدافعة فقط فصار القايم بامر الدين فيها لا يعنيه شئ من سياسة الملك وانّما وقع الملك لمن وقع منهم بالغرض ولامر غير دينى وهو ما اقتضته لهم العصبيّة بما فيها من الطلب للملك بالطبع كما قدّمناه لا لانهم مكلّفون بالتغلّب على الامم كما فى الملّة الاسلامية وانّما هم مطلوبون باقامة دينهم فى خاصّتهم ولذلك بقى بنو اسرائيل من بعد موسى ويوشع صلوات الله عليهما نحو اربعماية سنة لا يعتنون بشئ من امر الملك انّما همهم اقامة دينهم فقط وكان القايم به

Digitized by Google

بينهم يسمى الكوهن كانه خليفة لموسى صلوات الله
عليه يقيم لم امر الصلوات والقربان ويشترطون فيه
ان يكون من ذرية هارون صلوات الله عليه
لان ذلك كان له ولبنيه بالوحى ثم اختاروا لاقامة
السياسة التى هى للبشر بالطبع سبعين شيخا كانوا يتولون
احكامهم العامّة والكوهن اعظم رتبة منهم فى الدين وابعد
عن شغب الاحكام واتّصل فيهم ذلك الى ان استحكمت
طبيعة العصبيّة وتمخّضت الشوكة فغلبوا الكنعانيين على الارض
التى اورثهم الله ببيت المقدس وما جاورها كما بيّن لهم
على لسان موسى صلوات الله وسلامه عليه فحاربتهم امم
الفلسطين والكنعانيين والارمن (1) واذوم وعمون ومواب
ورياستهم فى ذلك راجعة الى شيوخهم واقاموا على
ذلك نحو اربعماية سنة ولم يكن لهم صولة الملك
وضجر بنو اسرائيل من مغالبة الامم فطلبوا على لسان شمويل
من انبيائهم ان ياذن الله لهم فى تمليك رجل عليهم
فملك عليهم طالوت وغلب الامم وقتل جالوت ملك
فلسطين ثم ملك بعده داود ثم سليمان صلوات الله
عليهما واستفحل ملكه وامتدّ الى الحجاز ثم الى اطراف
اليمن ثم الى اطراف بلاد الروم ثم افترق الاسباط من بعد

(1) Man. B. الارم.

Digitized by Google

سليمان عليه السلام بمقتضى العصبيّة فى الدول كما قدّمناه
الى دولتين كانت احداهما بنواحى نابلس للاسباط العشرة
وكرسى ملكهم صبصطية وقد خربت من لدن بخت
نصر والاخرى بالقدس لبنى يهوذا وبنى يامين ثم غلبهم
بخت نصر ملك بابل على ما كان بايديهم من الملك
اولا الاسباط العشرة فى صبصطية ثم ثانيا بنى يهوذا ببيت
المقدس بعد اتّصال ملكهم نحو الف سنة وخرب مسجدهم
واحرق توراتهم وامات دينهم ونقلهم الى اصبهان وبلاد
العراق الى ان ردّهم بعض ملوك الكينية من الفرس الى
بيت المقدس بعد سبعين سنة من خروجهم فبنوا المسجد
واقاموا امر دينهم على الرسم للكهنونية (1) فقط والملك
للفرس ثم غلب الاسكندر وبنو يونان على الفرس وصار اليهود
فى ملكتهم ثم فشل امر اليونانيين فاعتزّ اليهود عليهم
بالعصبية الطبيعية ودفعوهم عن الاستيلاء عليهم وقام بملكهم
الكهنونية (2) الذين كانوا فيهم من بنى حشمناى وقاتلوا يونان
حتى انقرض امرهم وغلبهم الروم فصاروا تحت امرهم ثم
زحفوا الى بيت المقدس وبها بنو هيردوس اصهار بنى
حشمناى وبقية دولتهم فحاصروهم مدّة ثم افتتحوها عنوة
وافحشوا فى القتل والهدم والتحريق وخربوا بيت المقدس

(1) Man. C. et D. الكهنة.

(2) Man. C. et D. الكهنة.

Digitized by Google

واجلوهم عنها الى رومة وما وراءها وهو الخراب الثانى
للمسجد ويسميه اليهود الجلوة الكبرى فلم يقم لهم بعدها
ملك لفقدان العصبيّة منهم وبقوا بعد ذلك فى ملكة
الروم ومن بعدهم يقيم لهم امر دينهم الرئيس المسمى بالكوهن
(وكان المسيح) صلوات الله وسلامه عليه لما جاءهم بما جاء
به من الدين والنسخ لبعض احكام التوراة وظهرت على
يده الخوارق العجيبة من ابراء المعتوه واحياء الموتى واجتمع
عليه كثير من الناس وآمنوا به واكثرهم الحواريّون اصحابه
وكانوا اثنى عشر وبعث منهم رسلا الى الآفاق داعين الى
ملّته وذلك ايّام اوغشطش اول ملوك القياصرة وفى مدّة
هيردوس ملك اليهود التى انتزع الملك من بنى حشمناى
اصهاره فحسده اليهود وكذّبوه وكاتب هيردوس ملكهم
ملك القياصرة اوغشطش يغريه به فاذن لهم فى قتله ووقع
ما تلاه القران من امره وافترق الحواريّون شيعا ودخل اكثرهم
الى بلاد الروم داعين الى دين النصرانيّة (وكان) بطرس كبيرهم
فنزل برومة دار ملك القياصرة (ثم) كتبوا الانجيل الذى
انزل على عيسى صلوات الله عليه فى نسخ اربع على
اختلاف رواياتهم فكتب متا انجيله فى بيت المقدس
بالعبرانية ونقله يوحنا بن زبدى منهم الى اللسان اللطينى
وكتب لوقا منهم انجيله باللطينى لبعض اكابر الروم وكتب

Digitized by Google

PROLÉGOMÈNES d'Ebn-Khaldoun.

يوحنا بن زبدى انجيله برومة وكتب بطرس انجيله باللطينى
ونسبه الى مرقاس تلميذه واختلفت هذه النسخ الاربع من
الانجيل مع انها ليست كلها وحيا صرفا بل مشوبة بكلام
عيسى عليه السلام وبكلام الحواريّين وغالبها مواعظ وقصص
والاحكام فيها قليلة جدّا (واجتمع) الحواريّون الرسل لذلك
العهد برومة ووضعوا قوانين الملّة النصرانيّة وصيّروها بيد
اقليمنطس تلميذ بطرس وكتبوا فيها عدد الكتب التى يجب
قبولها والعمل بها فمن شريعة اليهود القديمة التوراة وهى
خمسة اسفار وكتاب يوشع وكتاب القضاة وكتاب راعوث
وكتاب يهوذا واسفار الملوك اربعة وسفر بريا يومين
وكتاب المقابيين لابن كريون ثلثة وكتاب عزر الامام
وكتاب اوشير وقصّة هامان وكتاب ايوب الصديق
ومزامير داود عليه السلام وكتاب ابنه سليمان عليه السلام
خمسة ونبوات الانبياء الكبار والصغار ستة عشر وكتاب يوشع
بن شارخ وزير سليمان عليه السلام ومن شريعة عيسى عليه
السلام المتلقاة من الحواريين نسخ الانجيل الاربعة وكتاب
بولس اربع عشرة رسالة وكتاب القتاليقون سبع رسايل
وثامنها الابركسيس فى قصص الرسل وكتاب اقليمنطس
وفيه الاحكام وكتاب ابوغالبسيس (1) وفيه رويا يوحنا بن زبدى

(1) Man. A. B. C. انوغالمسيس.

Digitized by Google

(واختلف) شأن القياصرة فى الاخذ بهذه الشريعة تارة
وتعظيم اهلها ثم تركها اخرى والتسلّط عليهم بالقتل والنفى
الى ان جاء قسطنطين واخذ بها فاستمرّوا عليها (وكان)
صاحب هذا الدين والمقيم لمراسمه يسمونه البطرك وهو
رئيس الملّة عندهم وخليفة المسيح فيهم ويبعث نوّابه وخلفاءه
الى ما بعد عنه من امم النصرانية ويسمونه الاسقف اى نايب
البطرك ويسمون الامام الذى يقيم الصلوات ويفتيهم فى
الدين بالقسيس ويسمون المنقطع الذى حبس نفسه فى
الخلوة للعبادة بالراهب واكثر خلواتهم فى الصوامع (وكان)
بطرس الرسول رأس الحواريين وكبير التلاميذ برومة يقيم بها
دين النصرانية الى ان قتله نيرون خامس القياصرة ثم قام
بخلافته فى كرسى رومة اربوس (وكان) مرقاس الانجيلى
بالاسكندرية ومصر والمغرب داعيا سبع سنين فقام بعده
حنانيا وتسمى بالبطرك وهو اول البطاركة فيها وجعل معه
اثنى عشر قسّا على انه اذا مات البطرك يكون واحد من
الاثنى عشر مكانه ويختار من المومنين واحدا مكان ذلك
الثانى عشر فكان امر البطاركة الى القسوس (ثم) لما وقع
الاختلاف بينهم فى قواعد دينهم وعقايده واجتمعوا بنيقية
ايام قسطنطين لتحرير الحقّ فى الدين واتّفق ثلثماية وثمانية
عشر من اساقفتهم على راى واحد فى الدين فكتبوه وسموه

Digitized by Google

PROLÉGOMÈNES d'Ebn-Khaldoun.

الامانة وجعلوه اصلا يرجعون اليه وكان فيما كتبوه ان البطرك القايم بالدين لا يرجع فى تعيينه الى اجتهاد الاقسّة كما قرّرة حنانيا تلميذ مرقاس وابطل ذلك الراى وانّما يقدم عن ملاء واختيار من ايمّة المومنين وروسائهم فبقى الامر ثم اختلفوا بعد ذلك فى قواعد الدين وكانت لهم مجتمعات فى تقريره ولم يختلفوا فى هذه القاعدة فبقى الامر فيها على ذلك واتّصل فيهم نيابة الاساقفة عن البطاركة وكان الاساقفة يدعون البطرك بالاب تعظيما له فصار الاقسّة يدعون الاسقف فيما غاب عن البطرك بالاب ايضا تعظيما له فاشتبه الاسم فى اعصار متطاولة يقال اخرها بطرسية هرقل باسكندرية فارادوا ان يميزوا البطرك عن الاسقف فى التعظيم فدعوه البابا ومعناه ابو الآباء وظهر هذا الاسم اول ظهوره بمصر على ما زعم جرجس بن العميد فى تاريخه ثم نقلوه الى صاحب الكرسى الاعظم عندهم وهو كرسى رومة لانه كرسى بطرس الرسول كما قدّمناه فلم يزل سمة عليه الى الآن (ثم) اختلف النصارى فى دينهم بعد ذلك وفيما يعتقدونه فى المسيح وصاروا طوايف وفرقا واستظهروا بملوك النصرانية كل على صاحبه فاختلف الحال فى العصور فى ظهور فرقة دون فرقة الى ان استقرّت لهم ثلاث طوايف هى فرقهم ولا يلتفتون الى غيرها وهم الملكيه واليعقوبية والنسطورية ولم نر ان نسخّم اوراق الكتاب بذكر مذاهب كفرهم فهى على الجملة معروفة وكلها

Digitized by Google

كفر كما صرح به القران الكريم ولم يبق بيننا وبينهم فى
ذلك جدال ولا استدلال انّما هو الاسلام او الجزية او القتل
(ثم) اختصّت كل فرقة منهم ببطرك فبطرك رومة اليوم
المسمى بالبابا على راى الملكية ورومة للافرنجة وملكهم قايم
بتلك الناحية وبطرك المعاهدين بمصر على راى اليعقوبية
وهو ساكن بين ظهرانيهم والحبشة يدينون بدينهم
ولبطرك مصر فيهم اساقفة ينوبون عنه فى اقامة دينهم هنالك
واختصّ اسم البابا ببطرك رومة لهذا العهد ولا تسمى
اليعاقبة بطركهم بهذا الاسم وضبط هذه اللفظة بباين موحدتين
من اسفل والنطق بها مفخمة والثانية مشدّدة من مذاهب
البابا عند الافرنجة انه يحضهم على الانقياد الملك واحد
يرجعون اليه فى اختلافهم واجتماعهم تحرّجا من افتراق
الكلمة ويتحرى به العصبيّة التى لا فوقها منهم لتكون يده
عالية على جميعهم ويسمونه الانبرطور وحرفه الوسط بين
الذال والظاء المعجمتين ويباشره بوضع التاج على راسه للتبرك
فيسمى المتوّج ولعله معنى لفظة الانبرطور هذا ملخص
ما اوردناه من شرح هذين الاسمين اللذان هما البابا والكوهن
والله يضلّ من يشاء ويهدى من يشاء

FIN DE LA PREMIÈRE PARTIE DU TOME XVI.

Digitized by Google

Digitized by Google

TABLE

DE LA PREMIÈRE PARTIE DU TOME XVI.

PROLÉGOMÈNES D'EBN-KHALDOUN, première partie du texte arabe, publié par M. Et. Quatremère. ..... page 1

Digitized by Google

Digitized by Google

PREMIÈRE PARTIE.

Digitized by Google

LSoc1621.25 (16')
1860, Oct. 27.
Tome 16, 1e partie, 17, 1e partie, 18, 1e partie,
19, 2e partie $7.20
Hollis Fund

Digitized by Google

NOTICES ET EXTRAITS

DES

MANUSCRITS

DE LA BIBLIOTHÈQUE IMPÉRIALE

ET AUTRES BIBLIOTHÈQUES,

PUBLIÉS PAR L'INSTITUT IMPÉRIAL DE FRANCE,

FAISANT SUITE

AUX NOTICES ET EXTRAITS LUS AU COMITÉ ÉTABLI DANS L'ACADÉMIE DES INSCRIPTIONS ET BELLES-LETTRES.

TOME SEIZIÈME.

PARIS.

TYPOGRAPHIE DE FIRMIN DIDOT FRÈRES, FILS ET Cᵉ,

IMPRIMEURS DE L'INSTITUT IMPÉRIAL DE FRANCE,

RUE JACOB, 56.

M DCCC LVIII.

Digitized by Google

1.70

Digitized by Google

NOTICES ET EXTRAITS

DES

MANUSCRITS

DE LA BIBLIOTHÈQUE IMPÉRIALE

ET AUTRES BIBLIOTHÈQUES.

Digitized by Google

Digitized by Google

Digitized by Google

LSoc 1621.25 (15)

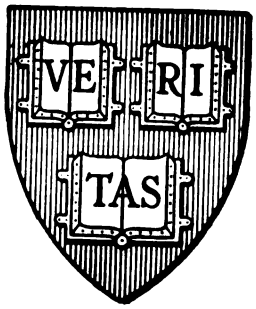

HARVARD
COLLEGE
LIBRARY

Digitized by Google

Digitized by Google